مركز دراسات الوحدة العربية



الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٣٩

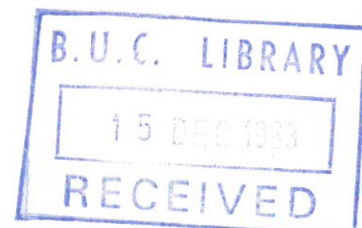
روجر اوين
عباس كليدار
وداد القاضي
رشيد الخالدي
مروان بحيري
هشام نشابة
ستيفان ويلد
ارنولد هوتنغر
طريف الخالدي
سمير صيقلي
وليد قزيها
خلدون ساطع الحصري
جيرالد اوبر ماير

روان بحيري
ترجمة: عطا عبد الوهاب



مركز دراسات الوحدة العربية

الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٣٩



روجر اوين
عباس كليدار
وداد القاضي
رشيد الخالدي

مروان بحيري
هشام نشابة
ستيفان ويلد
ارنولد هوتنغر
طريف الخالدي

سمير صيقلي
وليد قزيها
خلدون ساطع الحصري
جيرالد اوبر ماير

اعداد: مروان بحيري
ترجمة: عطا عبد الوهاب

ظهر هذا الكتاب اصلاً بالانكليزية عام ١٩٨١ تحت عنوان :

Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939

MARWAN R. BUHEIRY, Editor

Center for Arab and Middle East Studies
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية
بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون ـ ص.ب. : ٦٠٠١ - ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون : ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤ ـ برقياً: « مرعربي »
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

الطبعة الاولى
بيروت : تشرين الاول / اكتوبر ١٩٨٣

المحتويات

تقديم

هذا الكتاب يتضمن البحوث المقدمة الى الحلقة الدراسية الخاصة عن « الحياة الفكرية في المشرق العربي ، ١٨٩٠ - ١٩٣٩ : ابعاد غير مستكشفة » ، التي نظمها قسم التاريخ وعلم الآثار في الجامعة الامريكية في بيروت (٢٩ - ٣١ ايار / مايو ١٩٧٩) ، تحت رعاية مركز الدراسات العربية ودراسات الشرق اوسطية في الجامعة .

والمركز ، الذي كان معروفاً في السابق باسم M.E. Area Program ، ثم باسم Graduate Center for M.E. Studies ، هو من نقاط الاهتمام المركزية للنشاط الاكاديمي والفكري في كلية الآداب والعلوم في الجامعة . وهو يوفر منهاجاً للدراسات العليا للبحوث المتبادلة interdisciplinary يشمل جميع الاقسام المتخصصة بالدراسات العربية ودراسات الشرق الاوسط ، وهي على وجه التعيين قسم اللغة العربية ولغات الشرق الادنى ، قسم التاريخ وعلم الآثار ، قسم الفلسفة ، قسم الدراسات السياسية والادارة العامة ، قسم الاقتصاد ، وقسم العلوم الاجتماعية والسلوكية . والقسم يمنح طلابه درجة ماجستير في حقل الدراسات العربية والشرق اوسطية . اما بالنسبة لجمهور العلماء في العالم المهتمين بالدراسات العربية والاسلامية والشرق اوسطية فإن المركز ينشر مجلته العلمية « الابحاث » ، كما ينشر الفهرست الموجز للشؤون العربية ، « الوثائق العربية » .

وتمكن المركز ، بمساعدة كرسي الشيخ زايد للدراسات الاسلامية ، وذلك اعتباراً من ١٩٧٧ ، من تنظيم سلسلة واسعة من الفعاليات الثقافية ، مفتوحة لاعضاء الهيئة التدريسية والطلاب المعنيين في الجامعة ، وللجمهور البيروتي ، وللزائرين من الباحثين المختصين من مختلف انحاء العالم . مثل هذه الفعاليات تتراوح بين ندوات مفتوحة

ومحاضرات عامة دورية [منتظمة] ومؤتمرات علمية عن مواضيع بعينها تتعلق بالدراسات العربية والاسلامية والشرق اوسطية . اما سياسة المركز في النشر فهي ان ينشر المحاضرات العلمية في مجلته « الابحاث » ، والبحوث [الاوراق] المقدمة للندوات المفتوحة في نشرة منفصلة هي « اوراق مركز الدراسات العربية والشرق اوسطية » ، والبحوث [الاوراق] المقدمة في مؤتمرات وما شابهها في كتب خاصة تغطي المحاضر ؛ ومن هنا هذا الكتاب ، الذي يحتوي على محاضر الحلقة الدراسية الخاصة عن « الحياة الفكرية في المشرق العربي ، ١٨٩٠ - ١٩٣٩ »، والتي كانت اول مؤتمر يعقده المركز ضمن نشاطاته .

أود ان أقدم - باسم المركز - شكري للاستاذ كمال صليبي رئيس قسم التاريخ وعلم الآثار ؛ وللاستاذ المساعد مروان بحيري على تنظيمه الحلقة الدراسية الخاصة وتحريره لمحاضر الجلسات ؛ ولزاهي خوري وسهى طوقان وماري بركات من دائرة مطبوعات الجامعة على تعهدهم للكتاب في مختلف مراحل إخراجه .

إحسان عباس

مدير مركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الاوسط .

استهلال

نظّم قسم التاريخ وعلم الآثار ومركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الاوسط ، في ايار / مايو ١٩٧٩ ، حلقة دراسية دولية للنظر في بعض جوانب التاريخ الثقافي والاجتماعي للمشرق العربي بين ١٨٩٠ و ١٩٣٩ . وقد اوليت اسبقية الى عدد من الابعاد التي بدت بحاجة الى مزيد من الاستكشاف . ومن بين ابرزها الصحافة السياسية كمرآة تعكس القضايا الجوهرية للمرحلة ؛ والقومية؛ والعلاقات مع الغرب ؛ والاصلاح السياسي والاجتماعي ؛ ودور الدين في المجتمع .

ومن بين المقالات الثلاث عشرة في هذا الكتاب، تبحث سبعٌ منها بشكل ما في الصحافة : فالجرائد والدوريات التي بُحثت تتضمن « المؤيد » ، « ثمرات الفنون » ، « المفيد » ، « المقتبس »، « العرفان » ، « الايمان » ، و« المجلة الفينيقية » . وقد ظهر اتفاق عام في الرأي ، وذلك سواء من بحوث الحلقة او من المباحثات الدائرة ، بأن النهضة العربية قد اتخذت لوناً سياسياً ، الى جانب تأكيدها التقليدي على الأدب والفلسفة والتاريخ والثقافة . لذا تقدِّم عدة من البحوث برهاناً على تنبّهٍ متنامٍ في المنطقة لتطفلات من مثل الامبريالية والصهيونية ، ولبعض الهنات [لحركة] الاقتداء بالحياة الغربية .

وركّزت مساهمات اخرى على قيمة الهوية ، كما في اعمال علي مبارك وامين الريحاني ؛ والقومية العربية ، خاصة في اعمال نجيب عازوري وساطع الحصري ويونس السبعاوي ؛ والفكر الاقتصادي للبرجوازية الوطنية المصرية .

إن موضوعات هذا الكتاب ، التي قدمت اولاً للحلقة الدراسية مع التعديلات التي ارتأى مؤلفوها إجراءها في الاشهر اللاحقة ، قد قسمت حسب المناطق . اما عن التنظيم

الفعلي لحلقات البحث، وتسلسل التقديم ، وقائمة المشاركين ، فيرجى الرجوع الى الملحق . وانسجاماً مع الطبيعة **المتعددة الجوانب** في البحوث multidisciplinary للحلقة الدراسية ، فقد جرى اتباع المبدأ القاضي بالقبول ما امكن بما يفضله كل مؤلف بشأن تعريب الاسماء ، والتهجئة والهوامش وما أشبه من أعراف .

إن هذا الكتاب هو ابعد ما يكون مسحاً للتاريخ الفكري العربي الحديث ، فهو في الواقع محاولة في اقامة البناء على أساس اعمال جورج انطونيوس وألبرت حوراني وهشام شرابي ، كما انه في الوقت عينه محاولة في استثارة المزيد من الاهتمام العلمي في حقل يتطلب التقويم المتواصل ، وخاصة في ضوء المصادر ، مثل الجرائد اليومية والدوريات ، والتي لم يجر استخدامها كلياً حتى الآن . وبهذه المناسبة فإن مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت تصلح ان تتخذ مركزاً للبحث ، لاحتوائها على مجموعة من افضل مجموعات العالم عن المواد العربية الاساسية لهذه المرحلة وغيرها . إن الباحثين الذين استكشفوا الحقبة المبحوثة في الحلقة الدراسية ، ربما واجهوا حاضرهم ، كما واجهه بعضنا ، ولو في وقت البذار اكثر مما في وقت الحصاد .

مروان بحيري

القسم الأول

القاهرة

الفصل الاول

الوطنية الاقتصادية في سياقها المصري (١٩١٩ - ١٩٣٩)

روجر أوين

مقدمة

يمكن القول بصورة عامة ان دراسة مجموعات من الافكار ، تكون إمّا لفائدتها العامة ، وإمَّا لأنها تمثل موقفاً او وجهة نظر عالمية لجماعة معينة او طبقة اجتماعية . وتبعاً لذلك فإنه في كل حالة من الحالات ستختلف الطرق المستخدمة والاسئلة الموجهة . وفي حين سيتركز دراسة النوع الاول بالطبع على المحتوى الفكري للافكار قيد الدرس على منشئها ، اصلها ، مصدرها وعلاقتها بطرق التفكير الاخرى ، فسيعنى النوع الثاني بالضرورة بدرجة اقل بأهليتها وبعناية اكبر بطريقة استخدامها . وفي مثل هذه الحالات لا يحتمل ان تكون الافكار ذاتها عميقة جداً او ثابتة جداً ، عاكسة كما هو شأنها غموض المصالح العائدة للذين يستخدمونها . وليس غرضها توفير اجوبة شاملة او مرضية كلياً عن المشاكل ، بل على الاصح اقناع الناس بأن يعملوا بطريقة معينة ، او السماح لاصحابها بتحسين وضعهم الاجتماعي وبمقارعة مجموعة افكار مناهضة او خطرة ، يحتمل ان تهددها .

ويولي هذا البحث اهتمامه لدراسة من هذا النمط الثاني . والذي اود القيام به هو تفحّص مجموعة معينة من الافكار عن الاقتصاد وعن مستقبل تطوره اعتنقتها جماعة صغيرة من المصريين من متنفذي المصرفيين والتجار ورجال الاعمال في اعوام ما بين الحربين العالميتين . كذلك اريد ان أدعم بالحجة قولي الذي مفاده انه بينما كانت كل فكرة فردية من الافكار مستوردة من الخارج ، فإنها في مصر قد وضعت جنباً الى جنب لتشكل مذهباً في الوطنية الاقتصادية هو مذهب متماسك نسبياً فأتاحت لهذه الجماعة استخدام قوة الدفع الخاصة بالكفاح المصري من اجل الاستقلال وذلك لخدمة مصالحها الخاصة ، الاضيق

افقاً . وفي قيامي بذلك فإني سأركن الى عمل ماريوس ديب Marius Deeb وروبرت تغنور R. Tignor[١] . لكني سأصب كذلك بعضاً من اهم ما توصلا اليه في قالب مختلف بعض الشيء .

اولاً : خلق الوطنية الاقتصادية قبل ١٩١٩

« وفي فترة لاحقة ، وبالنظر لازدياد عدد السكان بصورة محسوسة ، فقد ألحت الامة على الحكومة ، عن طريق الصحافة ، على تشجيع الصناعة واعطاء مزيد من الاهتمام للدعاية لها باعتبار ان الزراعة بمفردها قد لا تكون كافية لاستيعاب كافة السكان »[٢] .

« إننا ليس لدينا وجود اقتصادي جماعي ، ونحن لا نلعب دوراً إيجابياً بل سلبياً ، ونعاني في مصر من تقلبات الحركات الاقتصادية دون ان نقدر ، بدورنا ، على التأثير فيها بأي شكل . والسلع التي تخرج من يد المزارع تذهب في جميع الحالات تقريباً الى ايدي الاجانب . . . إننا لا نساهم في الصناعة الا قليلاً لأننا لا نملك رأس المال لتوظيفه بصورة مفيدة في صفقات مالية »[٣] .

« من المؤكد ان الاستثمار في الصناعة برأسمال مصري خالص قد يكون مفضلاً من كافة الوجوه . فالمشاريع الصناعية إنما تخضع لرقابة افضل عندما تمارس هذه الرقابة على المحل الذي يقيم فيه ذوو العلاقة . وبدلاً من هجرة الربح الصناعي الى الخارج فإن بقاءه في البلد يساهم في الحركة العامة لرخائه . ان الجمهور ، حاله حال السلطات العامة ينظر بترحاب ابلغ لصناعة قائمة برؤوس اموال مصرية باعتبار ان رأس المال الاجنبي ينظر اليه احياناً ، وهذا غير صائب في الحقيقة ، كتدخل من شأنه استغلال البلد دون ان يعود ذلك بأي نفع عليه »[٤] .

إن مسألة استقلال مصر الاقتصادي ومستقبل تطوره كانت موضوعاً أثار مشاعر قوية في مستهل القرن العشرين . وقد يصح القول ان تقرير اللجنة الحكومية عن التجارة والصناعة إنما يوجز التفكير المصري - والتفكير البريطاني الى حد ما كذلك - عن الموضوع

(١) انظر خاصة : Marius Deeb, *Party Politics in Egypt: The Wafd and Its Rivals, 1919-1939* (London: Ithaca, 1979), passim; Robert L. Tignor, «The Egyptian Revolution of 1919: New Directions in Egyptian Economy,» *Middle Eastern Studies*, vol. 12, no. 3 (October 1976), pp. 44-60, and Tignor, «Bank Misr and Foreign Capitalism,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 8 (1977), pp. 161-181.

(٢) Sayed Marei «L'Industrie en Egypte,» papier présenté à: Parti national égyptien, Congrès national égyptien, Bruxelles, 22-24 Septembre 1910, *Oeuvres du Congrès national égyptien tenu à Bruxelles le 22, 23, 24 Septembre, 1910*, p. 231.

(٣) «The Economic Situation,» report of the: Egyptian Ntional Congress, 1, Heliopolis, 1911, *Minutes of the Proceedings of the First Egyptian National Congress* (Alexandria: 1911), pp. 31-32.

(٤) Egypte, Commission du commerce et de l'industrie, *Rapport de la Commission du commerce et de l'industrie*, 2ème ed. (Le Caire: La Commission, 1922), p. 70.

لبضعة عقود من السنين ، بتأكيده على مخاطر الزراعة الاحادية المحصول (او الاعتماد البالغ على محصول زراعي واحد) ، وعلى اهمية التصنيع باعتباره وسيلة لتنويع النشاط الاقتصادي ولتوفير العمل لفائض السكان في الريف ، وعلى الحاجة لتقليل السيطرة الاجنبية[٥] . ولا يهم ان كل هذه الافكار لا هي بالجديدة ولا بالمبتكرة : فمفهوم الزراعة الاحادية المحصول كان قد تطور في فرنسا تلبية للدمار الذي احدثه قمل نبات الكروم (مرض اشجار العنب المسمى Phylloxeta) في اقتصاد المناطق الجنوبية في التسعينات من القرن الماضي ، [كما ان] الجهود المبذولة لتقليل التبعية الاقتصادية كانت قد اصبحت جزءاً من مناهج العديد من الانظمة التي شعرت بالتهديد من قوة بريطانيا وفرنسا والمانيا وذلك ابتداء من نظام بطرس الاكبر [في روسيا] حتى نظام جماعة تركيا الفتاة [في الامبراطورية العثمانية][٦] . والنقطة التي هي في صميم الموضوع بدرجة اكبر هي الطريقة التي تبنى بها هذه الافكار ، وبغاية الحماسة - الوطنيون المصريون عموماً - بل ليس هؤلاء فحسب ، وإنما على الاخص المجموعة الصغيرة كذلك من المصرفيين والممولين والذين كانوا ممثلين خير تمثيل في لجنة التجارة والصناعة نفسها . ومع ان رئيس اللجنة ، اسماعيل صدقي ، قد قضى معظم حياته العملية في الحكومة فقد كان المصريون الآخرون فيها هم امين يحيى ، التاجر ورجل الاعمال ، وطلعت حرب ، المدير وعضو مجلس الادارة لعدد من المشاريع المهمة ، ويوسف قطاوي الذي ينتسب الى احدى العوائل اليهودية الصيرفية البارزة . وفي الوقت نفسه ، مثّل مصالح الجالية الاجنبية ذات الاعمال المحلية هنري ناوس من شركة السكر المصرية القوية . وما كان يجمع هؤلاء الرجال ليس مجرد الايمان بأن على مصر ان تتصنع ، وهو ايمان يشتركون فيه مع الاغلبية الساحقة من المفكرين الوطنيين ، وإنما الذي كان يجمعهم هو ان هذه العملية يجب ان تكون من عمل الرأسماليين المحليين وهم يستخدمون اموالاً محلية .

ويستفاد المؤشر الآخر نحو مصالح هذه المجموعة الصغيرة من الطريقة التي شخّص بها التقرير ضعف مركزها بكل وضوح . فمصر لا تزال بلاداً زراعية بشكل عام سائد ، وليس فيها قطاع صناعي حديث الا بحجم ضئيل . ويسيطر الاجانب على مصارفها

(٥) Samir Muhammed Radwan, *Capital Formation in Egyptian Industry and Agriculture, 1882-1967*, St. Antony's Middle East monographs, 2 (London: Ithaca for St. Antony's College, Middle East Centre, 1974), pp. 177-185; Edward Roger John Owen, *Cotton and the Egyptian Economy, 1820-1914: A Study in Trade and Development* (Oxford: Clarendon, 1969) pp. 333-351, and Robert Mabro and Samir Muhammed Radwan, *The Industrialization of Egypt, 1939-1973* (Oxford: 1976), chap. 1.

(٦) على سبيل المثال : C. Keydar, «The Political Economy of Turkish Democracy,» *New Left Review*, no. 115 (May / June 1979).

وشركاتها العامة وسوقها المالية بصورة تامة(٧) . والمصريون القلائل من رجال الاعمال والمال لا يتمتعون ، بالمقارنة مع الطبقة القوية من اصحاب الاراضي ، سوى بقوة اقتصادية وسياسية قليلة . ومما يزيد الطين بلّة انه ليس من الواضح ابداً مدى التفاف هؤلاء حول اهدافهم ، فبعضهم اكثر تمسكاً بهدف التصنيع المصري المستقل من الآخرين . وفي مثل هذه الحالة لم يكن لهم من بُدّ سوى عرض افكارهم بأعم طريقة مع تأكيد خاص على عنصرهم « الوطني » . وكأن المفروض ان هذا سوف لا يقتصر على توفير قاسم مشترك لاولئك القلائل من المصريين الذين يأملون بالحصول على سهم اكبر من الاعمال التي كانت آنئذٍ من حصة الاجانب ، بل ان هذا سيقيم صلة مع باقي مواطنيهم ممن تدعو الحاجة للحصول على عونهم الايجابي إن كانوا سيستطيعون اطلاقاً تحسين حالتهم ازاء منافسيهم الاوروبيين . وهكذا يبذل التقرير كل الجهد ، وبما يتيسر من الاقناع ، للدفاع عن قضية المساهمة المحلية الاكبر قدراً في الصناعة والتمويل . ويؤكد مراراً وتكراراً على اهمية استثمار المصريين في تطويرهم الاقتصادي ؛ ويلح على الحاجة التي تدعو عمال المصانع للعمل بشكل معقول ومسؤول وذلك في سبيل المصلحة الوطنية .

ولئن كان العون المصري لا يستغنى عنه فإن تشجيعه لا ينبغي ان يكون بطريقة من شأنها إفزاع المتنفذين من الجالية الاجنبية التي تزاول الاعمال والتي تقطن القاهرة والاسكندرية . ومن هنا التأكيد على اهمية الرأسمالية باعتبارها وسيلة لتوثيق الحلف مع تلك العناصر الاوروبية في البلاد التي تعتبر اموالها وخبرتها ضرورية ايضاً اذا اريد لمناهج التصنيع والاستقلال الاقتصادي ان يبتدىء . إن الطبقة الجنينية للصناعيين والمموليـن المصريين ، على خلاف اشباههم في تركيا الذين انضموا الى حركة تركيا الفتاة ، لم يكن لديها سوى قليل حظٍ لاستغلال سلطة الدولة لخلق الظروف لغرض تقدمها . فالـذي كانت تدعو اليه الحاجة بدلاً من ذلك هو العملية الاصعب جداً لاستعمال قوة القومية لبناء مركزها دون إقلاق الجالية الاجنبية المحلية او إتاحة المجال للطبقات المصرية الاخرى ان تعتقد بأن لتلك الفئة مصالح لا تنسجم مع مصالحها . وتقرير لجنة التجارة والصناعة ليس مجرد منهاج لمجموعة اجتماعية معينة ، بل هو ايضاً بيان محدد عن مركزها الاقتصادي والسياسي .

ثانياً : الوطنية الاقتصادية في العشرينات

« ومع ذلك ، وبالرغم من تفوق الناتج المحلي فإن بعض الادارات المصرية كانت تعطي الافضلية للمنتوج الاجنبي ، إما طواعية ، وإما لأن العرض المحلي اغلى من العرض الاجنبي ، إذ ان تلك الادارات

(٧) Arthur Edwin Crouchley, *The Investment of Foreign Capital in Egyptian Companies and Public Debt*, Egypt, Ministry of Finance, technical paper, 12(Cairo:Government Press, Bulâq, 1936), chap. 4.

تكون مضطرة لحد ما الى اختيار المنتوج المستورد نتيجة للتطبيق الحرفي الذي تمارسه دوائر الرقابة للتعليمات المالية التي تشترط قبول العطاء الاوطأ ، رغم ان شراء المادة المتفوقة قد يحقق للخزينة توفيراً هاماً »(٨) .

أتخذت في اوائل العشرينات عدة اجراءات مهمة لتنفيذ اجزاء مختلفة من منهاج الوطنية الاقتصادية كما وردت في تقرير لجنة التجارة والصناعة . فقد تأسس بنك مصر سنة ١٩٢٠ ، باعتباره البنك الاول المملوك كلياً من المصريين ، مع نظام داخلي ينص على وجه التعيين ان ابناء مصر وحدهم يمكنهم أن يكونوا مساهمين فيه او اعضاء في مجلس ادارته . ولعبت هـذه المؤسسة الجـديدة دوراً أساسياً في تجميع مدخرات الاهـالي المصـريـين واستخدامها في دعم مختلف المشاريع من ضمنها تأسيس عدد من الشركات العامة . وقد أعقب ذلك تأسيس اتحاد الصناعات المصري ، سنة ١٩٢٢ ، من قبل عدد معين من اعضاء الجالية الاجنبية في الاسكندرية والقاهرة ، ومنهم خاصة هنري ناوس و S. Sornaga صاحب مصنع السكر الذي جاء كتابه « الصناعة في مصر » (القاهرة ١٩١٦) دفاعاً قوياً من اجل الاقدام نحو تطور صناعي اكبر. وفي الحال غدا الاتحاد ، ومجلته ذات الاثر المسماة « مصر الصناعية » ، مصدراً مهماً للضغط على الحكومة لتنفيذ مقترحات اساسية معينة وردت في تقرير لجنة التجارة والصناعة كوضع تعريفة اجور نقل تفصيلية للسكك الحديد لصالح الصناعة المصرية وكشراء البضائع المصرية الصنع شراء محلياً .

كان ثمة ـ لبضع سنين ـ فارق صغير بشأن موضع الاهتمام وذلك بين افكار طلعت حرب ، مؤسس بنك مصر ، وبين المنظرين الرئيسيين لاتحاد الصناعات مثل اسماعيل صدقي وآي . جي . ليفي ، فطلعت حرب يولي اهمية اكبر للحاجة الى رأسمال وطني صرف ومشاريع وطنية خالصة . اما في ١٩٢٥ فلم تتخذ مثل هذه الفوارق اكثر من اهمية أكاديمية او جدلية حينما انضم بنك مصر رسمياً للاتحاد واصبح طلعت حرب من بين اوائل الاعضاء المصريين في مجلس ادارته . ثم امسى هذا الاتجاه اكثر وضوحاً حين بدأ البنك في ١٩٢٧ ، وقد شدّت من عضده الانباء القائلة بأن الحكومة ستصر على استعادة حق البلاد بوضع تعريفاتها الجمركية حينما تنتهي المعاهدات الدولية النافذة في ١٩٣٠ ، بدأ البنك بمزاولة سياسة انشط تتعلق بتشجيع المشاريع الصناعية المصرية . وقد اتضح فوراً أن كلاً من المبالغ الضخمة الخاصة بتأسيس معامل مثل شركة مصر لغزل ونسيج الاقطان والخبرة الفنية اللازمة لذلك هما فوق طاقة ما يستطيع البنك توفيره . ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً لم يعد يُنص على ان جميع اعضاء مجالس الادارة للشركات الجديدة يجب ان يكونوا من اهالي مصر(٩) . وفي ١٩٢٩ ذهبت هذه العملية الى ابعد من ذلك حين تأسست « الشركة

(٨) I.G. Lévi, «L'Industrie égyptienne: Préjugés et errements,» *L'Egypte Contemporaine*, vol. 20, no. 5 (Mai 1929), p. 507.

(٩) Tignor, «Bank Misr and Foreign Capitalism,» p. 170.

المصرية لتصدير القطن » واتى نصف رأسمالها من شركة المانية لتصدير القطن يملكها هوغو لنديمان Hugo Lindemann . ولا بد ان تبرير طلعت حرب المتهافت نوعاً ما ، والخاص بالشراكة الجديدة والمستند الى كون لنديمان نفسه يتكلم العربية وقضى حياته كلها في مصر ، لا بد أنه بدا لأكثر زملائه بمثابة اعتراف ضمني بأن منهاجه بتشجيع المشاريع الوطنية الصرفة امر مستحيل التطبيق في مثل مرحلة التطور التي تمر بها البلاد(١٠) .

وكان يعتمل شيء آخر من المنطق نفسه في مسألة موقف كل من بنك مصر واتحاد الصناعات نحو تدخل الدولة في الاقتصاد . وباقتراب تمتع الحكومة بوضع تعريفاتها الجمركية ، فقد اصبح من الضروري ليس فقط ضمان استعداد الحكومة وقدرتها على حماية الصناعات الملائمة وذلك بمستوى ملائم من الرسم ، إنما ايضاً ضمان تحديد طبيعة العلاقة بين الدولة والقطاع الخاص بشكل يروّج الى الحد الاقصى مصالح « المنظمين entrepreneurs » في مصر . وكان تقرير بنك مصر عن الصناعة سنة ١٩٢٩ الذي كتبه طلعت حرب ويوسف قطاوي ، عبارة عن محاولة لفعل ذلك بالضبط . ومع ان التقرير يبدأ بتكرار الحجة نفسها التي أوردتها لجنة التجارة والصناعة بشأن الحاجة لاستقلال اقتصادي ولتطوير صناعي ، فإن ثقله الاساسي ينصب على الاقتراح الذي مفاده ان تعمل الدولة والقطاع الخاص بدأب لوضع برنامج مشترك لتأسيس عدد من المشاريع الجديدة(١١) . ويكشف الكثير مرة اخرى ، وبوضوح ، عن وضع الطبقة المالية والصناعية التي لا زالت صغيرة جداً في مصر . فأعضاؤها بحاجة الى مساعدة الحكومة بعدد كبير من الطرق - توفير الحماية الجمركية ، توفير الاعتمادات المالية - ولكنهم تواقون كذلك لضمان الحصول على مثل هذه المساعدة وفق شروطهم وعلى شاكلة من شأنها زيادة سلطتهم دون جعلهم يعتمدون اعتماداً فائقاً على سيطرة الدولة . وكما ستبين احداث الثلاثينات رئيس وزراء متعاطفاً ، كاسماعيل صدقي ، كان غير قادر وغير مستعد معاً لوضع سياسة ضمن اطار مصالح هذه المجموعة الواحدة فقط لا غير . مع ذلك فإن الرأسماليين المصريين استطاعوا ، وذلك بعرض قضيتهم الخاصة بالرأسمالية الوطنية بشكل بالغ الصراحة ، ان يحتفظوا برأس جسر عقائدي مهم حين آن وقت البحث في السياسة الاقتصادية العامة ، كما استطاعوا ان يضمنوا سير ذلك البحث بصورة تهم مصالحهم .

ثالثاً : الوطنية الاقتصادية في الثلاثينات

« تمتلك مصر كل الشروط اللازمة لضمان تطور ونجاح صناعات معينة . فهي من جهة تتوفر لديها كميات هائلة من المواد الاولية اللازمة للتحويل الصناعي . ومن جهة اخرى لا تنقص مصر اليد العاملة .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٧١ .

(١١) بنك مصر ، **انشاء الصناعة الاهلية** (القاهرة : البنك ، [١٩٢٩؟]) ، ص ٦٥ وما بعدها .

فالعامل المصري يقنع بأجر زهيد ، وهو مجدّ وشديد التحمل وقادر على استيعاب التقدم ، وعلى العموم لا تنقصه سوى الخبرة ليستعيد سمعته في الاقتدار الكفء التي كان يتمتع بها اسلافه ، وخير شاهد عليها هذه الصروح القائمة الآن »(١٢) .

« لا تتكلم قط الا بالعربية ، ولا تجب من يكلمك بلسان آخر كائناً من يكون . لا تدخل قط مخزناً لم يكتب اسمه بالعربية . ولا تشتري الا من مصري ، ولا تلبس الا ما هو مصنوع في مصر ، ولا تأكل الا طعاماً مصرياً . . . وازدر ما هو غريب من صميم القلب ، اما في وطنيتك فكن غيوراً حتى الجنون . . . »(١٣) .

إن تمتع مصر بوضع تعريفاتها الجمركية بنفسها ، وحلول الكساد العالمي ، قد أحدثا تغييراً عميقاً في المحيط الاقتصادي والسياسي الذي كانت تعتلج فيه الطبقة المصرية الصناعية والمالية وهي لما تزل جنينية . فإننا نجد ، من جهة ، ان المبالغ المطلوبة للمشاريع الصناعية الجديدة هي اكثر بكثير من السابق على الاطلاق ، وهذا في وقت كانت فيه المبالغ التي يريد اهالي مصر استثمارها قد انخفضت كثيراً . ونتيجة لذلك سيكون من الضروري ، لو اريد لمعامل جديدة ومصانع اخرى ان تقام ، الاعتماد حتى بدرجة اكبر ليس فقط على الجالية الاجنبية في البلاد بل كذلك على الرأسماليين في اوروبا نفسها . ومن جهة اخرى فإن آثار الازمة العالمية قد احدثت فورة في الوطنية المحلية فإذا بها تولي اهتمامها السريع نحو المجال الاقتصادي . فأسس سلامة موسى سنة ١٩٣٠ « جمعية المصري للمصري » وهي تهدف فيما تهدف اليه ، كما قال ، الى ايقاظ ضمير الامة الاقتصادي . ونظّم الوفد سنة ١٩٣١ مقاطعة للبضائع البريطانية فعجلَتْ منظمات شعبية اخرى الى اتّباعه ، وهو امر سرعان ما امتد الى منهاج لاقناع المصريين بالتخلي عن شراء المنتجات الغربية من كل الانواع(١٤) . وفي حين كان الصناعيون المحليون ، على ما هو واضح ، في وضع يمكنهم من نوال بعض المنفعة من حركات كهذه ، فقد كان عليهم التزام الحيطة أكثر من اي وقت مضى حتى لا يؤدي هذا الى الاضرار بعلاقتهم مع الرأسمال الاجنبي . كما وُضعوا وجهاً لوجه امام الحقيقة التي مفادها ان دورهم الذي هو دور القيادة الاقتصادية لمصر سيكون ، وفي مناخٍ من النشاط الوطني الراديكالي ، خاضعاً حتماً للفحص الدقيق ، وربما للتحدي . اما أنهم استطاعوا ركوب صعاب تلك السنين بالسهولة التي اظهروها فإنما يشهد لهم الى حد كبير بقدرتهم المتواصلة على دعم وضع ضعيف بحشد مقنع من الحجة القوية .

(١٢) S.E. Ahmed Abdel-Wahab Pasha, «Egypte moderne: Problèmes économiques et financiers,» *L'Egypte Contemporaine*, vol. 26, no. 1 (Janvier - Février 1935), p. 159.

(١٣) قسم من برنامج مصر الفتاة كما ورد في : **الطليعة** (القاهرة) ، السنة ١ ، العدد ٣ (آذار / مارس ١٩٦٥) ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

(١٤) Deeb, *Party Politics in Egypt: The Wafd and Its Rivals, 1919-1939*, pp. 261-263.

والفائدة المباشرة الثانية التي تمتع بها « المنظّمون » في مصر في الثلاثينات هي التغير المهم في موقف قطاع الاعمال البريطاني تجاه مجهوداتهم . فبينما حاول الانكليز عموماً ، في العشرينات ، تثبيط التطور الصناعي في مصر ، وخاصة ذلك الذي يدعمه بنك مصر ، فقد بدأ بعض البريطانيين في الثلاثينات يدركون فائدة التعاون مع المشاريع المصرية كوسيلة لكسب موطىء قدم داخل الحاجز الجمركي المقام في البلاد[١٥] . فكانت الثمرة الاولى لهذه الاستراتيجية الجديدة تأسيس شركة مصر للطيـران Misr Airworks في **١٩٣٢** برأسمـال بريطاني قدره **٤٠** بالمائة . وبلغت هذه الاستراتيجية ذروتها في **١٩٣٨** بتأسيس شركتين كبيرتين لصبغ وغزل ونسج الاقطان حين أقدم بنك مصر على مشاركـة بالمنـاصفة لهـذا الغرض مع شركة برادفورد للغزل والنسيج[١٦] .

وأخذاً بنظر الاعتبار لمثل هذه التطورات فقد كان من الطبيعي ان يهتم الصناعيون المصريون ، اكثر من اي وقت مضى ، بتأكيـد هويتهم الـوطنية القـوية ، ولاسيما ان نجاحهم المتنامي كان يضعهم في موضع النزاع مع مجموعتين مهمتين اُخريين في المجتمع المصري . اولاهما مجموعة اصحاب الاراضي الكبار الذين ما أن واجهوا تدهور الارباح في الثلاثينات حتى بدأوا يومئون الى كون القطاع الصناعي لا يكاد يدفع ضرائب وبذا احتل مكانة فريدة في امتيازها في المجتمع المصري . ثم كان أن برهن هذا انه الطلقة الاولى في صراع بدت فيه المصالح الجوهرية لذوي الدخل الناشىء أساساً من الارض ولذوي المال الحاصل من الصناعة أنها مصالح في نزاع متزايد . اما الدعاة المقربون من القطاع الصناعي فإنهم ، إذا أدركوا ان هذا القطاع لم يعد معتمداً كل الاعتماد عـلى اصحاب الاراضي للحصول على رأس المال ، فقد اطلقت ايديهم لاستكشاف منطق هذا الوضع الجديد ، الامر الذي بلغ ذروته في خطة ميريت غالي لسنـة **١٩٤٥** لإصـلاح زراعـي محـدود ، والقائمة جزئياً على اساس ان هذا الاصلاح سيوسع السوق للسلع الصناعية المصرية[١٧] . والمجموعة الثانية هي العمال في القطاع الصنـاعي ذاته . ففي خـلال الثلاثينـات شن الصناعيون المصريون ، بمساعدة اسماعيل صدقي نفسه ، هجمات منتظمة على الحماية القانونية المحدودة القائمة لصيانة حقوق العمال وذلك من اجل الابقاء على الاجور في ادنى درجة ممكنة . لكل هذه الاسباب فقد ظلت المجهودات المبذولة لتأكيـد دور رأس المال الوطني في تطور البلاد الاقتصادي ، ظلت من الاهمية بمكانٍ كبير .

---

(١٥) Tignor, «Bank Misr and Foreign Capitalism,» p. 171-173.

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ .

(١٧) على سبيل المثال : Mirrit [Boutros] Ghali Bey, «Un Programme de réforme agraire pour l'Egypte,» *L'Egypte Contemporaine*, vol. 38, no. 1 (Janvier - Février 1947), p. 6.

الخاتمـــة

كان النقاش الاساسي لهذا البحث هو ان قطاعاً صغيراً من المجتمع المصري ـ قطاع الصناعيين والممولين ـ قد استخدم ضرباً من الوطنية الاقتصادية للمحـافظة عـلى هيمنة عقائده بارزة على التفكير الخاص بالاقتصاد وبتطويره خلال عقود ما بين الحربين . وكان بالامكان مناقشة ان هذه الهيمنة استمرت الى ما بعد ثورة **١٩٥٢** بأمد ، ولم يبدأ التحدي لمنطلقاتها الاساسية بصورة منتظمة ، ومقنعة بالنهاية ، الا في اواسط الخمسينات . إن كون العناصر الرئيسية لهذا المذهب « مستعارة » من الخارج لهو اقل في الاهمية بكثير من أنها قد استخدمت ببالغ الفعّالية في سياق مصري لهذا الامد الطويل . ويمكن رؤ ية البرهان على نفوذ المذهب في حقلين مترابطين . الاول ، ان الصناعيين والممولين في مصر استطاعوا استخدام الحجة المؤ يدة لرأس المال الوطني وذلك لتوسيع مجال نفوذهم على حساب اولئك الرأسماليين الاجانب بالذات والذين استمروا هم في الاعتماد على مساعدتهم . فقد كان هناك بحلول **١٩٤٦** نحو **٦٠** شركة عامة تدار من قبل المصريين كلياً مقابل شركات مماثلة تعد على الاصابع فقط في اوائل العشرينات . وكان ثلث اعضاء مجالس الادارة في مصر ، حسب رأي عيساوي ، يحملون بحلول**١٩٥١** اسماء تدل على انهم إما من المسلمين وإما من الاقباط ازاء حوالى **٣٠** بالمائة من حملة الاسماء الاوروبية على مـا هو واضـح من ظاهـر الاسماء[١٨] . والحقل الثاني انهم ، في الوقت الذي حسّنوا فيه مركزهم تجاه افراد الجالية الاجنبية في البلاد ، تمكنوا من ايقاف الدولة والفئات الاخرى ذات المصالح المتعارضة في المجتمع المصري بعيداً عنهم . ولم يجر حتى **١٩٥٢** اي تأميم في قطاع الصناعة المصري ، كما ان اغلب الانظمة والقواعد قد صيغت بشكل يلائم متطلبات « المنظمين» في مصر ، بينما كانت تصد بنجاح التحديات الموجهة من العمال ومن اصحاب الاراضي الكبار . فإذا اخذنا بنظر الاعتبار ضعف مركز قطاع الصناعيين والممولين المصريين ابتداء فإن ما ذكر يعتبر انجازاً ذا شأن .

---

(١٨) Charles Philip Issawi, *Egypt at Mid- Century: An Economic Survey*, rev. ed. (London; New York: Oxford University Press under the auspices of the Royal Institute of International Affairs, 1954), p. 63.

الفصل الثاني

الشيخ علي يوسف: صحفي مصري وقومي اسلامي

عباس كليدار

ما من بلد في الوطن العربي خَبَر تأثير الطباعة الكامل كما خبرته مصر . وقد كانت القاهرة ، طيلة القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين مركز النتاج الفكري الذي ساد المناخ الثقافي في البلاد العربية . فالطباعة قد مكنّت الكتاب والصحفيين ودعاة الافكار من مختلف اجزاء الوطن العربي من بلوغ قطاع اوسع من القراء . كما أنها عزّزت تضامنهم ؛ وأولت المثقفين اعترافاً بأنهم بمثابة المنبئين بأفكار عصرية . لقد عمل هؤلاء كمحفزين لظهور مفاهيم جديدة ولاحياء تصورات قديمة عن اعادة تنظيم المجتمع والدولة ومركز الفرد ، فضلاً عن طبيعة علاقته مع كليهما .

وقد ازدهرت الصحافة في مصر الى درجة بلغت في سنة ١٨٨١ حداً صدر معه قانون للصحافة لتنظيم نشاطها ورقابته . وبعد ذلك بعام وعلى اثر احتلال الانكليز لمصر تجاوزت التطورات السياسية القانون المذكور . فأصاب الركود نشاط الصحافة المصرية مدة سبع سنين . إن العديد من الصحفيين الثوريين الذين نطقوا باسم القضية العرابية قد سجنوا ، او نُفوا ، او هربوا . وكان لا بد لما تبقى من الصحافة ان تعيد توجيه نفسها بحثاً عن وجهة جديدة وان تجرد مرة اخرى ظروف وضع جديد . كان الصحفيون في السابق يولون اهتمامهم الرئيسي بالمسألتين المترابطتين دون انفصال ، اولاهما مسألة السنة الجوهرية الاولى للاسلام وثانيتهما مسألة التجديد . فكان عليهم بعد سنة ١٨٨٢ ان يزجوا بأنفسهم ضد السيطرة الاجنبية والاحتلال البريطاني لمصر .

وفي عام ١٨٨٩ اصدر صحفي مغمور جريدة جديدة باسم « المؤيد » ، فكُتب لها أن تصبح من اكثر الصحف تأثيراً في العصر . كان ذلك الرجل هو الشيخ علي يوسف . وهو من اصل مغمور ومتواضع ، ولا يملك شروى نقير ، ولا يتمتع بأي مكانة اجتماعية .

إن الفاقة التي ولد فيها قد طاردته في خلده لآخر حياته . وقد ابتغى ، سعياً للفرار منها ، ان ينشىء الصلات مع ذوي السلطان والنفوذ. وترددت سمعته بسبب زواجه الذي اصبح قضية شغلت الرأي العام سنة ١٩٠٤ . مع كل هذا فقد غدا الشيخ علي يوسف سياسياً مرموقاً ، وداعية محترماً ، وصحفياً ناجحاً ، ورجلاً ثرياً . لقد كان ذا عقل وقّاد ونظر سديد فوضعهما في خدمة قلمه بشكل فعّال .

ولد علي يوسف سنة ١٨٦٣ في قرية بلزفورة في صعيد مصر . وبعد تلقيه ما توفر فيها من تعليم محلي انتقل الى الازهر. ولسبب ما لم يكمل دراسته هناك . وما ان ترك الازهر حتى انصرف الى مهنة الصحافة ، اولاً كمحرر في [جريدة] « القاهرة الحرة » ، وبعدها في « مرآة الشرق » التي كان قد حررها حيناً من الزمن محمد عبده. وقبل اصداره « المؤيد » حرر مجلة ادبية تعرف « بالآداب »[١] .

بدأت«المؤيد»بالظهور في كانون الاول/ديسمبر١٨٨٩ ، بعد اشهر قلائل من صدور « المقطم » لصاحبيها يعقوب صروف وفارس نمر . كان تأثير ميول « المقطم » المسايرة للانكليز تأثيراً فورياً . فقد استفز ذلك الاوساط الوطنية وحفزها على التفكير بنشر جريدة تنطق بآرائها وتعكس معارضتها للاحتلال . فاتصلت تلك الاوساط برئيس الوزراء المصري رياض باشا ، تبتغي معاضدته للمشروع . فباركه رياض وقدم مساعدته ، اذ كان قد اختلف مع اللورد كرومر ، القنصل العام البريطاني والمهيمن على السياسة المصرية . وكان اختيار علي يوسف محرراً للجريدة مفاجئاً الى حد ما ، ولا يستبعد أنه كان متعمداً لاتاحة المجال لاصحاب المشروع لتسيير المطبوع كما يريدون لحد معين . كان علي يوسف مغمور الذكر في الاوساط السياسية ، لكنه عوّض كل التعويض عما يعوزه من التجربة السياسية بما لديه من خبرة صحفية متينة . إن طاقته على العمل الشاق ، وطموحه الذي لا يفتر في النجاح قد جعلاه من ابرز الصحفيين السياسيين .

ولا ريب ان « المؤيد » في مراحلها الاولى قد وضعت نفسها في خدمة الكتاب الوطنيين . إن مقالات من حملة الاقلام البارزين كمحمد عبده ، الذي نُشر جوابه الى هانوتو Hanotaux(*) في الجريدة نفسها[٢] ، وكأمين فكري ومصطفى لطفي المنفلوطي وابراهيم اللقاني والاخوين سعد زغلول واحمد فتحي زغلول ، قد اعطت الجريدة مقاماً سامياً وصيتاً كبيراً .ولم ينظر عدد من المراقبين الى علي يوسف الا باعتباره مجرد اسم لا يقدم ولا

(١) فيليب دي طرازي [فيكونت]، تاريخ الصحافة العربية ، ٤ج في ٢ (بيروت : المطبعة الادبية ، ١٩١٣ - ١٩٣٣) ، ج٣ ، ص ٣٤ - ٤٠ ، واحمد بهاء الدين ، ايام لها تاريخ (القاهرة : مؤسسة اخبار اليوم ، ١٩٥٤) ، ج١ ، ص ٤٧ - ٦١ .

(٢) المؤيد ، ٢٥ / ٧ / ١٩٠٠ .

يؤخر في الجريدة . ووصفته التقارير القنصلية البريطانية بأنه « « ستار للذين يمسكون فعلاً بالخيوط »[٣] . على ان [هذا] المحرر سرعان ما أثر بالجمهور بأسلوب كتابته الشخصي ، فضاهت « المؤيد » ، بعد بداية مهزوزة وغير واثقة ، منافساتها من الصحف وذلك في حقل الانجاز التقني لكي تصبح اولى الصحف الاسلامية المحلية التي يقرأها الناس من القاهرة الى اسطنبول ومن بغداد الى عدن . لقد استخدم علي يوسف ببراعة قلماً من اقدر الاقلام . وقال ألفريد هارتمان عن اسلوبه بحق انه يمتلك « كل الخصائص المميزة للمدرسة القديمة ، ومع ذلك (عالج) بمهارة كبيرة قضايا العصر الحديثة للغاية محافظاً على النقاء اللغوي »[٤] .

وضع علي يوسف مواهبه وبصورة ممتازة في خدمة مؤيديه الاقوياء وفي الدفاع عن مصر والاسلام . كان هؤلاء في البداية هم رياض باشا وجماعة محمد عبده الاصلاحية . وبعد تولي عباس حلمي الثاني الحكم سنة ١٨٩٢ وجد محرر « المؤيد » في الخديوي الشاب ، الجديد ، معاضداً متحمساً . واستخدم عباس ، الذي استهجن الهيمنة التي يمارسها اللورد كرومر على الشؤون المصرية ، استخدم الجريدة للتنفيس عن عدائه ضد التحكم البريطاني . ولم يكن هناك شيء يسر شيخاً محافظاً وتقليدي النظرة اكثر من شنه حملة تفنيد مسمومة ضد كرومر اللهم الا تأييد حاكم يعتبره علي يوسف هو حاكم مصر الشرعي . وبتردي العلاقة بين عباس وكرومر مدى السنين تقرّب الخديوي من علي يوسف الى حد اصبحت معه « المؤيد » عملياً لسان حاله الرسمي . وادّى التنافر بين مصطفى كامل ، الزعيم الوطني الشاب الذي كان قد تتلمذ صحفياً في جريدة « المؤيد » ، وبين الخديوي بعد سنة ١٩٠٤ ، الى تعزيز الصداقة بين علي يوسف وعباس .

وكان التحالف بين القصر و« المؤيد » نافعاً للطرفين . فالصحفي المعدم ، الذليل ، من صعيد مصر حصل لنفسه على منافع مادية كبيرة ، كما حصل لجريدته على الحماية . وأضفت عليه علاقة عمله الوثيقة مع الخديوي شأناً بارزاً وثراء ومكانة اجتماعية . وأفادته كذلك احسن الفائدة كصحفي ، وخاصة في فترة كان البلاط فيها مركزاً للمكائد الوطنية . وصحب علي يوسف الخديوي في عدد من زياراته السنوية للباب العالي حيث انعم عليه السلطان عبد الحميد بأوسمة تقديراً لخدماته للاسلام ودفاعه عن الامبراطورية . ومع مرور السنين اضحى محرر « المؤيد » صديقاً لعباس ، وموضع سره ومستشاره في جميع الامور المهمة تقريباً .

(٣) Great Britain, Foreign Office, «Cromer to Salisbury, no. 83, Secret, Cairo, 17 June 1896,» (F.O. 78/ 4762).

(٤) Alfred Hartmann, *The Arabic Press of Egypt* (London: 1899), p.12.

وقام علي يوسف من جانبه بخدمة الخديوي باخلاص وعلى احسن ما يستطيع . وكان على استعداد ، في عصر يتطلب فيه الادباء ودور النشر حماية الرعاة الاقوياء من اجل البقاء ، ان يصبح هو الاداة بيد المحسنين اليه ، إنما فقط بالقدر الذي لا تتصادم فيه مصالح الطرفين . وهكذا فحين كانت المجموعات السياسية التي تصدر الجرائد الوطنية الرئيسية تتحول سنة ١٩٠٧ الى احزاب سياسية كان من الطبيعي جداً ان تصبح مجموعة « المؤيد » تنظيماً سياسياً . لقد بدأت [هذه] العملية مجموعة جريدة « الجريدة » حين تحولت الى حزب « الامة » ، طليعة الحركة الوفدية ، وهو حزب دعا الى تأسيس دولة قومية مصرية ونادى بتطور مصر التدريجي الى كيان يحكم نفسه ذاتياً بالتعاون مع بريطانيا . وتحولت مجموعة مصطفى كامل وجريدته « اللواء » الى الحزب الوطني . وسعى هذا الحزب الى الاستقلال التام والى اعلان دستور يقيد سلطات الخديوي . وشكل علي يوسف حزب الاصلاح الدستوري ، وغرضه المعلن هو تأييد السلطة الخديوية ضمن الحدود المبينة في الفرمانات الممنوحة لمصر من السلطان العثماني .

وعلى ما كان عليه علي يوسف من قرب وإخلاص للخديوي فإنه لم يكن يخلو كلياً من الاستقلال والاستقامة الشخصية . لقد حافظ على علاقات ودية ووثيقة ايضاً مع جماعات دينية وشبه سياسية اخرى . وكانت تلك الجماعات معارضة من وجوه عديدة لنزعات الخديوي الاستبدادية . وغالباً ما تشاور علي يوسف مع محمد عبده ومريديه ، والـذين يتمتعون باستحسان الانكليز لحملتهم لاصلاح المؤسسات الدينية ، وذلك رغم المعارضة التي لا هوادة فيها لعباس . ولم يشترك محرر « المؤيد » في جهود عباس لازاحة محمد عبده من مركزه الكبير النفوذ كمُفتٍ للديار المصرية ، بل على العكس حاول ان يتوسط بين المفتي والخديوي ، مخففاً من غلواء الطرفين ، وعاملاً في بعض الاحيان كوسيط سياسي لهما معاً . فضلاً عن ذلك كان علي يوسف بالدرجة نفسها من الاهتمام التي كان عليها محمد عبده بشأن القضايا الراهنة الملتهبة ، كالتهديد الموجه للعالم الاسلامي ، وتجديد الاسلام [وشؤون] الجماعة وقضية الاصلاح .

كان مجال العمل الرئيسي « للمؤيد » هو السياسة الراديكالية . ولما اصبحت الصحافة الوسيلة الشرعية الوحيدة التي يتمكن بواسطتها الزعماء الوطنيون من نشر آرائهم والدعوة لافكارهم، وجدت المعارضة المصرية للاحتلال البريطاني متنفساً رئيسياً للتعبير في مقالات الجرائد وافتتاحياتها العنيفة . ولم يكن علي يوسف في هذا المضمار مفكراً مبدعاً ، فقد سار في التيار الرئيسي لعصرنة الاسلام لمحمد عبده. ولم يترك اثره الخاص الا باعتباره صحفياً وداعية سياسياً . كان علي يوسف بالدرجة الاولى رجل صحافة ، وممّون انباء وافكار سياسية في عصر كان للجرائد فيه تأثير كبير في صب قالب التطلع السياسي لقرائها .

وعلى مر السنين تحجم عود روح القدح لدى علي يوسف بعض الشيء ، إنما ليس فيما يتعلق بالاسلام .

كان علي يوسف ، وهو الصادق، يعرف احسن من أغلب منافسيه كيف يناشد عقول ابناء جلدته . إنه وهو العميق الجذور في الثقافة الازهرية يتكلم باقتدار كبير عن جميع الامور المتعلقة بالاسلام . ومع انه لم يؤمن بايجاد دولة اسلامية واحدة فقد قدّر اهمية التضامن الاسلامي . كان لا بد له ، ومن وجوه عديدة ، من أن يتجه وجهة السنة الاولى في السياسة ، مؤمناً وبعاطفة عارمة بفوائد الاحتفاظ بتقاليد الحكومة الاسلامية . كان في الكثير من مقالاته الافتتاحية ثمة احساس عميق غاضب وساخط ضد اي انتقاد للاسلام والمسلمين . وقد جمع مع قدرته الانشائية في التحرير تمكناً محنكاً ، واحياناً بلا تحرّج كبير ، في كسب مركز رئيسي في العالم الاسلامي لجريدته ، مناشداً ذوي الرأي المحافظ السلفي . كان هذا هو الذي حدا برشيد رضا ان يصف « المؤيد » بأنها « نقطة تجمع الافكار الاسلامية وصدى شعور المسلمين »(٥) . وليس هذا بمستغرب لأن علي يوسف اقتفى اثر الوجهات الفكرية التي طورتها « العروة الوثقى » وهي المجلة الفصلية التي نشرها في باريس ، جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في سنة ١٨٨٤ .

تبنى علي يوسف سياسة « العروة الوثقى » في تصوره للقضية المصرية . لقد اصرّ على ان السيادة على مصر حكر مقصور على الدولة العثمانية ، وان المركز الدولي لقنال السويس يمنع بريطانيا من السيطرة على مصر دون الشركاء الآخرين . كذلك اتبع النمط المعتاد في استغلال صراع القوى العالمية لفائدة بلد صغير لاحول له ولا طول . وغالباً ما جرى الاستشهاد بمعارضة فرنسا وروسيا القيصرية لموازنة النفوذ البريطاني . وحاول في جريدته إثارة مشاعر المسلمين في الهند خاصة ، لاحراج بريطانيا والسخرية من حكمها باعتباره ضد الاسلام ، والحصول على مساعدة الدول الاوروبية المنافسة في هذا المجهود . بيد ان علي يوسف ، بعد توقيع حلف الوفاق بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، بدا وكأنه توصل الى نتيجة مفادها ان تركيا العثمانية هي بدرجة من الضعف بحيث لا تستطيع التدخل لصالح مصر ، وان سياسة التراضي تجاه الاحتلال البريطاني ستكون اكثر نفعاً . وجاء وصول السير إلدون غورست Sir Eldon Gorst كقنصل عام جديد ، بعد استقالة اللورد كرومر سنة ١٩٠٧ ، بمثابة تحول في سياسة بريطانيا نحو مصر بعد الاستهجان الـذي سببته حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ . لم يكن غـورست بصرامة كرومر وغطرسته ، ولا بد من ان استحسان علي يوسف كان وازعه الرغبة بأن يرى سلطات الخديوي قد اعيدت اليه واعلي شأنها .

(٥) المنار ، السنة ١ (١٨٩٨) ، ص ٩٥٠ .

ذلك انه ما دام الصراع من اجل السلطة في مصر هو بين الخديوي والقنصل العام البريطاني فقد كان واضحاً كل الوضوح الى جانب من سيقف علي يوسف وجريدته . كان اللورد كرومر يعتبر غاصباً للسلطة السياسية ، فكان من المناسب جداً لجريدة مصر الاسلامية الرئيسية ان تدعو في حملتها لتحديد سلطة كرومر ، فضلاً عن سلطة المستشارين البريطانيين الذين زرعهم في كل دائرة حكومية . ان أي تقليص لسلطة الموظفين البريطانيين في الادارة المصرية كان ينظر اليه كمكسب وطني .

على ان التأييد غير المشروط الذي يقدمه علي يوسف للخديوي جعل من مطالبته بادخال الحكومة التمثيلية امراً متعارضاً نوعاً ما . انتخب علي يوسف سنة ١٩٠٢ عضواً عن دائرة قاهرية في الجمعية العمومية ، وهي مؤسسة شبه برلمانية ذات مهام استشارية محضة . وقد اتاح مقعده في الجمعية منبراً اضافياً لعلي يوسف ليواصل حملته من اجل الاصلاحات في الادارة المصرية . وقد قدم سنة ١٩٠٤ اول الاقتراحات من نوعها للجمعية . داعياً لتأسيس مجلس تمثيلي كامل ليكون الهيئة التشريعية الوطنية في مصر محل المجالس القائمة المؤلفة من المجلس التشريعي والجمعية العمومية . وقد اعلن بأن تلك المجالس غير وافية ، ودعا الى اصلاح قانون الانتخاب وتوسيع الحقوق الانتخابية .ويبدو ان علي يوسف،بعد ان فشل في اقناع الحكومات المتعاقبة بالحاجة الى مقاومة الضغط البريطاني ، وبعد ان فشل في الحصول على مزيد من السلطات للخديوي عباس ، قرر ان يناشد الشعب المصري متجاوزاً حكومته ومتحدياً سيطرة كرومر على الشؤون المصرية .

وظل الاصلاح موضوعاً متواصلاً في مقالات علي يوسف، كما اتخذه اساساً لحزبه السياسي . كانت اعمدة الرأي في صفحات « المؤيد » مفتوحة لزعماء الحركة الاصلاحية . فكان محمد عبده ورشيد رضا من المساهمين فيها بين حين وحين . ونشر فيها قاسم امين بالتسلسل مقالاته عن تحرير المرأة ، كما فعل عبد الرحمن الكواكبي اذ نشر فيها « طبائع الاستبداد » ؛ وكان من المشاركين الدائمين محمد كرد علي الداعية السوري، وجميل صدقي الزهاوي الشاعر والكاتب العراقي . وقد أثنت الجريدة في السنة الاولى من صدورها على وزارة رياض باشا لما قدمته من اصلاحات مختلفة . ويشمل هذا الغاء السخرة (العونة) الكريهة جداً ، وإعادة تنظيم انظمة الري ، وتخفيض الضرائب ، فضلاً عن اصلاح التعليم ، وبخاصة ادخال اللغة العربية كأداة للتدريس في المدارس . إن مسألة اللغة واهميتها للمثقف المصري صارت هاجس محرر « المؤيد » .

ومنذ البداية عكس علي يوسف رأي زعماء الحركة الاصلاحية باصراره على ان التعليم هو جوهر التجديد الاسلامي . فشن حملة قوية من اجل رفع المستوى في جميع قطاعات المعاهد التعليمية ، سواء منها المدارس الدينية او العامة او الخصوصية . وايّد في

جريدته المشاريع المختلفة لاصلاح الازهر والمدارس الدينية الادنى منه ، والمحاكم الشرعية والاوقاف . وجرى تشجيع المصريين على نبذ اعتمادهم على السلطات البريطانية في تعليمهم، وبوسع علي يوسف ادعاء بعض الفضل لفتح الكثير من المدارس من قبل مواطنين افراد ، وهي مدارس اسست كنتيجة مباشرة لدعوته . وحين انهمكت الصحافة المصرية في الحملة الخاصة بانشاء جامعة مصرية لعبت « المؤيد » دوراً رئيسياً في النقاش العام حول الموضوع . وقد تفجّر [نقاش] المشروع بمقال كتبه احمد حامد عواد سنة ١٩٠٥ فكان بداية الحملة التي توّجت بافتتاح الجامعة سنة ١٩٠٨[٦] .

كان أروع انجازات علي يوسف إبّان عضويته في الجمعية العمومية هو اقناعه لسعد زغلول ، حين كان وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٧ ، بجعل اللغة العربية اداة للتدريس في المدارس الابتدائية . كان زغلول متردداً نوعاً ما لقبول الاقتراح على اساس ندرة المدرسين الاكفاء « لتدريس العلوم بالعربية » . كذلك اشار الى الصعوبة التي سيواجهها التلاميذ في مراحل لاحقة من تعليمهم حينما تستخدم فيها اللغات الاجنبية . على ان مناشدة زغلول لاعضاء الجمعية بأن يستهدوا بهدي العقل لا العواطف لم تثمر شيئاً ، اذ قرروا قبول الاقتراح المقدم من محرر « المؤيد »[٧] .

ولم تكن اللغة العربية هي همّ علي يوسف الوحيد ، فالتعليم الديني كان في الدرجة نفسها من الاهمية . وقد اتضح ذلك على الاخص بعد اغتيال رئيس الوزراء القبطي بطرس غالي سنة ١٩١٠ في وقت اشتدت فيه الحماسة الدينية وتصاعد الشغب السياسي . لقد أحزنت الاقباط الحملة الصحفية ضدهم فعقدوا مؤتمراً سنة ١٩١١ قدم فيه عدد من المطاليب عن تسهيلات تعليمية من ضمنها التدريس الديني . وقد فنّد محرر « المؤيد » هذه المطاليب في خطابه امام المؤتمر المصري المعقود من الزعماء المسلمين ، فذكر الاقباط ان مصر هي بلاد اسلامية ولا يمكن أن يعد الاقباط الا اقلية تتمتع بالحماية[٨] .

إن الحياة المهنية لعلي يوسف كمحرر للمؤيد تقلبت بدرجة كبيرة بين الارتفاع السريع جداً في السلطة والشعبية ، وبين سوء السمعة لفضيحة كبيرة تتعلق بزواجه . وقد خرج من الاول بطلاً؛ اما الثاني ـ رغم انه برّأ نفسه ـ فقد خرج منه محطماً .

---

(٦) احمد شفيق ، مذكراتي في نصف قرن ، ٣ج (القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦) ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٧) النص الكامل لخطاب سعد زغلول ، في : المرفق ٥ ، Cmnd. 3451 / 1907 .

(٨) المؤيد ، ٢ / ٥ / ١٩١١. النص الكامل للخطاب ، في : عبد اللطيف حمزة ، ادب المقالة الصحفية في مصر ، ٨ج في ٦ (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٥٠ ـ ١٩٦٣) ، ج ٦ ، ص ١٩٦ ـ ٢٠٦ .

وحدث سنة ١٨٩٦ ان نشرت « المؤيد » ، خروجاً على الرقابة الرسمية المفروضة على اخبار حملة الكولونيل كتشنر ضد المهدي في السودان ، تقارير مفادها ان وباء الكوليرا قد انتشر بين القوات . كانت تلك الاخبار قد اعطيت الى الجريدة من موظف في دائرة البريد واحدثت ذعراً كبيراً . وعرفت القضية باسم حادثة التلغرافات . وحوكم الشيخ علي لانتهاكه اسرار الدولة الرسمية . ومع انه بريء من التهمة فإن القضية كان لها مغزاها لسببين رئيسيين : الاول هو الدفاع عن حرية الصحافة ، وبخاصة ضد حكومة يسيطر عليها موظفون بريطانيون . والثاني هو رفض علي يوسف الكشف عن مصدر معلوماته على اساس المبادىء الخلقية للمهنة . وقد يكون دفاع علي يوسف الاول من نوعه في الوطن العربي ، وصارشائعاً بعدئذٍ في عالم الصحافة .

اما قضية المحاكم الاخرى التي برز فيها الشيخ علي يوسف كل البروز فتخص زواجه من صفية السادات . واسرة السادات تعتبر من اقدم واجل البيوتات في مصر لانحدارها من سلالة الرسول (ص) وقد حركت القضية [مسألة] قواعد الاخلاق السائدة واستحوذت على اهتمام الجمهور فترة من الزمن . ويبدو ان الصحفي المغمور الذكر ، القادم من صعيد مصر ، كان بحلول ١٩٠٤ قد تمكّن من اكتساب ثروة ونفوذ وصيت عريض . فطمح ان يبلغ مكانة الاشراف ، لكنه لم يستطع تحقيق ذلك الا بالزواج . وكانت بنت السيد عبد الخالق السادات على استعداد للزواج من الشيخ . وكان الاب موافقاً على الخطوبة في البدء ، غير انه بدّل رأيه بشأن الزواج بعدئذٍ . ومع علم علي يوسف وصفية باعتراضاته فقد عقدا الزواج في غيابه . طلب السيد عبد الخالق من المحكمة الشرعية ابطال الزواج على اساسين هما بالاحرى غير منطقيين، اولهما ان علي يوسف قد خدع الفتاة ، والثاني والاكثر اهمية انه غير كفء لها لأنه (من العوام) .

لقد حكم على حرفة علي يوسف كصحفي بأنها « حرفة تجسس مشينة »[٩] . وكان هذا الوصف جائراً الى حد بعيد ، الا انه جرى اقتناص الفرصة للتعبير عن استياء اشراف مصر ، وهم على ما هم عليه من حساسية لأي نقد يوجه اليهم في الصحافة . فهم قد أخضعوا لفترة من الوقت الى موجة من الاهانة والمهاترة الشخصية من قبل بعض الصحفيين غير المتحرجين الذين ينشرون عدداً من صحف الفضائح المشينة . كان سوء التصرف والفساد والقذف والابتزاز من المظاهر الرئيسية لصحافة لا يمكن وصفها الا بأنها « صحافة الدرك الاسفل » . مع ذلك فلم يكن لا الشيخ علي يوسف ، ولا « المؤيد » طرفاً في ذلك .

(٩) المؤيد، ٣ ، ٤ / ١٠ / ١٩٠٤ .

وعلى كل حال قضت المحكمة إبطال الزواج لا على اساس الخداع لأن صفية كانت قد بلغت سن الرشد وتتمكن من أن تعقد زواجاً ، بل أبطلته بسبب عدم كفاءة علي يوسف [في القران] . لقد أثار القرار ثائرة العناصر المثقفة والغربية الهوى في المجتمع المصري ، والذين رأوا في القرار مظهراً لمفارقة تاريخية [لا تصلح للعصر الحديث] من المخلّفات التي لا تزال سائدة بين ظهرانيهم ، وهلّل للقرار المحافظون والجماعات الدينية الاتجاه الذين يتهيبون النفوذ الاجنبي ويسيئون الظن بالحداثة العصرية ، وأثار غضبهم إقدام الصحفي الجسور[١٠] . إن الضجة التي احدثها الزواج ، والوساطة التي قام بها عدد من اصدقاء الطرفين الاقوياء ومنهم الخديوي ، ادتا في النهاية الى المصالحة . فقد تزوج الشيخ علي وعروسه برضاء تام ، بل انه حين توفي السيد عبدالخالق سنة ١٩١٢ خلفه علي يوسف (وهو الآن يحمل لقب سيد) عميداً للاسرة ورئيساً للسجادة الوفائية ، وهو مقام صوفي شبيه بنقيب الاشراف . عندئذٍ فقط تخلى علي يوسف عن تحرير « المؤيد » .

لقد كسب علي يوسف ، خلال حياته المهنية الصحفية بأسرها ، عدداً من الاصدقاء من ذوي السلطة والنفوذ في مصر وتركيا معاً . كما أنه اكتسب عدداً من الاعداء لتأثير صحيفته وصداقته الوثيقة مع عباس . انه في فترات مختلفة من حياته قد ناصب العداء كل الجماعات الاجتماعية والسياسية تقريباً في مصر . وكان الاستثناء الوحيد هو سعد زغلول الذي ناصر جريدته وموّلها في المراحل الاولى . اما في علاقاته مع الجمهور المصري فقد اعتمد على قوة قلمه للتحكم بعواطف قرائه . وغالباً ما طرق الاسماع قوله ان بوسعه كسب المصريين الى جانبه بكتابة ثلاثة مقالات في جريدته[١١] .

ومع كل ما تمتع به الشيخ علي يوسف من مقدرة ومثابرة فإن تأثيره على الحياة العامة في مصر لم يكن سوى تأثير عابر . لقد عاش في عصر انتقالي في طور النشوء السياسي للبلاد ، والذي وصف وصفاً ملائماً بأنه « الطور الصحفي »[١٢] . اذ كانت الجرائد من كل لون سياسي تصدر داعية الجمهور المصري لقضاياها وكان العصر عصر بلبلة بقدر تعلق الامر بالافكار والتصورات الخاصة بالولاء السياسي . فقد جرى اولاً دعم حركة الوحدة الاسلامية ، ثم مفهوم الامة العثمانية ، واخيراً فكرة الجماعة العربية . اما تعلق المصريين ببلادهم المتمثل بشعار « مصر للمصريين » فقد عزز مجريات الامور التي كانت باعثاً للقومية

(١٠) لتفسير ممتع لهذه القضية ، انظر : بهاء الدين ، ايام لها تاريخ .

(١١) عبد العزيز البشري، المختار ، ٢ج (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٣٦) ، ص ٢١٠ - ٢١٢ .

(١٢) Charles C. Adams, *Islam and Modernism in Egypt: A Study of the Modern Reform Movement by Muhammad Abdo* (London: Oxford University Press, 1933), p. 220.

كايديولوجية جديدة وقوية . ولم يكن بوسع علي يوسف ان يترك تأثيراً دائماً على مجتمع سريع التغير .

كان علي يوسف من جوانب عديدة موهوباً ، شأنه في ذلك شأن محمد عبده ، لكنه مع ذلك لم يستطع بلوغ المركز نفسه او التمتع بالنفوذ نفسه[١٣] . كان يعوزه ما تمتع به محمد عبده من انضباط ذاتي وثبات والبراعة في التوصل الى تفاهم عن طريق التسوية او التسوية بحل وسط . وفي النهاية تجاوزه آخرون ممن ثبت ان آراءهم ودعواتهم اكثر ملاءمة لمصر وللمسلمين . ولقد تحققت بعض مطامح علي يوسف ،لكنهمات رجلاً خائباً . فالزواج الذي كافح من اجله لم يكن في النهاية ناجحاً . والثروة التي جمعها خلال ربع قرن من العمل الصحفي الناجح تبددت في مضاربات حمقاء .واعتزل علي يوسف الحياة العامة وهو في التاسعة والاربعين من العمر ، ابتغاء حياة الورع، ومات بعد عام واحد في تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٣ .

(١٣) Jamal Mohammad Ahmed, *The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism* (London; New York: Oxford University Press, 1960), p. 82.

الفصل الثالث

الشرق والغرب في كتاب «علم الدين» لعلي مبارك

وداد القاضي

لعله لا يوجد مختصّ في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر او في تاريخ الفكر الاحيائي العربي الحديث وهو لا يعرف علي (باشا) مبارك (١٨٢٣ ـ ١٨٩٣م / ١٢٣٩ - ١٣١١هـ) ، الوزير البارز الذي تقلّد وزارات المعارف والاوقاف والشؤون العسكرية ، خلال حكم الخديوي عباس الاول (١٨٤٤ ـ ١٨٥٤) ، والخديوي اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ، وباني القناطر الخيرية المعروفة على النيل ، ومؤسس المدارس العمومية العديدة في مصر ، فضلاً عن المكتبة الشهيرة المعروفة باسم الكتبخانة الخديوية والتي عرفت بعدئذٍ بدار الكتب المصرية[١] . وقلة من هؤلاء الباحثين ، إن وجدوا ، لا يعرفون الوجيز الجغرافي المهم المسمى « خطط مصر الجديدة » او « الخطط التوفيقية » لعلي مبارك . على ان عدداً منهم قد لا يكون مطلعاً على العمل المهم الآخر لمبارك ، ألا وهو « علم الدين »[٢] .

والأسباب مفهومة . فعنوان الكتاب غامض ولا يوحي بالجاذبية . والفقرات القليلة الاولى من مقدمته تشير الى انه عبارة عن حكاية لطيفة (ص ٧) ، ومع هذا فإن حجمه ١٥٠٠ صفحة تقريباً[٣] . والصفحات القلائل الاولى من النص وعظية للغاية ؛ وهي

(١) السيرة الاكثر شمولاً لحياة علي مبارك هي في المقدمة التي كتبها محمد عمارة للمؤلف : علي مبارك ، **الاعمال الكاملة لعلي مبارك** ، دراسة وتحقيق محمد عمارة (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩) ، ص ١٧ - ٣٠٠ ، اما قائمة المصادر لهذه السيرة ففي ص ٣٠١ ـ ٣٠٨ . انظر كذلك :
K. Vollers, «Ali Pasha Mubarak,» in: *Encyclopaedia of Islam*, new ed. (Leiden: Brill; London: Luzac, 1960), vol. 1, p. 396.

(٢) الجدير بالذكر ان مقال فولر المذكور لا يأتي مطلقاً على ذكر **علم الدين**، انظر ايضاً :
Ibrahim Abu-Lughod, *Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters*, Oriental studies series, 22 (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963), p. 72.

(٣) الطبعة المستخدمة في هذا البحث لكتاب علي مبارك : **علم الدين** هي الطبعة الاولى التي =

تصعّب الامر جداً على القارىء لكي يستوعب ما يريد ان يقوله المؤلف ـ ثم انها بالتأكيد تضع جلد الكاتب على المحك .

على الرغم من هذا سيكتشف القارىء الصبور خلال وقت قصير ان امامه عملاً قيماً ، وان الخوض في المشقة الناجمة عن قراءته لهو جهد جليل القيمة . وباختصار ،يحكي الكتاب ، باتباع الشكل القصصي بصورة أساسية ، حكاية مصري ازهري يدعى علم الدين . وعلم الدين هذا يلاقي في القاهرة انكليزياً يبحث عن مساعد له يعرف العربية معرفة كافية ليساعده في تحرير ونشر القاموس العربي الضخم **لسان العرب** . فيقرر علم الدين ان يعمل لحسابه . ويوافق على شرطه الخاص بالسفر معه الى وطنه متى قرر العودة اليه . وتستغرق هذه التقدمة من الحكاية ٨٠ صفحة تؤلف القسم الاول . اما القسم الثاني الذي يؤلف الـ ١٤٠٠ صفحة الباقية فمخصص لحكاية الرحلة التي يقوم بها علم الدين ، يصحبه ابنه الفتى برهان الدين ، الى اوروبا ، بالقطار اولاً من القاهرة الى الاسكندرية ، ثم بالباخرة من الاسكندرية الى مرسيليا ، ومنها الى باريس . وينتهي الكتاب والجماعة لا تزال في باريس ، وقد زاد عددها الى اربعة اشخاص بادخال بحار انكليزي على الباخرة واسمه جيمس او يعقوب . فالرحلة اذاً لا تبدو انها تبلغ وجهتها الاخيرة ، وهي وطن الرجل الانكليزي . ولكن ليس هناك ما يشير الى ان علي مبارك قد توقف [عن الكتابة] في منتصف كتابه بنية إكماله في مناسبة لاحقة(٤) .

فالقسم الاكبر من الكتاب ، إذاً ، مخصص لرحلة الى اوروبا ولاقامة في مدينتين هما مرسيليا وباريس ، وخاصة الثانية منهما . وهذا القسم كسابقه مقسم الى فصول ، سميت « مسامرات » وكل واحدة منها تحمل رقماً . وكل مسامرة تبحث في موضوع معين تدعو اليه المناسبة . فمثلاً المسامرة الاولى من الرحلة تبحث في موضوع البخار لأن الجماعة تأخذ القطار من القاهرة الى الاسكندرية . والمسامرة التالية تبحث في « الفنادق » (اللوكندات) لأن الجماعة قضت ليلة في فندق في الاسكندرية . والثالثة هي بشأن البريد لأن علم الدين قد أخبر بأنه يستطيع ارسال الخطابات بالبريد الى زوجته . والرابعة بشأن الملاحة ، لأن الرحلة ابتدأت بحراً . وفي مسامرة اخرى بعدئذٍ نجدها عن البراكين ، وقد دعا الى ذلك مشاهدة الجماعة لجبل إتنا Mount Etna ، الى آخر ما هنالك . إن عدداً من المسامرات هي نظرية في طابعها ، وتكون إما على شكل مطارحة بين اعضاء الجماعة وإما على شكل

= صدرت عن مطبعة جريدة المحروسة في الاسكندرية عام ١٨٨٢ في اربعة اجزاء . اما الطبعة الجديدة التي يعدها محمد عمارة فلا تزال غير كاملة .

(٤) المعروف ان علي مبارك سارع الى نشر كتابه علم الدين سنة ١٨٨٢ ، اي السنة التي تم فيها الاحتلال البريطاني لمصر ، بعد ان اهمله اكثر من عشرين سنة .

محاضرة من احدهم للآخرين . ثمة فصول عن الجغرافية والتاريخ وعلم طبقات الارض والتجارة والزراعة والاضاءة بالغاز والاسلام والعرب وتاريخ باريس والاحجار الكريمة واللؤلؤ وانهار العالم ومنتجات البحر ومختلف حيوانات وحشرات العالم ونباتاته والتبغ والقهوة والحشيش . . . الخ . وثمة مسامرات اخرى تبحث بتجارب معينة خاضتها الجماعة ، لاسيما إبّان الاقامة في اوروبا . وهذه التجارب في أغلب الاحيان زاهية بحيويتها ، وتعقبها بعض المحادثات التوسيعية حولها . وهكذا فإن لدينا فصولاً عن المقاهي ، والمسرح و**البالو** (الحفل الراقص) والغناء والبنوك والبورصة ومواضيع مشابهة .

ويكتشف القارىء دون عناء ان كتاب « علم الدين » هو كتاب يندرج بصورة جيدة في سلسلة الكتب التي تتناول موضوع « **اكتشاف** العرب لاوروبا » ـ وهي الكتب الرائجة تماماً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر(٥) . ويحاول كتاب « علم الدين» ، شأنه شأن تلك الكتب ، ان ينقل للقراء العرب الانجازات الاساسية لأوروبا الحديثة في العلوم والفنون ، وان ينبئهم ببعض جوانب تاريخ المعرفة في اوروبا ، وعن التاريخ السياسي لبعض اجزاء منها ، بخاصة فرنسا ، وان يعرفهم عن مجالات معينة من التقدم في اوروبا المعاصرة ولاسيما المجال الاقتصادي . ويحاول كذلك ان يلم القراء بالبنية الاجتماعية الاوروبية ـ على الاخص الفرنسية ـ بفعالياتها وعاداتها واعرافها وما أشبه .

لكن علي مبارك لم يكن يجري وراء « **موضة** » [**رائجة المحاكاة**] في التصنيف حين كتب كتابه « علم الدين » . صحيح ان كتابه ظهر مطبوعاً في فترة متأخرة كثيراً ، في ١٨٨٢ ، اي بعد ان كانت قد كتبت تآليف عديدة عن الموضوع ؛ لكن الكتابة الفعلية لمؤلفه لا بد من أنها جرت قبل ذلك التاريخ بأمد طويل ، [إنما] ليس بعد ١٨٥٨ بكثير(٦) . فبحلول ذلك التاريخ كانت قد ظهرت عن هذا الموضوع ثلاثة كتب : « تخليص الابريز الى تلخيص باريز » لرفاعة رافع الطهطاوي المنشور في القاهرة سنة ١٨٣٤ ، و« الساق على الساق فيما هو الفارياق » لاحمد فارس الشدياق المنشور في باريس سنة ١٨٥٥ ، و« النزهة الشهية في الرحلة السليمية» لسليم بسترس المنشور في بيروت سنة ١٨٥٦ (٧) . بيد ان علي مبارك لا يشير الا الى الكتاب الاول من هذه الكتب الثلاثة . وهذه الاشارة لا تضفي كثير فضلٍ على رفاعة . فالمرء يقرأ في « علم الدين » ان كتاب رفاعة « قد كال كثيراً من المديح على باريس واهليها ، وتوسع في وصف نسائها ورجالها ، لكنه ظل حائماً

(٥) Abu-Lughod, *Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters*, pp. 69-80.

(٦) مبارك ، **الاعمال الكاملة لعلي مبارك** ، ج١ ، ص ٨٤ ـ ٨٦ .

(٧) Abu-Lughod, *Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters*, p. 72.

ولا يذكر د. ابو لغد كتاب **علم الدين** بين كتب القرن التاسع عشر التي تدور حول « اعادة اكتشاف » العرب لاوروبا .

حول التخوم الخارجية للعاصمة الفرنسية دون ان يسبر غورها . . . ومؤلف الكتاب لم يدخل المدينة من ابوابها وبالتالي لم يكشف عن حقيقتها بالوصف الذي وصفه بها » (ص ١٣٣٤) . ويضيف مؤلف « علم الدين » أنه بالاضافة لذلك فقد انقضى حوالى ثلاثين سنة منذ ان وضع رفاعة كتابه ، وقد حدث في تلكم السنين تقدم عظيم في مختلف العلوم والفنون (ص ١٣٣٤) .
إن هذا التقويم لكتاب رفاعة يشير بصورة تكاد تكون مؤكدة ان علي مبارك لم يكن مطلعاً على الكتابين الآخرين عن اوروبا ، الا وهما كتابا الشدياق وبسترس ، وهذا الأمر من التقبل بمكان لأن الكتابين قد طبعا خارج مصر . لذا فإن علي مبارك لم يكن « مقتفياً » اثر شاكلة راسخة في التصنيف ، بل كان في ظنه « يعيد التعريف » بخط ناجع لاستقصاء الحقائق وبصورة قد تكون اكثر شمولية وبطريقة افضل على ما هو مأمول .

وبوسعنا ترك امر الشمولية جانباً في الوقت الحاضر ، ذلك ان اي كتاب جاد يبحث عن موضوع مطروق سلفاً على نحو غير وافٍ، قمين بأن يكون اكثر شمولية من سابقه، وكتاب « علم الدين » هو بالتأكيد اكثر شمولية من « تخليص » رفاعة . وتبقى مسألة « الطريقة الافضل » التي ألمح اليها علي مبارك . فما الذي عناه علي مبارك بتلك « الطريقة الافضل » ؟

واعتقادي الجازم هو ان علي مبارك قد رأى في كتاب رفاعة مجرد كتاب « إخباري » - وإخباري بصورة سطحية - فهو بهذه المثابة لم يحمل « رسالة » واضحة لجمهوره . وهكذا فالذي سيقوم به علي مبارك هو كتابة مؤلف مختلف بالكلية ، وهو إخباري بالتأكيد عن اوروبا ، لكنه كذلك يحمل رسالة محددة ، واضحة ، ومسؤولة .

واول تلميح عن هذه الرسالة يرد في « المقدمة » التي كتبها علي مبارك لكتابه . فهو يتكلم هناك ، بصورة غامضة نوعاً ما في البداية ، عن احتواء كتابه على اشياء نافعة مستمدة من المعارف الدينية والفنون العلمية ، وعن الانسان في مختلف مراحله ، ماضياً وحاضراً ، مع تأكيد خاص على المقارنة والتعارض ، بحيث سيكون القارىء مدركاً ، يقظاً ، ونقدياً ، مميزاً بين ذلك الامر النافع وبين غير النافع (ص ٨) . بيد أنه ، وعلى حين غرّة، ينتقل الى تحديد حاسم لمقصده : إنه اجراء مقارنة ، او بنص كلامه الحرفي « لتأتي المقارنة بين الاحوال المشرقية والاوروبية »(ص ٨) .

فما الذي تخبرنا به هذه التلميحات عن الرسالة التي أراد ان ينقلها علي مبارك بكتابه ، ذلك الكتاب الذي يذهب في تحسين الامر الى ابعد مما ذهب اليه كتاب رفاعة ؟ تخبرنا تلك التلميحات أساساً أن الشرق ، وليس الغرب وحده ، يؤلف جزءاً لا يتجزأ من اهتمام المؤلف . فإذا ما توسعنا في هذا التأويل بعض الشيء ، وتذكرنا تأكيد المؤلف على المقارنة من جهة ، وعلى كونه إنما يكتب كتابه لجمهور شرقي - وبالعربية - من جهة اخرى ،

فبوسعنا أن نستنتج بسهولة ان المؤلف كتب كتابه من اجل الشرق . ان علي مبارك لن يقوم فقط « بإخبار » الشرق عن منجزات الغرب ، كما فعل رفاعة ، بل سيقوم بوضع الشرق في موضع مباشر امام « مواجهة فعلية » مع الغرب ، بحيث يعرف الشرق ، إزاء الغرب ، موقعه الصحيح من الحضارة العالمية . هذه في حقيقة الامر هي الرسالة العامة الكامنة في كتاب « علم الدين » .

ولعل هذه الرسالة ، مع انها قيمة ، فإنها ليست فذة في سلسلة الكتب المدونة عن موضوع **اكتشاف** العرب لاوروبا ، وإن كانت بالتأكيد تقدم تحسيناً إيجابياً وواعياً على « رسالة » رفاعة في « تلخيصه » إن صح التعبير . بيد ان تحليل « علم الدين » بعناية ، ومقارنته بكل المؤلفات المكتوبة عن موضوع الاكتشاف العربي ،يكشفان مع هذا فذاذته التي لا تنكر . غير انه يجب على المرء ، لإظهار هذه الفذاذة ، أن يحاول ابتغاء الابعاد الاخرى لرسالة علي مبارك ، وهي الابعاد التي لم يفصح عنها في « مقدمته » لكنه ضمنها ضمناً في التفتح التدريجي لعمله . ويجدر بالمرء اولاً ، لكي يكتشف هذه الابعاد ، ان يلجأ الى **تفحّص الوسائل** الادبية المتبعة في « علم الدين » .

وأبرز الامور في هذا العمل هو شكله الادبي : حكاية تصورية ، خيالية ، كما ذكر آنفاً . فلماذا اختار المؤلف هذا الشكل؟ يقول علي مبارك ، وفي « مقدمته ايضاً » ، انه اختار هذا الشكل ليجعل كتابه نافعاً بطريقة مسلية ، ذلك « أني اجد النفوس توّاقة للحكايات والقصص والطرائف ، على خلاف الامر مع الفنون البحتة والعلوم البحتة . فالنفوس تصد عنها ، خاصة في الاوقات التي يكون المرء فيها مجهداً بكل انواع العمل ولا يكون ذهنه خالياً حتى يتوجه اليها » (ص ٧) . وهكذا رأى ان الشكل القصصي سيجعل الناس تنتفع من كتابه دون ان يضجروا منه (ص ٧) .

على ان هذا لا يمكن في رأيي ان يكون كل شيء . إنه يمثل فقط السبب الظاهري لاختيار علي مبارك الاسلوب القصصي التصوري، الخيالي . فالذي هدف اليه علي مبارك حقاً من استعمال هذا الاسلوب هو ان يكون حراً في التعبير عن افكاره الصارمة بشأن الشرق أساساً ، إنما كذلك بشأن الغرب ايضاً ، تلك الافكار التي لا بد من أنه قد كونها حينما كان يدرس في فرنسا (١٨٤٤-١٨٥٠) مختلف العلوم والفنون المتعلقة بحقل الهندسة المدنية **والتكتيك العسكري**[٨] . ذلك ان علي مبارك لم يرد ان يكون « إخبارياً » بالاحرى « تعليمياً » ، و«الاوصاف » لا تفي بذلك ؛ وما هو لزومي انما هو « الاحكام » ؛ والاحكام

(٨) لعرض شامل لاقامة علي مبارك في باريس ، انظر : مبارك ، **الاعمال الكاملة لعلي مبارك** ، ص ٣٤-٤٠ .

يمكن ان تؤذي وتؤلم حين يقصد منها ان تكون صريحة نقدياً . فلما قصد علي مبارك ان يكون صريحاً بصورة نقدية وغير راغب بإيذاء جمهوره الا بأقل قدر ممكن فقد اختار الشكل القصصي الخيالي ليتيح لنفسه اقصى قدر من الحرية في التعبير عن الافكار النقدية واصدار الاحكام الصارمة .

وبوسع المرء ، وهو يتذكر هذه النقاط في ذهنه ، ان يباشر بفحص مجالات الحرية المتاحة لعلي مبارك باختياره الخاص للشكل التصوري ، الخيالي في كتابه « علم الدين » .

واول تلك المجالات واظهرها هي حرية اختيار الشخصيات ، سواء من الشرق او من الغرب .

فلنلق نظرة على تلكم الشخصيات .

في « علم الدين » شخصيتان رئيسيتان من الشرق وهما علم الدين بطل الحكاية ، وابنه برهان الدين . ويمكن إضافة شخصية اخرى ثانوية لكنها مهمة نوعاً ما ، الى الشخصيتين المذكورتين، وهي تقية زوجة علم الدين . صحيح ان للثلاثة اسماء علم [لائقة بالمقام]، لكنها تحمل ، بصورة او باخرى ، « تديناً ورعاً » . من جهة اخرى ثمة شخصيات عديدة من الغرب ، إثنتان منها رئيسيتان والاخرى غير رئيسية . بيد أنه ما من احدٍ منها يعرّف باسم علم باستثناء جيمس (يعقوب) الشخصية الرئيسية الثانية . فبطل الجانب الغربي ، إن صح التعبير ، يشار اليه بمحض عبارة « رجل انكليزي » (ص ٧ و٧٠) او « سائح انكليزي » (ص ٦٩) او مجرد كلمة « الانكليزي » كما في القسم الاعظم من الكتاب .

فما الذي يريد ان يقوله علي مبارك بهذا التعريف الابتدائي للشخصيات ؟ إنه يريد أن يقول انه سوف لا يتكلم عن شرقيّ معين في الغرب (نفسه مثلاً) ، ولا عن غربيّ معين في الشرق . إنه يريد أن يتكلم في كل كتاب علم الدين عن الشرق والغرب وهما ممثلان بشخصيات تصورية ، خيالية ، وهذا ما يوفره الاسلوب القصصي احسن توفير . شيء واحد واضح للعيان من النظرة الاولى : الشرق ذو تديّن ورع متغلغل في نخاع عظامه ، في هويته ذاتها . إن الامر كما لو ان كل رجال الشرق هم [أمثال] علم الدين وبرهان الدين ، وكل نسائه هنّ [امثال] تقية .

وتتخذ هذه النقطة ابعاداً اوضح ما ان تتطور الشخصيات وتتحدد سماتها المختلفة . فوالد علم الدين هو فقيه القرية الذي يؤم اهاليها في الصلاة ويعلم ابناءهم القرآن (ص ٩) . وعلم الدين نفسه درس مع والده في القرية وأثبت منذ طفولته ذكاء ونباهة واهتماماً بالتعلم(ص ٩) . ولهذا السبب ارسله والده الى الازهر في القاهرة لإتمام دراساته (ص ١٠).

وبعد ان قضى هناك بضع سنوات صار على درجة كبيرة من العلم بمعارف اللغة العربية والنحو **والصرف** والبلاغة والشريعة الاسلامية في اصولها وفروعها وتفسير القرآن والحديث (ص ٢٤) . ولذا فهو لا يعرف اياً من العلوم غير العلوم الاسلامية التقليدية ، ولا يعرف ايّ لغة غير العربية . من جهة اخرى فإن الانكليزي مطلع احسن إطلاع على حضارته الثقافية . إنه على درجة كبيرة من العلم بالبخار (القطارات) والبريد والملاحة والبراكين والبصريات والجغرافية والتاريخ والبورصة والبنوك والزراعة والتجارة والمعارف المشابهة . على انه ـ وهذا هو الأمر الاهم ـ مستشرق شهير . إنه يعشق اللغة العربية ومطلع احسن اطلاع عليها الى درجة يصبو معها الى تحرير ونشر القاموس العربي الضخم **لسان العرب** (ص ٧٠) ، كما ذكر آنفاً . لقد تعلم العربية لا في بلاده فحسب بل بقيامه بأسفار كثيرة في الشرق . إنه كان قد أقام في مراكش لمدة اربع سنين ، وامضى بعض الوقت في مصر ، وهو الآن يقضي دوماً فصل الشتاء في القاهرة والاسكندرية ، في حين يقضي كل صيف في بلاده ، انكلترا (ص ٨٥) . من جهة ثانية يكاد علم الدين لا يعرف عن العالم شيئاً ـ باستثناء قريته ـ فيما يتجاوز منطقة الازهر التي عاش فيها وعمل ، وحده اولاً ، ثم مع شقيقاته الثلاث بعد وفاة ابويه ، ثم مع زوجته حين تزوج (ص ٢٥ ـ ٣٠) . كذلك ففي حين ان الانكليزي هو رجل ثري ذو رأسمال ، وينوي الربح من مشروعه الخاص بنشر لسان العرب ، فإن علم الدين فقير جداً . إنه يعيش على جراية الازهر . وحينما أتت شقيقاته ليسكنّ معه اضطر ان يستعطي سلطات الازهر لمنحه جرايتين بدلاً من جراية واحدة (ص ٢٧) . ولكن حتى هذا لم يسعف مشكلته . لذا اضطر للعمل في ليالي الاحتفالات المقامة بمناسبة ختم القرآن ، والى طلب الصدقات من الاغنياء (ص ٢٧ و٢٨) . وما أن رزق بأربعة ابناء حتى بلغ فقره درجة الاختناق وكاد معه ان تتزعزع ايمانه بالله ، فأخذ يحاول وزوجته التفكير عن طرق ووسائل يتغلب بها على فاقته (ص ٣٢ ـ ٣٩) .

وهكذا فإن المرء يواجه فوراً ، بخصوص المجموعة الاولى من الشخصيات الرئيسية للشرق والغرب ، عدم توازن واضح . عدم التوازن هذا يظهر في المجموعة الثانية من الشخصيات الرئيسية التي تمثل الشرق والغرب في الكتاب : برهان الدين وجيمس . يصوَّر برهان الدين أساساً على انه فتى (ربما في الثانية عشرة من عمره تقريباً) . وهو نسخة اخرى من ابيه علم الدين في الطبع لكنه ادنى منه كثيراً في المعرفة والخبرة . من جهة اخرى فإن جيمس رجل مجرّب خبر الدنيا . لقد أكمل دراسته وعمل في احدى الدكاكين ، ثم ركب البحر املاً في الربح ، فخسر تجارته بتحطم سفينته ، ووقع في الاسر في افريقيا ولم يطلق سراحه الا بعد سنين عديدة ، فعمل بحاراً ، وألقى مراسيه في بلاد عربية حيث تعلم اللغة العربية ، واخيراً عاد الى وطنه في اوروبا لتدبير شؤون عائلته . وهناك التأم شمل

الأسرة اذ وجد شقيقته ، وهي قريبته الوحيدة ، على قيد الحياة . على ان الامور ساءت بالنسبة للاخت ، فقد انسحبت من الحياة ودخلت ديراً ، وانتحرت بعد حين . ومر جيمس بأزمة نفسية (ص ٣٠٤ ، ٣٥٣ وما بعدها ، ٧٨٥ وما بعدها ، ٨٥٣ وما بعدها ، ١٢٤ وما بعدها) . ولم يتقابل برهان الدين ووالده والانكليزي الا بعد ان ابلّ منها . لذا فإنه يلاقي برهان الدين بعد ان تعلم الكثير عن البلدان والبحار والشعوب والنباتات والحيوانات والحشرات وجميع العلوم المتعلقة بها ، وبرهان الدين لا يعرف عن هذه العلوم او الظواهر شيئاً. إننا نواجه تارة اخرى صورة غير متوازنة . وإن طرح موضوع علي مبارك الجاد الاول ليكمن في هذه الصورة بالذات : إن الغرب متفوق بدرجات بعيدة على الشرق ، وإن الشرق متخلف بدرجات بعيدة عن الغرب .

إن هذا ليصدم المرء حقاً . لكن الشرق يحتاج الصدمة ، فيما يرى علي مبارك، بل إنه في كتابه سيوسع هذه الصدمة الى حد تقديم صورة ذاتية عن الشرق تكاد تكون مهينة [في انحطاطها] . وهنا يستخدم علي مبارك اساليبه الادبية كل الاستخدام ، فيجعل مواقف ابطاله الشرقيين كاشفة عن حس بالانحطاط . وهكذا فإن كلاًّ من علم الدين وبرهان الدين يصغي بإمعان تام حينما يوضح لهما الانكليزي او جيمس ، وبمطارحات طويلة جداً في العادة، العلوم والفنون المختلفة التي طورها الغرب . اما هما شخصياً فليس لديهما شيء يضيفانه الى ما يسمعان ؛ ولا يذكر علم الدين الا من حين لحين ملاحظة هامشية هنا وهناك . إن بوسعه أن يحاضر عن الدين والاسلام والشريعة وحرب البسوس في عصور ما قبل الاسلام ، وعن معلقة امرىء القيس ، والكلمات العربية المختلفة لاسماء الرياح وما أشبه من المواضيع (الصفحات التالية وما بعدها ١٣٢ ، ١٦٧ ، ٢٦٦ ، ٥٥٣ ، ٧٠٥ ، ٨٠٤ ، ١٠٩٣ ، ١١٥٣ ، ١٢٦) ، اما فيما عدا ذلك فيكاد يكون عاجزاً . اما برهان الدين فهو اكثر عجزاً منه . ولا يبالي علي مبارك في ان يضع على لسان برهان الدين سؤالاً مثل : « ما هو علم طبقات الارض؟ » (ص ١٠٥٧) . ولا يبالي ان يجعل علم الدين نفسه يسأل الانكليزي ما المقصود بكلمات مثل « غرام » و« كيلوغرام » و« سنتيمتر » ، ذلك انها كلمات « اجنبية » غير عربية (ص ٩٥) . وفي هذا من الصدمة ما فيه . على ان الذي يصدم بدرجة اكبر هو الموقف من الجهل الذي يضعه علي مبارك على لسان ابطاله الشرقيين بشأن امور تتعلق بالشرق - بل بمصر - ولا تتعلق بالغرب . ويفضح علي مبارك بشكل صارخ امر برهان الدين بجعله جاهلاً تمام الجهل حقيقة ان الفرنسيين كانوا مؤخراً في مصر (ص ١٠٨٥) . ويضع برهان الدين المسكين نفسه في وضع حرج جداً حينما يقدَّم بصفته مصرياً في دعوة اجتماعية بباريس ، فتوجه اليه بهذه الصفة اسئلة عن مصر لا يستطيع الاجابة عنها لسبب بسيط هو حاجته الى المعلومات . لذا فإنه يحمر

خجلاً ويتلعثم ويتأتىء . ويستمر علي مبارك في توجيه الصدمة بأن يجعل انقاذ برهان الدين على يد شخص فرنسي صادف وجوده في ذلك اللقاء الاجتماعي وهو يعرف بالتأكيد الكثير عن مصر (ص ٦٥٣ وما بعدها) . وعلم الدين يجب ان يكون في حال افضل من ناحية اطلاعه . لكن علي مبارك لا يسمح لهذا الشيء ان يحصل على نطاق واسع . فعند بحث مسألة الاهرام نجده سيىء الاطلاع ، يعرف فقط ما تقوله التقاليد الاسلامية عنها (ص ٩١٨ وما بعدها) . انه مصري ، لكنه ليس لديه مطلقاً بيانات احصائية عن زراعة مصر وسكانها (ص ٩٨٨ - ١٠٠٧) . إنه لم ير في حياته قط فندقاً في مصر (ص١٨٥) . ومع ان الخدمة البريدية في مصر بدرجة حسنة من الكفاءة فإنه لا يعرف سوى الطريقة البدائية جداً والشاقة لتسليم الخطابات باليد (ص ٢١٩) . والقطار « مؤسسة » راسخة في مصر ، في القاهرة ذاتها ، لكنه لم يركب قطاراً قط ولا يكاد يعرف عنه اي شيء ، تماماً كالمصريين عامة كما يقول (ص ٨٨ و١١٥ - ١١٦) . وهو يعتذر للانكليزي قائلاً : « التخصص » ، ويعني التخصص بالعلوم الدينية في الازهر ، قد حال بينه وبين الاحاطة بأي شيء آخر خارج ذلك النطاق (ص ٩٠) .

لكن علي مبارك لا يقف في توجيه صدمته عند هذا الحد . إنه يختلق عمداً شخصيات ثانوية خاصة جداً يقابلها علم الدين وبرهان الدين في باريس . اثنتان منهما يهمنا امرهما هنا ، إثنان من المستشرقين دونما اسماء ، واحدهما هو رئيس الجمعية المشرقية . وكلاهما مطلع شأنهما في ذلك شأن الانكليزي ، بل ربما افضل منه ، ضليع بالعلوم العربية والاسلامية . إنهما حسنا الاطلاع جداً على الموضوع - هكذا يريد علي مبارك تصويرهما - بحيث ان علم الدين في اكثر من مناسبة عبّر عن اعجابه بعلمهما (ص ٩١٣ و ٩٧٠ و ١٠٧٩) . بل انه كان يأمل في ان يتعلم من احدهما عن مجال تخصصه بالذات - الدراسات العربية والاسلامية (ص ٩١٣ - ٩١٤) .

ويريد علي مبارك ان يقول ان الشرق لا يعرف الا القليل عن نفسه ولا يعرف شيئاً خارج نفسه ؛ اما الغرب فيعرف كل شيء عن نفسه كما يعرف الكثير عن الشرق . والأسوأ ان الشرق لا يعي وضعه الدولي ، في حين ان الغرب يعي تفوقه ودونية الشرق .

أفليس هناك ثمة علاج اذاً للحالة في الشرق؟ يوحي علي مبارك بوجود ذلك العلاج فعلاً ، ذلك انه يحب الشرق ولا يضمر بالتأكيد نيات « تخريبية » بشأنه . بل ان بناء علم الدين نفسه كشخصية ، وبرهان الدين ايضاً ، هو بالضبط القصة الرمزية للكيفية التي يمكن بموجبها للشرق ان يتخلص من حالته الدونية .

والخطوة الاولى نحو هذا التخلص هي ادراك الشرق بأنه أسير « تقليد ديني » - لا [اسير] دين - وهو **تقليد جامد** ومغلق وعقيم بصورة كلية ، ولذا لا يستطيع ان يكون اداة للتقدم على الاطلاق (ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، ٣٠٧) . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، **تقليد** أغرق الشرق في بحور الخرافة بحيث لا يكاد العقل يلعب دوراً في اذهان الناس . ألم يلاحظ علم الدين ان العامة - اي اغلبية الشعب في الشرق - تظن ان القطارات تسير بقوة مجموعة من الجن والشياطين، موكل لها مهمة السحر والتعاويذ وما أشبه (ص ٨٩) . الم ير كيف ان سادة **التقليد** الديني يحولون بين الناس وبين الاقرار بحقيقة ظواهر طبيعية معينة ، ويفضلون وضعها في اطار خرافي يدعونه تكبراً « الاطار الديني » ؟ أليست ظاهرة البراكين مثلاً جيداً على ذلك؟ ويخبر علم الدين الانكليزي بأن هذه الظاهرة لم تبحث في الازهر الا بصورة غامضة . وطلاب الازهر الذين رأوا البراكين رأي العين في بلادهم احجموا عن الاقرار « بوجودها » مخافة استعداء معلميهم المشايخ الذين يظنون ان مسألة البراكين هي مسألة جدلية ، نظرية ، بل حتى دينية ، وان الله وحده يعلم حقاً بوجودها من عدمه (ص ٣٠٦) .

لكن الدور التخريبي للتقليد الديني لا يقف عند هذه الحدود ، وذلك حسبما يرى علي مبارك . فبدلاً من جعل الشرق على علم بجهله فإن التقليد (العرف) الديني يجعله راضياً بما وجد من اجوبة ، وقانعاً بما لديه ، الى درجة تقتل كل حب للاستطلاع عنده ، وتخنق كل رغبة في استكشاف المجهول . ويلاحظ علم الدين ان المصري العادي (الشرقي) مثلاً ، ليس لديه فضول على الاطلاق لمعرفة كيف يعمل القطار وأنه قانع بأن يعرف فقط كم عليه أن يدفع للذهاب من مكان الى آخر (ص ١١٥ - ١١٦) .

ويعتبر علي مبارك التقليد (العرف) الديني ، إذاً ، مسؤولاً عن تعوّد الشرق حياة الكسل ، وفقدان الفعّالية وكره العمل ، حياة جعلت صحة الشرقيين هزيلة ، وجعلت قيمهم ، قوانينهم ، اعرافهم وما اشبه جامدة ، غير متغيرة ، قاسية او صارمة (ص ١٢٠٨ - ١٢٠٩) . إن الطريقة ذاتها التي بها ينفذ التعليم في ارقى معاهد العلم في الشرق ، الازهر ، موجهة في هذا الاتجاه من الجمود . واذ يتذكر علم الدين ذلك فيقول :

« حينما اصبحت تلميذاً في الازهر وجدت حركة من فيه مقتصرة على ادنى الحدود . إنهم يجلسون لفترات طويلة ويقرأون وليس لديهم اي وقت للتسلية . ولكي احقق طلبي في العلم فعلت كما يفعلون ، فكنت مستكناً طيلة الوقت ، وإن كنت أعلم ان ذلك هو عادة سيئة ، وخاصة لصحة المرء ، فبلاط الارض بارد والاغطية عليه رقيقة . . . لذا كنت أترك بيتي صباحاً الى الازهر فلا اعود

حتى الليل . . . ولا اترك مكاني هناك الا لقضاء حاجة او من اجل الصلاة . كذلك افعل ليلاً . فأنا اجلس جلسة واحدة للدراسة حتى منتصف الليل ، وعندها انام حيث انا . كانت تلك هي طريقة حياتي خلال إقامتي في الازهر . وبذا اصبت بمختلف انواع العلل الى درجة كنت معها اضطر للصلاة جالساً . . . ذلك ان مواصلة الجلوس يمنع الدم من الجريان في العروق والاعصاب » (ص ١١٨١ - ١١٨٢) .

لذا فحين جاء الانكليزي الى شيخ الازهر يطلب منه أن يرشح له خريجين من ذوي المعرفة بالعربية لمساعدته في مشروعه الخاص بلسان العرب ، رشح له الشيخ عدداً منهم فلم يقبل احد العرض ، لمجرد انه ينجم عنه احتمال مغادرة مصر الى اوروبا في وقت ما في المستقبل (ص ٧٠ - ٧١) .

واكثر من هذا . إن هذا الكسل نفسه ، الناشىء عن التقليد الديني جعل الشرق شاكاً للغاية بأي شيء خارج دائرة الدين؛ المجال الامين ان صح التعبير . وعلم الدين نفسه أظهر ، حينما كان لا يزال خاضعاً لسلاسل هذا التقليد (العرف) ، قدراً كبيراً من الريبة في الوظيفة العمومية ، لمجرد ان التخرصات تقول إنها تبتعد بالمرء عن تعاليم الديانة (ص ٦٠ - ٦١) . بل إنه تمّى عداءً فطرياً للمدارس العامة ، اي المدارس غير الدينية ، ولم يغير موقفه من هذه المسألة الا بعد ان واجه الغرب ورأى بنفسه ان ابنه برهان الدين ميّال للذهاب الى مدرسة عامة (ص ٢٥٣ - ٢٥٨) .

لكن هذا الجمود والصرامة الناشئين عن التقليد الديني الشرقي يمكن أن ينجم عنهما نتائج بعيدة المدى ، ذلك انها يجعلان الشرق معادياً للانفتاح على العالم الخارجي بزعم ان هذا العالم لا يدين بالاسلام . لذا فحين وافق علم الدين على العمل كمساعد للانكليزي ووافق على السفر معه، واجه عاصفة من الاعتراض والانتقاد ومن زملائه وتلامذته « الدينيين » . كيف يسعه ، وهو المسلم الورع ، ان يعمل يداً بيد مع غير مسلم؟ إن آيات عديدة في القرآن تحرم ذلك بوضوح تام (ص ٧٢ - ٧٣) . ورد علم الدين على ذلك بحزم قائلاً ان الامر ليس كذلك ، كما سيأتي . ولكن هل سيصغي هؤلاء « الاوصياء » الى التقليد (العرف) الديني لعلم الدين ؟ هل سيقتنعون باعتذاره ؟ ابداً ، ذلك انهم يظنون انهم اوصياء على الدين في حين انهم في واقع الامر اسرى **تقليد جائر** لا علاقة له بالدين الصحيح . وينتقد علي مبارك هؤلاء الناس انتقاداً حاداً للغاية بأن يجعل « تقيّة » تدعي انهم لا يعرفون شيئاً عن الدين . فهي تقول :

« إنهم يجهلون اموراً ضرورية عديدة في ديانتهم . وبعضهم لا يعرف كيف يصلي او كيف

يتوضأ او كيف يميّز الطهارة من النجاسة كما تحددهما طقوس العبادة . وبعضهم يؤمن بمعتقدات باطلة وخطرة ، وآخرون يتفوهون بكلمات الكفر دون ادراكه لكفرهم . فليس هناك من يعلمهم . . . ولو ان احدهم حضر صفوف الازهر لما تمكن أن يفقه شيئاً مما يقال هناك . . . ذلك ان لغتهم **اصطلاحية** [فقهية] (ص ٥٥ ـ ٥٦) .

ويريد علي مبارك ان يقول ان الدين ذاته ، دين المشرق ، الاسلام ، لا يمكن أن يكون عقبة امام التقدم ، كما صوره سادة العرف الديني في الشرق . وحقاً ، ألم يُخرج الاسلام اروع حضارة في الماضي حينما كانت قوته قوة دينية إيجابية نقية ، لا عرفاً خرافياً ، جامداً وقاحلاً ؟ ألم يشهد الاسلام آنئذٍ نتاجاً مرموقاً في عدد من المجالات العقلية اضافة للمجالات الدينية؟ (ص ١٣٤٩) .

ولكن يعتقد علي مبارك انه بالرغم من نفوذ العرف الديني المخيّم على الشرق فإن بوسع [هذا] الشرق أن يفلت من اسار [ذلك] العرف فيباشر رحلته من **الدونية** الى التقدم . بل ان علي مبارك يوحي ضمناً ان هذا العرف ذاته يحمل في طياته جرثومة فنائه . فكيف؟ بالحقيقة التي مفادها ان إمحال العرف الديني سيكون ، عند نقطة او اخرى ، بالغ العنت بحيث سيعيد الشرق تقويم عرفه الديني بأسره ، ويدرك الحد المقيِّد الذي فرضه عليه فيبحث عن بديل .

ويرى علي مبارك أن من المثير للاهتمام ان نلحظ اي إمحال في العرف الديني هو الذي يطلق هذه العملية الاساسية لاعادة التقويم ، والادراك ، والثورة . إنه الامحال المادي . إنه الفقر . وهذه ، بالطبع ، هي قصة علم الدين (ص ٣٠٧) .

ولكن قبل البدء برؤية الكيفية التي بها صُورت قصة علم الديني يجب على المرء ان يسأل : لِمَ اختار علي مبارك مسبباً مادياً للتغيير المتصور في عقلية الشرق ؟ ويمكن تلمّس الجواب بيسر من نص كتاب « علم الدين » . ففي رأي علي مبارك لا يمكن أن يكون التقدم الا مادياً ، واي تطلع للحركة في اتجاه التقدم يجب ان يطلقها مسبب مادي . إن **العلوم الدينية** التقليدية ، كما يحكمها العرف الديني في الشرق ، لم تؤد الى تقدم ؛ إن ما يؤدي الى التقدم هو العلوم الدينية ـ التحسينية المغيرة الى وضع اسمى . إن المرء يستنتج هذا من المواضع التي يتحدث فيها علي مبارك عن التقدم في كتابه ، وهو في الواقع يتحدث عنه في مواضع كثيرة .

إن التقدم بالنسبة لعلي مبارك هو بالدرجة الاولى عملية **متدرجة** (ص ١٣٠ ـ ٣٠٨) . وأساس العملية ذاته هو تطوير التعليم في مختلف العلوم والبحث المتواصل لتطوير هذه العلوم اكثر فأكثر (ص ٣٠٨ و ٣١٠) . إن التقدم الحديث ينتفع في

هذا الصدد من الحضارات السالفة كحضارة العرب وحضارة المصريين القدماء ، لكنه لا يتوقف بالتأكيد عند انجازاتها ، بل يتخذ منها نقاط انطلاق نحو الارتقاء . بهذه الطريقة تتطور الصناعات (ص ٣٠٨ و ٣١٠) . وتظهر المخترعات تلو المخترعات (ص ٣١٠) . وتنشأ مواصلات سريعة فتعلي شأن التقدم (يعني ، الطباعة والبرق والقطار) (ص ٣١٠ و ١٧٩) . ويصبح السفر سهلاً ، فيساعد التقدم كما يساعده التقدم بدوره (ص ٣٠٩) والملاحة والتجارة على نطاق عالمي تزيد من التقدم (ص ٢٣٣) . وتكتشف اراض جديدة **فتعمَّر** . وبذا تزداد الثروات والكنوز في ايدي اولئك الذين ينشرون التقدم في الآفاق (ص ٢٣٤ و٣٠٩) . والبلاد التي تتلقى ثمرات التقدم تغدو تابعة للبلاد التي تنتج التقدم (ص ٢٣٤ و ٣٠٩ ـ ٣١٠) . والاسباب برأي علي مبارك مفهومة . فإن اقوى الروابط بين الناس هي رابطة المنفعة (ص ١٧٩) . واولئك الذين ينتجون اكبر قدر من المنفعة للمجتمع الانساني ، عن طريق التقدم المادي ، قادرون على أن يكونوا أسياد للمجتمع الانساني . لقد كان الغرب سيد التقدم . وقد ساد على مناطق واسعة من العالم (ص ٢٣٤ و٣٠٩) . وينبغي ان يكون الغرب نموذجاً يجب ان يطمح الشرق لمضاهاته .

ومتى ما تحدّت الفاقة المادية الشرق ، وزعزعت تمسكه الاعمى بعرفه الديني العقيم ، الى حد يرغب معه ان يغير حالته ، فعندئذٍ يكون الشرق قد وضع نفسه على طريق التقدم؛ التقدم المادي ، التقدم الحقيقي . لكن الرغبة في التغيير ، التغيير الحقيقي ، تتطلب الكثير من جانب الشرق . إنها تتطلب روحية جديدة ، عقلية جديدة ، موقفاً جديداً من الامور ، قدراً كبيراً من الانفتاح على العالم ، حرية في الحركة . وهذه في الحق هي قصة علم الدين ، بطل علي مبارك .

لقد قضى علم الدين افضل سني حياته وهو يبني لنفسه مهنة ناجحة كفقيه في العلوم الدينية ؛ وانتهى الى الفاقة . وقد جعله هذا الفقر ، كما جعل زوجته تقية ، يبحثان عن تغيير جدي حقيقي ، في نمط حياته . وكان يمكن لهذا التغيير ان يحدث في اتجاهات متعددة . اقترحت تقية [مثلاً] ان يعود علم الدين الى الريف ، الى قريته ، ليكون فقيه القرية . وهذا ما رفضه علم الدين . إنه تغيير ، لكنه الى الوراء لا الى الامام ؛ فالحياة في الريف محدودة بشكل لا يطاق ، والجميع لا يعبأون سوى بصنعتهم او حاجتهم المباشرة . إنه ليس تغييراً الى الاحسن . واقترحت تقية اقتراحاً آخر بأن يزاول علم الدين اعطاء دروس اضافية في علوم الدين لشباب المحلة التي يسكنونها . ولكن هذا بالنسبة لعلم الدين لم يمثل تغييراً . إنه اشبه بالدوران في حلقة مفرغة . إنه بحاجة الى تغيير حقيقي وليس الى تغيير صوري ؛ تغيير نحو الانفتاح وليس نحو التقييد (ص ٤٦ ـ ٦٩) .

وهنا عند هذه النقطة اتخذ علم الدين قراره . إن التغيير يأتي فقط مع « الحركة » . تلك هي الحكمة التي امر الله بها [عباده] المسلمين في القرآن في آيات متعددة (ص ٤٥ و ٥٧) والتي أراد النبي محمد ان يتبعها المسلمون (ص ٥٨) . وعلم الدين سيتبع هذا التوجيه . إنه سيقوم بحركة جادة في المكان ، ذلك ان هذه هي الطريقة الوحيدة التي تثمر البركة ، التغيير نحو الاحسن . وقد استقر فكره على السفر خارج مصر ، على ان يكون منفتحاً على العالم ، فبدأ يقرأ كل انواع الكتب عن البلاد الاخرى (ص ٦٩ - ٧٠) . واسعفته المصادفة . فقد التقى الانكليزي في القاهرة ، وتمكن عن طريق علاقته به من تحقيق رغبته فعلياً بالتغيير من خلال الحركة . وأسعفه التغيير ايضاً لأن هذه الحركة ستكون في الاتجاه الصحيح نحو التقدم - نحو الغرب . ويريد علي مبارك ان يقول ان الشرق لا يمكن أن يتغير نحو الاحسن الا اذا طوّر في نفسه حالة نفسية صادقة من حالات الانفتاح نحو العالم - نحو الغرب - وهذا يمكن أن يتأتى حينما تنمو فيه الرغبة بالتغلب على معضلة الفقر المادية .

على انه ليس من السهل على الشرق أن يطوّر نفسه في مثل هذه الحالة ، لأن الشرق نفسه سيحارب تطوره بنفسه . الم يثبّط زملاء علم الدين وتلامذته من عزمه على السفر مع الانكليزي ، محاولين لمزه وغمزه بأن عمله هو عمل يخالف الدين لأن القرآن يحرم التعاون مع غير المسلمين ، كما ذكر آنفاً ؟ لكن الشرق ، إذا كانت لديه العزيمة الثابتة على تغيير حالته سيدافع ، ويقدر على الدفاع ، عن وضعه ، ليس فقط على اسس عمومية بل على اسس دينية ايضاً . لذا فحين انتُقِد علم الدين لقراره السفر مع الانكليزي اجاب انه سيقوم بتعليم الانكليزي العربية ، فيسدي بذلك خدمة للغة . سيتحدث معه عن الاسلام ، ومن يدري؟ لعله يعتنق الاسلام ، او على الاقل يجعله ذلك يدافع عن الاسلام امام قومه . لكن الاهم من هذا هو وجود سابقة في تاريخ صدر الاسلام حينما قُبل شخص غير مسلم في « الامة » . فضلاً عن ذلك فإن المسلمين إنما يطلب منهم في القرآن الامتناع عن اقامة علاقات مع غير المسلمين « من الذين يقاتلونهم » ، اما غير المسلمين من الانكليز فإنهم لا يقاتلوننا على اساس ديني ولا هم يطردوننا من بلادنا[9] . على العكس من ذلك ، فهم قد وقفوا الى جانبنا ضد اعدائنا (ص ٧٢ - ٧٨) . بل لو اننا وجدنا شيئاً نافعاً فيهم فيجب علينا ألا

---

(٩) الارجح ان هذا هو السبب الذي حدا بعلي مبارك الى جعل بطله الغربي انكليزياً لا فرنسياً . وانا مدينة بهذه الفكرة الى د. Rotraud Wielandt Wyotoiwitch - والذي يؤكد هذا الاستنتاج هو اسراع علي مبارك بنشر كتابه علم الدين سنة ١٨٨٢ ، وهي سنة الاحتلال البريطاني لمصر ، كما ذكرنا سابقاً ، بعد ان ظل مهملاً لما يزيد عن عشرين سنة ، مدفوعاً ربما ، بخشيته من ان يترتب عليه اجراء تعديلات فيه اذا قدر للبريطانيين ان يوصموا انهم « مقاتلو الاسلام » كالفرنسيين قبلهم .

نتركه لمجرد أنهم مختلفون عنا في الدين ، إنما ينبغي لنا أن ننتفع نحن من ذلك ؛ فلهم دينهم ولنا ديننا (ص ٧٨) .

ويريد علي مبارك ان يقول ان الدين لا يعارض الانفتاح والرغبة في التغيير ؛ بل على العكس من ذلك فإن الدين يشجع عليه كما أثبت ذلك علم الدين . ويقول علي مبارك بصورة غير مباشرة ان الوقت الآن هو وقت ابتداء الشرق لحركته نحو الغرب . والسبب هو ان النظام السياسي ، الآن ومنذ زمن محمد علي ، هو ذاته منفتح على الغرب ، وقائم على العدل ، ومتجه لخدمة اقتصاد البلاد ورفاه الشعب ، ولأن النظام السياسي قد نشر الامن والاطمئنان في المملكة (ص ٣١٦ - ٣١٨ ، ٤٩٤ - ٤٩٦ ، ٨٦٣ ، ٩٨٥ - ٩٨٦ ، ١٠٨٠ - ١٠٨١) . وقبل حكم هذه السلالة كان الشرق محروماً من فرصة التغيير (ص ٣١٧ ، ٤٩٢ - ٤٩٤ ، ١٠٠١ - ١٠٠٢ ، ١٠٨٠) . اما الآن فإن جميع الفرص مفتوحة امام الشرق . وما عليه الا ان يخطو الخطوة الاولى . وهذا هو ما سيقوم به علم الدين حينما وافق على اصطحاب الانكليزي الى اوروبا . وبابتداء رحلة علم الدين مع الانكليزي الى الغرب يبتدىء الشرق ، رمزياً ، بشق طريقه نحو التقدم . **إنه يبتدىء عمليته باعادة التعلم** .

وهكذا فليس من المصادفة ان يكرس القسم الاعظم من كتاب علي مبارك الى ايضاح منجزات الغرب في مختلف العلوم والفنون ، والى وصف تجارب علم الدين ، وابنه ، فيها . إن عملية اعادة التعلم الخاصة بالشرق والمتعلقة **بمعرفة الغرب هي عملية تتطلب حقاً سعة كبيرة** .

وهذه العملية تخدم وظيفتين ، اولاهما ايجابية والاخرى سلبية . فأما الاولى فهي ان الشرق سيتعرف على العلوم والفنون الرئيسية المطوّرة حديثاً في الغرب ، مثل علم **طبقات الارض** والجغرافية وعلم الانواء والنبات والحيوان وما أشبه . وسيدرك الشرق [مدى] منفعة التقدم العظيمة التي يجنيها الغرب ، وهي منفعة في حقول : كالصحافة والقطارات والبرق والبنوك وغيرها من مجالات التقدم المادي المشابهة . **وهذا التقدم يوفر الوقت والمال كما ذكر آنفاً** . وهو يقرّب الناس بعضهم من بعض . ويجعل المال يتزايد اكثر فأكثر . بل يجعل حتى الهيمنة السياسية ممكنة .

وهذا التقدم يخلق كذلك في الافراد والمؤسسات حساً معيناً بالفعّالية والتجدد . إن امراً من الامور الاولى التي أثارت انتباه علم الدين لدى وصوله مارسيليا هو النشاط ، وإن كان هادئاً ، في الشوارع ، بين الناس ، وفي الميناء ، (ص ٤٤٦ - ٤٤٧) . والمقاهي ، التي يمكن أن تكون امكنة بسيطة ، هي في الواقع كالمؤسسات تماماً ، ففيها لا يتناول الناس فقط المشرب والمأكل بل كذلك يقرأون الصحف او

يزاولون بعض الالعاب او يهجعون للحديث (ص ٤٥٣) . واخذ علم الدين الانطباع نفسه من زيارته للمسرح ، بكل ما فيه من رونق وذوق جميل (ص ٤٠٣) . والدكاكين ايضاً هي ليست محلات لمحض الاخذ والعطاء ، بل هي امكنة مصقولة الى حد بعيد . فالعاملات فيها شابات جذابات هنّ على استعداد أن يبحثن مع الزبون حاجته فينصحنه ويغلّفن له مشترياته بأناقة . بل ان بوسع الزبون ان يترك مشترياته في الدكان لترسل الى بيته ، ويكون مفهوماً لديه أنه سيدفع اثمانها لدى التسليم (ص ٨١٦ ـ ٨١٨) . وهناك كذلك السوق الهائل حيث يستطيع المرء ان يشتري اي شيء تقريباً وأن يدخل اليه ويخرج منه بيسر (ص ٨٥٨ ـ ٨٦٤) . والحدائق والملاعب جميلة للغاية في باريس وغيرها كما في فرساي ؛ والاطفال يلعبون هناك بحرية وبطريقة صحية ، وبهدوء وسلوك حسن (ص ٩٦٢ ـ ٩٦٣) .

وعلى النقيض من ذلك ، فإن هذه الصورة الزاهية ، الايجابية عن الغرب ، تذكر علم الدين ، وبرهان الدين ايضاً ، بالحالة السلبية للشرق. فالقطارات في الشرق قد بوشر بها لكن الناس لا تعرف شيئاً عنها سوى ما تكلفه البطاقة من مكان الى آخر (ص ١١٥ ـ ١١٦) ، كما ذكر آنفاً ، والحال على هذا المنوال بشأن البريد (ص ٢١٩) ، وترقيم الدور الذي قامت به الحكومة (ص ٢٢٠) . إن عقلية الناس ليست عقلية نشاط وحب استطلاع واستقصاء وما أشبه . إنها عقلية استسلامية . وعلى الرغم من ذلك فإن الناس يسببون الضوضاء في الشوارع دونما اي تأثير [ايجابي] على الاطلاق (ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧) . وفي حين ان الفنادق في الغرب (وفي القسم المتأثر بالغرب من البلاد الشرقية) هي انيقة ، هادئة ، حسنة الادامة ، ومرتبة ، فإن الفنادق في الشرق قذرة ، ومكتظة بالناس وتضج بالضوضاء ، وتمتلىء بالفئران والقمل والحشرات ، ومبنية اسوأ بناء بحيث يتبلل المرء في يوم مطير ، ومليئة بالروائح الكريهة الى درجة خانقة (ص ١٨٦ ـ ١٨٨ و ١٩٢) . وليست المقاهي في حال افضل . إنها امكنة يرتادها قطاع الطرق والمجرمون (ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤) . اما « المسرح » ، إن كان يجوز نعت مجموعة « اولاد ربيعة » بهذا النعت ، فيعوزه كلياً الذوق الجميل ، وهو في حقيقته مجرد [مكان] موبوء بالبذاءة والتخريب (ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥) . وفي حين ان الغناء في الغرب هو فن رفيع فإن الاغاني في الشرق هي مجرد نواح وانين ، ويعتمد على تكرار كلمات سخيفة كلياً من مثل « يا ليل » (ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥) . واطفال الشرق محرومون من جو الاسترخاء الذي ينعم به اطفال الغرب . إنهم دائماً يتصايحون ويتباكون ، وهم قذرون على الدوام (ص ٩٦٣) .

وكيف كان يمكن للشرق ان يدرك الحال السيىء الذي هو فيه لو انه لم يواجه البديل الغربي؟ يريد علي مبارك ان يقول : حينما واجه الشرق الغرب فإنه لم يتعلم من

منجزاته فحسب بل ادرك كذلك، بصدمة النقيض ، مدى تخلفه العظيم بالنسبة للغرب. وهذا الادراك لا يمكن أن يتأتى الا « بالمقارنة » . وهذا هو الموضوع الذي تحدث عنه علي مبارك في « مقدمته » (ص ٨) .

على ان علي مبارك تحدث كذلك في نفس المقدمة عن « اختيار النافع من [بين] الضار » (ص ٤٣٦) . وهذا ما قصد علي مبارك ايضاً أن يبينه في « علم الدين » كنتيجة ثانوية لعملية اعادة التعلم ، وهذا يعني ان التقدم هو الذي يملي عادات او اعرافاً او مؤسسات معينة ليس بالضرورة ان تكون إيجابية كلياً . وكما لاحظ علم الدين ، مثلاً ، فإن اسم الله في الغرب لا يكاد يذكر ابداً (ص ٥٠٣) وان الناس يميلون الى الافراط كثيراً في الشرب والمقامرة (ص ٥٠٤).

وقضية المرأة ذات صلة هنا ، ويشير اليها علي مبارك في مواضع عدة . إن طبيعة التقدم في الغرب قد اتاحت للمرأة قدراً كبيراً من الحرية . فهي تسير غير محجبة ، وتختلط بالرجل ، وتدرس مثله ، وتضحك معه ،وتلبس احسن الثياب ولا تبالي اذا تركت بعض اجزاء بدنها غير مستور (ص ١٩٨ ـ ٤٣٥ ، ٩١١ ، ٩١٢) . وهذا ما قد لا يرتاح له الشرق .

إذاً فالتقدم المادي قد تقاضى سعره الباهظ. لكن الشرق ليس بحاجة لأخذ ذلك من الغرب . بل ان الشرق يتمتع بميزة معينة لما يعرف عن الغرب : بوسع الشرق ان يقرر ما يريد ان يأخذه من الغرب ، وما يرى تركه ضرورياً .

وما كان لدى علي مبارك من القول هو هذا : في الشرق دين واخلاق ، والافضل له الاحتفاظ بهما ـ ولكن فقط بالطريقة الصحيحة ـ بمعنى ان يأخذ الشرق كل شيء [آخر] تقريباً من الغرب . ولا يسع علي مبارك ان يقول غير هذا . فهو شخصياً وليد ظروفه ؛ ابن فقيه القرية ، والذي درس في القرية وما جاورها من القرى، ولكنه هو الذي ثار بعنف ، منذ كان طفلاً ، ضد محتوى التعليم واسلوبه هناك . وهذه الثورة ساقته الى الهرب من اهله اكثر من مرة ، وادت به الى شقاء كثير قبل ان يدخل المدارس العامة في القاهرة . وبعد هذا انتهى به الامر ان يصبح احد الطلبة المتفوقين في المهندسخانة فيجري اختياره ، لذلك ، لبعثة دراسية يكمل بها دراسته في باريس ، حيث امضى ست سنوات ، كما ذكر آنفاً . إن كل هذا هو الذي انشأ علي مبارك وكتابه « علم الدين » . فلئن لم تكن لدينا وسيلة لنعرف بواسطتها مدى تأثير كتاب « علم الدين » فإننا نعرف بالتأكيد ان علي مبارك في فترة ما بعد المرحلة الباريسية ، علي مبارك المهندس ووزير المعارف ، ووزير الشؤون العسكرية وصاحب المناصب العليا الاخرى ، كان بلا ريب [صنواً] لعلم الدين المغرّب كلياً .

القِسمُ الثّاني

بيروت، جبل لبنان، جبل عامل

الفصل الرابع

عبد الغني العريسي وجريدة المفيد : الصحافة والقومية العربية قبل سنة ١٩١٤ (*)

رشيد الخالدي

- ١ -

إن أغلب البحث في « النهضة العربية » للقرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كان قد تركّز على جذورها الفكرية والثقافية واللغوية ، دون التركيز على الحركة السياسية التي نشأت عنها في مستهل هذا القرن . صحيح ان عدداً من التآليف القيمة قد عالج جوانب مهمة من التاريخ السياسي لحركة القومية العربية التي تطورت بعد ثورة ١٩٠٨ في الامبراطورية العثمانية[١] . وعلى الرغم من طبيعة هذه المرحلة التي تنطوي على بذور النشوء ، وذلك فيما يخص التاريخ العربي الحديث والحركات السياسية العربية العصرية وعقيدة القومية العربية ، فإنها لم تدرس بعد بصورة **منهجية** استناداً الى الصحافة العربية الغنية جداً ، وهي صحافة لعبت دوراً حاسماً في السياسة

(*) اود تسجيل امتناني للآنسة منى نصولي على مساعدتها القيمة في اعمال البحث الخاصة بهذه الورقة ، وكذلك لموظفي مكتبة يافث في الجامعة الامريكية في بيروت ، على عونهم، وخاصة الانسة ليندا صدقة .

(١) على الاخص : [اسعد داغر] ، **ثورة العرب : مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها** ، بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية (القاهرة : مطبعة المقطم ، ١٩١٦) ؛ امين سعيد ، **الثورة العربية الكبرى** ، ٣ج (القاهرة : البابي الحلبي ، ١٩٣٤) ، ج ١ ؛ سليمان موسى ، **الحركة العربية : مسيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ، ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤**(بيروت : دار النهار ، ١٩٧٠) ؛
George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* (London: Macmillan, 1939); Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (London: Oxford University Press, 1961); Abdul Latif Tibawi, *A Modern History of Syria Including Lebanon and Palestine* (London: Macmillan, 1969), and C. Ernest Dawn, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism* (Urbana, Ill.: University of Illinois Press,, 1973).

طوال ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ ، لاسيما في بيروت والقاهرة ، إنما كـذلك في دمشق واسـطنبول وغيرهما من مدن المنطقة[٢] .

ومجرد عقد مؤتمر بعنوان « الحيـاة الفكريـة في المشرق العـربي ١٨٩٠ ـ ١٩٣٩ : ابعاد غير مستكشفة » ، بنجاح ، ونصف البحوث المقدمة فيه تتناول الصحافة العربيـة او تعتمد في دراستها عليها ، علامة جلية على الاحساس المتنامي بوجود فجوة في كتابة التاريخ العربي الحديث من جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصـادية . ويمكن تلمّس حجم هـذه الفجوة حتى بمقـارنة سـريعـة بـين المـادة وطـرق البحث والمصـادر لاغلب الاعمال عن التاريخ العربي الحديث وبين اغلب الاعمال الاخيرة عن التاريخ الحديث لأي بلد اوروبي من النـواحي المـذكـورة . فـالاولى تميـل الى التـركيـز عـلى قلة من الشخصيـات التي اشبعت درساً (وإن كـانت شخصيات مهمـة بلا ريب) مثـل جمـال الدين الافغاني ومحمد عبده . وهي في الـوقت عينه دراسـات تعطي انـطباعـاً جلياً عن مجتمع حدث فيه التغيير ببطء ، هذا إن حدث اطلاقاً ، وفيها يعتمد الكل بأسـره على عدد محدود من المصادر وعلى إمعان النظر في قلة من المـراكز فقط كـالقاهـرة وبيروت . اما الاعمال الثانية فهي تتجاوز التعميمات الكاسحة والتصنيفات التقليدية الضيقة الى استقصاء التاريخ المحلي واستخدام الاحصائيات ومنهجية العلوم الاجتمـاعية وتفحّص البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للسياسة .

وهـذا الفارق هـو ، في جزء منـه ، من بقايـا الاستشراق : وإلا كيف يمكن أن نفسر لهجة الازدراء لكثير من الكتابات عن الوطن العـربي والتبسيطات الفجـة الفائقـة من النوع الذي سيبدو مثيراً للسخـرية في اي حقـل آخر ، لكنـه ينطلي في هـذا الحقل دون ملاحظة على ما يـظهر . مـع هذا لا بدمن ان يعزى ذلـك الى حد كبـير الى اخفاق الباحثين العاملين في الوطن العربي في استغلال جميع المصادر المحلية التي في متناولهم ، والصحافة مثل بارز بينها . وفي حين ان الصحف العربية هي إما غير متوفرة وإما ذات فائدة قليلة كمصدر من مصادر المرحلة لما قبل نهاية القرن التاسع عشر ، فإنها غدت لا يعـادلها شيء اعتبـاراً من سبعينات القـرن الماضي فصـاعداً ، خـاصـة تلك الصحف

---

(٢) باستثناء المؤلفات المذكورة في الهامش رقم (١) فإن معظم الدراسات الاخرى لهذه الفترة تعتمد اعتماداً كبيراً على مصادر ديبلوماسية اجنبية ، على سبيل المثال :
Rashid Ismail Khalidi, *British Policy towards Syria and Palestine 1906-1914: A Study of the Antecedents of the Hussein-Macmahon Correspondance, the Sykes- Picot Agreement, and the Balfour Declaration* (London: 1980), [henceforth cited as: *British Policy towards Syria and Palestine, 1906-1914...*], and Rashid Ismail Khalidi, «Arab Nationalism in Syria: The Formative Years,» in: William W. Haddad and William Ochsenwald, eds., *Nationalism in a Non-National State: The Dissolution of the Ottoman Empire* (Columbus, Ohio: Ohio State University Press, 1977).

الصادرة في القاهرة . اما عن العهد العثماني الدستوري بعد **١٩٠٨** فإن وفـرة المصادر الصحفية من الجرائـد المتوفـرة هي وفرة كبيـرة . ففي سوريـة[٣] وحدهـا تأسست **٣٥** صحيفـة في السنة التي تلت الثـورة في حين تـأسست اكثر من **٦٠** صحيفـة في بيروت فقط من **١٩٠٨** الى **١٩١٤**[٤] . بـل يمكن القول إنـه لم يعـد ممكنـاً ، إن كـان ممكنـاً أبـداً ، ان يكتب المرء بجـدية عن تلك السنـين ، او عن اي جانب آخـر من جـوانب التاريخ والسيـاسة للوطن العـربي الحديث ، دون الانتفـاع من الصحف وغيـرها من مادة المصادر الاساسية المشابهة . وكما اظهر تدقيق غير كـامل لاحـدى تلك الجرائـد ، وهي جريدة المفيد ، فإن اي استخدام دقيق لتلك المصادر سينجم عنه بالضرورة ، في اقل تقدير ، تعديلات وإضافات أساسية على الرأي المقبول عن هذه المرحلة بأسرها .

- ٢ -

إن حركة القومية العربية في فترة ما قبل الحرب العـالمية الاولى كـانت قد تـألفت بالدرجة الاولى ـ كما يذكر عـدد من الكتاب ـ من الشبـان ـ طلابـاً وموظفـين صغاراً ، وصحفيين ومثقفين بالدرجة الاولى. صحيح ان عدداً من اولئك الذين صعدوا المشانق في **١٩١٥** و**١٩١٦** كـانوا سـاسة نـاضجين مثـل النـواب شفيق المؤيـد وعبـد الحميـد زهراوي وشكري العسلي ورشدي **الشمّا** وحافظ السعيد[٥] . مع هـذا فإن العـديد من أنشط الجمعيـات السريـة القوميـة ، التي لا نعلم عن نشاطهـا الا القليل حتى اليـوم ، كانت قد تألفت كلياً من رجال في العشرين واوائـل الثلاثـين من العمر . وهكـذا فإن جمعيـة الفتاة ، وهي عـلى ما يـظهر من بـين اكثر تلك الجمعيـات نفوذاً ، قـد اسستها جماعة من الشبان السوريين الذين يدرسون في بـاريس . كان هؤلاء فعّـالين في تنـظيم المؤتمـر العربي الاول في بـاريس في اواسط سنة **١٩١٣** ، بـالتعـاون مـع زعـماء حـزب

---

(٣) الاشارة الى سورية ، الا اذا ذكر خلاف ذلك ، هي الى سورية الجغرافية التي تشمل سورية الحالية ؛ فلسطين ، لبنان ، والاردن .

(٤) فيليب دي طرازي [فيكونت] ، **تاريخ الصحافة العربية** ، ٤ ج في ٢ (بيروت : المطبعة الادبية ، ١٩١٣ -١٩٤٤)، ج ١ . ومقتنيات مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت من صحافة القاهرة لفترة ما قبل الحرب العالمية الاولى تضم المجموعة الكاملة من : **الاهرام** ؛ **المقطم** ؛ **المنار** ؛ **المقتطف** ، والهلال، اضافة الى مجموعة غير كاملة من **المؤيد** (١٩٠٧ ـ ١٩١٠) ؛ **الجريدة** (١٩٠٧ ـ ١٩١٤) ، **والعَلَم** (١٩١٠ ـ ١٩١١) ، فضلاً عن عدد من الصحف والدوريات القاهرية الاخرى . اما بالنسبة لصحافة بيروت في الفترة نفسها ، فتضم المكتبـة المجموعـة الكاملةمن :**لسان الحال** ؛ **البرق** ؛ **الاتحاد العثماني** (مع بعض النقص فيها) ؛ **المفيد** (١٩١١ ـ ١٩١٣) ؛ **بيروت** (١٨٨٩ ـ ١٩٠٩) ؛ **الحقيقة** (١٩٠١ ـ ١٩٢١) ، **والاقبال** (١٩٠٢ ـ ١٩١٢) اضافة الى عدد كبير من صحف دوريات القرن التاسع عشر .

(٥) باستثناء الاخير الذي كان نائباً عن القدس ، كان الجميع يمثل ولاية دمشق في البرلمان العثماني لسنة ١٩٠٨ .

اللامركزية الادارية العثماني ، ومركزه في القاهرة ، الذين كانوا معهم على اتصال وثيق على ما يبدو[٦] .

وكان عبد الغني العريسي احد الاعضاء البارزين في جمعية الفتاة واحد ألمع رواد الحركة القومية بأسرها واكثرهم دينامية[٧] . كان العريسي محاصصاً في الملكية ومشاركاً في التحرير مع فؤاد حنتس في جريدة المفيد ، وهو يمثل احسن تمثيل الفتوة المتطرفة لعدد من زعماء الحركة وخلفيتهم الاجتماعية معاً . ولد العريسي سنة ١٨٩١[٨] لأب يشتغل في بيع الفواكه بالجملة ، غير ميسور الحال . لقد تعلّم في مدرسة المقاصد ، ثم في الكلية العثمانية التي أسسها الشيخ احمد عباس الازهري في بيروت سنة ١٨٩٨[٩] ، وبعدها درّس العريسي في مدرسة جامع عين المريسة . وحين ابتدأ هو وفؤاد حنتس باصدار المفيد في ١٩٠٩ كان لا يزال مدرساً ، ولم تغادره روحيته التعليمية قط طيلة حياته القصيرة . ومقالاته الافتتاحية في المفيد تتضمن معاً مجادلات قومية عربية تمزج المفاهيم الاسلامية التقليدية بالمفاهيم السياسية الغربية ، ومقالات اهدأ تهدف الى غرز مثل وطنية ومدنية عصرية في قرائها وتبث فيهم في الوقت

---

(٦) للمزيد حول هذه الجمعيات ، انظر : [داغر]، **ثورة العرب : مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها** ؛ سعيد ، **الثورة العربية الكبرى** ؛ موسى ، **الحركة العربية : مسيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ، ١٩٠٨ - ١٩٢٤** ؛
Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*, and Dawn, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism.*

(٧) لا يوجد سوى قلة من المصادر المنشورة التي تلقي ضوءاً على حياة العريسي ، انظر ، بالاضافة الى الاشارات المتكررة عنه في المصادر اعلاه ، وخطابه في : وجيه كوثراني ، مقدّم ، **وثائق المؤتمر العربي الاول ، ١٩١٣ : كتاب المؤتمر والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به ، الدولة العثمانية وظروف نشأة الحركة العربية** (بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٠) ، ص ٤٢ - ٥٠ [يشار اليه لاحقاً : **وثائق المؤتمر العربي الاول ، ١٩١٣ . . .**] ، كلاً من : عنبرة سلام الخالدي ، **جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين** (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٨) ، ص ٧٦ و ٩٤ - ١٠٥ ، و
La Vérité sur la question syrienne (Istanbule: Publié par le Commandement de la ivème Armée, 1916).

(٨) لا يوجد ذكر لتاريخ ولادة عبد الغني العريسي سوى في النبذة القصيرة عنه في : لطف الله نهرا ، **تاريخ الحرب في سوريا ولبنان** ([د . ن . : ١٩٢٠؟]) ، التي تفيد ان ولادته كانت في ٣٠ شوال ١٣٣٠ / ٢٩ ايار ١٨٩١ وقد ذكر العريسي لعنبرة سلام الخالدي انه في السادسة والعشرين من العمر وكان ذلك عام ١٩١٥ (كما افادت في مقابلة شخصية مع الكاتب في ٢٢ / ٥ / ١٩٧٩) .

(٩) دعت بعض المصادر هذه الثانوية التي تركت اثراً بالغاً في جيل بأسره من الشباب المسلم في بيروت ، « المدرسة العثمانية » (الخالدي ، **جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين** ، ص ٦١) ، كما دعتها مصادر اخرى « الكلية العثمانية » . للمزيد حول اهمية هذا المعهد ، انظر :
Kamal Salibi, «Beirut under the Young Turks as Depicted in the Political Memoirs of Salim Ali Salam, 1808-1938,» chap. 17 in: Centre national de la recherche scientifique [CNRS], Colloque international du Centre national de la recherche scientifique, Paris, 9-11 Avril, 1974, *Les Arabes par leurs archives, xvi^{e} - xx^{e} siècles,* =

ذاته الفخر بميراثهم العربي[١٠] . وقد ترجم العريسي ، بصدد هذا الميراث ، لقراء المفيد فصولاً عديدة من كتاب غوستاف لوبون « حضارة العرب » وفصولاً اخرى من كتاب بول دومير Paul Doumer المكتوب للشباب والذي يفسّر بعض المفاهيم الاوروبية الحديثة عن المجتمع والسياسة والاخلاق[١١] . وفي ١٩١١ ترجم العريسي هذا الكتاب بأسره ونشره بعنوان « كتاب البنين »[١٢] .

وفي هذا الوقت نشرت المفيد ، وهي الآن من اكثر الجرائد اليومية نفوذاً في سورية بأسرها ، مقالات لعدد من ابرز زعماء الحركة العربية ، ودخلت في مجادلات مستمرة مع جريدة طنين ، لسان حال لجنة الاتحاد والترقي الحاكمة في اسطنبول .

سافر عبدالغني العريسي في شباط / فبراير ١٩١٢ ، وقد أنجز كل هذا وهو بعد في العشرين من عمره ، الى باريس لدراسة الصحافة والسياسة . انه وهو الذي حقق سلفاً مكانته كصحفي وانغمس عميقاً في السياسة ، والمتمكن بصورة حسنة من معرفة اللغة الفرنسية ومن ادراك المفاهيم السياسية الاوروبية ، يبدو مع ذلك وكأنه قد انتفع كثيراً من إقامته في باريس حيث بقي في سنتي ١٩١٢ و ١٩١٣ بأغلبها . والتطور الذي حصل في اسلوب افتتاحياته بعد ذلك وفي محتوياتها معاً يشير الى صحة هذه الملاحظة .

وكان العريسي ، بالاضافة الى دراسته ، نشطاً سياسياً وعمل كسكرتير للجنة التحضيرية للمؤتمر العربي والقى خطاباً افتتاحياً حماسياً في الاجتماع الاول للمؤتمر بكامل هيئته[١٣] .

= organizé par Jacques Berque, Dominique Chevallier avec la participation de Salim al-Alousi et al., Colloques internationaux du Centre national de la recherche scientifique, 555 (Paris: CNRS, 1977), pp. 203-204.

(١٠) جرى تدقيق ٢١ مقالة افتتاحية للعريسي لاغراض هذا البحث . وقد نشرت في الفترة من ايار / مايو ١٩١١ الى كانون الاول / ديسمبر ١٩١٣ . غير ان عدداً من الافتتاحيات غير الموقعة او بتوقيع مستعار ، والتي تظهر أنها كانت بقلم العريسي ، لم يجر ادخالها في التدقيق .

(١١) هذه الفصول المترجمة ، وبعضها بمقدمة وتعليقات بقلم العريسي ، موجودة في الاعداد التالية من المفيد : ٦٩٨ (٢٢ / ٥ / ١٩١١) ؛ ٧٠٠ (٢٤ / ٥ / ١٩١١) ؛ ٧٠٣ (٢٨ / ٥ / ١٩١١) ؛ ٧٢٧ (٢٤ / ٦ / ١٩١١) ؛ ٧٣١ (٢٩ / ٦ / ١٩١١) ؛ ٧٣٧ (٦ / ٧ / ١٩١١) ؛ ٧٤٩ (٢٦ / ٧ / ١٩١١) و ٨٦٣ (٢٤ / ١٢ / ١٩١١) . وجميع الاشارات الحالية الى المفيدواللاحقة منها تشير الى الصفحة الاولى الا اذا ذكر خلاف ذلك .

(١٢) بول دومر ، **كتاب البنين** ، ترجمة عبد الغني العريسي (بيروت : المطبعة الاهلية ، ١٣٢٩هـ) . وقد نشر الكتاب في نهاية عام ١٩١١ م بعد الاعلان عنه اولاً في المفيد ويتضمن مقدمة بقلم رفيق العظم وتقريظات بقلم الشيخ احمد عباس الازهري مؤسس الكلية العثمانية ، شكيب ارسلان ، محمد كرد علي وهوارد بلِس .

(١٣) كوثراني ، مقدّم ، **وثائق المؤتمر العربي الاول ، ١٩١٣ . . .** ، ص ٤٢ - ٥٠ .

وعند عودته الى بيروت في اواخر ١٩١٣ كانت الحركة العربية قد بلغت نقطة تحول ، والتي ابتدأت كظاهرة ثقافية قومية في السنين التي اعقبت مباشرة اعادة الدستور العثماني في ١٩٠٨ ، وتطورت بعدئذٍ الى شبكة واسعة من الروابط والاحزاب والجمعيات السرية والنوادي والتي تعمل من اجل الاصلاحات واللامركزية الادارية في جميع الاقاليم العربية بكل ارجاء الامبراطورية .

بيد انه وفي نهاية ١٩١٣ اتضح للعديد من الشباب العربي المثقف والمتمرس في السياسة إن لجنة الاتحاد والترقي التي يهيمن عليها الاتراك لا تنوي اجراء الاصلاحات المطالب بها من العرب ، او تحقيق اللامركزية في الامبراطورية ، او اقتسام السلطة السياسية مع اي قوة من القوى او مجموعة او حزب . ناهيك عن ان الاتحاديين ظلوا لا يعيرون اذناً صاغية للمطالب المتعلقة باستعمال اللغة المحلية وتعيين الموظفين المحليين الامر الذي اطلق اولاً شرارة التذمر العربي في ١٩٠٩ ، واستمر يوقده خلال السنوات الاربع اللاحقة ، حينما نشأت « الجمعيات الاصلاحية » في عدد من المدن العربية وعلى رأسها بيروت . وإزاء هذه الخلفية تبدو الجمعية العربية السرية العاملة في الخفاء في اواخر ١٩١٣ وكأنها احياناً قد بدأت بتهيئة الاساس لتصعيد الكفاح من اجل حقوق العرب ضمن الامبراطورية . واتخذت هذه الحملة شكل التوسع لهذه الجمعيات (التي انتشرت بين الضباط العرب في الجيش وغدت موضع قلق خطير للجنة الاتحاد والترقي)[١٤] ، كما اتخذت شكل دعاية منظمة في الصحف .

وكانت المفيد ، شأنها في السنين السابقة ، من ابرز دعاة القومية العربية واكثرهم ثباتاً ، وان كانت فكرة الاستقلال العربي التام لا تبدو مستقرة الجذور في عقول العريسي ورفقائه .على انه بمرور الزمن جرى دفعهم ببطء في ذلك الاتجاه من جراء السياسة المتعنتة والشوفينية بصورة متزايدة التي انتهجها العنصر القومي التركي المهيمن في لجنة الاتحاد والترقي ، ومن جراء منطق مذهبهم المتطور .

وحينما اندلعت الحرب العالمية الاولى ، فرض على هذه الحركة الجنينية قرار لم تكن مستعدة لاتخاذه على ما هو واضح ، ولم تكن مهيأة له بعد بصورة كافية . ومن هنا فإن النداء الموجه للشريف حسين[١٥] ، والتحضير للثورة العربية، والخطوات الاخرى

(١٤) سعيد ، **الثورة العربية الكبرى** ، ص ٤٧ . والجدير بالذكر ان شقيق العريسي، عبد الحفيظ ، كان ضابطاً في الجيش العثماني وعضواً نشطاً في الجمعيات الوطنية السرية . (كما ذكرت السيدة عنبرة سلام الخالدي في المقابلة الشخصية معها في ٢٢ / ٥ / ١٩٧٩) .

(١٥) يسجل سليمان موسى ان العريسي كان احد ثلاثة من الزعماء الوطنيين العرب الذين اتخذوا قراراً نهائياً بارسال مبعوث الى الشريف حسين في الحجاز في نهاية عام ١٩١٤ ، انظر : موسى ، **الحركة العربية : مسيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة** ، ١٩٠٨ - ١٩٢٤ ، ص ١٢٧ .

المتخذة بعد بدء الحرب كانت في كل حالة من الحالات اقل مما يجب ومتأخرة اكثر مما ينبغي . فضلاً عن ذلك ، فإن الحركة كانت تواجه بشخص جمال باشا عوداً قاسياً متمرساً بالدس السياسي ، وذا هدف واضح وكذلك وسيلة تحقيقه . وهكذا وفي ٢١ آب / اغسطس ١٩١٥ و ٦ ايار / مايو ١٩١٦ تم اعدام الغالبية من زعماء الحركة القومية العربية الوليدة شنقاً في بيروت ودمشق بعد محاكمتهم من قبل المجلس العرفي او الديوان العرفي في عاليه . وكان بين المجموعة الثانية عبد الغني العريسي الذي لم يكن قد أكمل ، يوم اعدامه ، الخامسة والعشرين من عمره .

- ٣ -

من الصعب ان تقدَّر بالضبط اهمية المفيد وتأثيرها . على ان من المؤكد ان الجرائد في تلك الفترة كانت ، على صغر جمهور المتعلمين في سوريا ، ذات جمهرة من القراء اوسع بكثير من عدد النسخ المطبوعة الحقيقي ، ذلك ان كل نسخة كانت تقرأ للآخرين وتناقش في البيوت والمقاهي . بيد ان المفيد كانت حاملة لواء المظالم المحلية بصورة صريحة وهي مظالم نعرف انها كانت واسعة الانتشار في ارجاء الاقاليم السورية[١٦] ، كما كان يكتبها شبان مثقفون بطريقة من شأنها أن تجتذب العديد من الشباب الذين تعلموا حديثاً وتخرجوا من المدارس العثمانية والاجنبية والخاصة المتنامية العدد في سورية . ويصف احد المصادر كيف كان كل عدد من المفيد يقرأ بتوق من قرائها البيروتيين ، وعدد منهم يحفظ عن ظهر قلب الافتتاحيات المثيرة للعريسي وفؤاد حنتس والمتعاونين معهما[١٧] .

كانت المفيد هي لسان حال جمعية الفتاة ، الامر الذي كان يجهله اغلب قرائها[١٨] . وفي الوقت نفسه كان حقي العظم ، الذي اصبح فيما بعد سكرتيراً لحزب اللامركزية ، وهو من اكثر الصحفيين القوميين العرب انتاجاً فيما قبل ١٩١٤ ، كان يتعاون تعاوناً وثيقاً مع العريسي وحنتس ويكتب حقولاً منتظمة في جريدتهما يرسلها من

(١٦) للمزيد من التفاصيل ، انظر :

Khalidi, «Arab Nationalism in Syria: The Formative Years,» pp. 213-217.

(١٧) مقابلة مع السيدة عنبرة سلام الخالدي في ٢٢ / ٥ / ١٩٧٩ . توفي فؤاد حنتس بالتيفوئيد عام ١٩١٤ وحل مكانه الامير عارف الشهابي شريكاً للعريسي في المفيد ، مساهماً في تحرير الصحيفة بالاشتراك مع محمد محمصاني (الذي شنق بعدئذٍ جنباً الى جنب العريسي) .

(١٨) موسى ، **الحركة العربية : مسيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة** ، ١٩٠٨ - ١٩٢٤ ، ص ١٠٣ .

اسطنبول ، كما كان يفعل آخرون بارزون من الكتّاب العرب والشخصيات العامة العربية . وهكذا فإن المفيد عملت أداة للدعوة لآراء جمعيتين كانتا فيما يحتمل هما اهم الجمعيات القومية العربية .

إن جمهرة القراء لهذه الآراء والتي تصل عن طريق المفيد تمتد الى ابعد من بيروت . كانت هذه المدينة المتنامية ، والتي اصبحت في نهاية القرن التاسع عشر مركز التوزيع التجاري الرئيسي للساحل السوري ، كانت عاصمة لولاية تمتد من محاذاة يافا في فلسطين الى شمال الاذقية ، وتضم موانىء عكا وحيفا وصور وصيدا وطرابلس وطرطوس واللاذقية ، فضلاً عن الاراضي الداخلية المحيطة بها . وهكذا فإن جريدة المفيد كانت اكثر من جريدة بيروتية ، بل انها كانت تغطي عن كثب شؤوناً في الولاية بأسرها . وفي الوقت نفسه كانت تهتم بأنباء من جميع الاقاليم العربية في الامبراطورية ، فتكرس متسعاً من المجال في صفحاتها للقضايا الرئيسية كالحرب في اليمن ، والاستيطان الصهيوني في فلسطين ، والانتخابات الفرعية في دمشق سنة ١٩١١ ، وتأسيس نادي الاصلاح البصري على غرار جمعية الاصلاح التي تأسست قبل ذلك في ١٩١٣ ، والعلاقات السياسية بين مختلف حكام شبه الجزيرة العربية مثل ابن سعود وشريف مكة وابن رشيد . بالاضافة الى ذلك كان للجريدة مراسلون نظاميون في الموصل ودمشق وحيفا وحماة ونابلس ، فضلاً عن القاهرة واسطنبول . وهي تتلقى الرسائل من ارجاء الامبراطورية كلها ، وتنشر الاخبار المحلية والبيانات والاعلانات من القدس وحماة ودمشق وطرابلس بل من امكنة ابعد ، الامر الذي ينطوي على وجود قراء بعدد مهم في جميع هذه المدن[19] . واخيراً فالمفيد كانت تنشر عن السياسة العثمانية مفصلاً ، مع تغطية يومية عن اجتماعات مجلس المبعوثين في اسطنبول ، وتعيد نشر المهم من المقالات والافتتاحيات والخطب التي تظهر في الصحافة التركية والعربية معاً ، والعديد من المقالات الافتتاحية التي تعبر عن آراء حول احداث سياسية في ارجاء الامبراطورية .

وبالاضافة الى إطلاع القراء على الاحداث الجارية على الصعيد المحلي والقومي والدولي كانت المفيد تعرّفهم على كتّاب سياسيين بارزين من المثقفين العرب في زمنهم ، فضلاً عن بعض الشخصيات السياسية المرموقة في ذلك العهد . فغرست

(١٩) انظر مثلاً الاعداد التالية من المفيد : ١٤٠٢ (١٥ / ١٠ / ١٩١٣) ؛ ١٤٠٥ (١٩ / ١٠ / ١٩١٣) ؛ ١٤١٠ (٢٥ /١٠ / ١٩١٣) ؛ ١٤١٢ (٢٩ / ١٠ / ١٩١٣) ؛ ١٤٢٠ (٥ / ١١ / ١٩١٣) ؛ ١٤٢٣ (١٢ / ١١ / ١٩١٣) ؛ ١٤٢٥ (١٦ / ١١ / ١٩١٣) ، و١٤٣١ (٢٣ / ١١ / ١٩١٣) بشأن الاخبار المحلية وتقارير المراسلين .

المفيد ، عن طريق مقالات هؤلاء الرجال ، الافكار الاساسية للقومية العربية فضلاً عن عدد من موضوعات رئيسية اخرى في السياسة العربية الحديثة ، في اوساط متسعة باستمرار مع تأكيد متزايد [عليها] اعتباراً من ١٩٠٩ حتى ١٩١٥ . إن قائمة بكتاب المقالات والافتتاحيات في المفيد للسنين ١٩١١-١٩١٣ والتي تفصح اعداد الجريدة المتوافرة عنها[20] تنطق وكأنها تعداد لاسماء الزعماء والشهداء لبواكير الحركة القومية العربية . ومع ان من المستحيل تثبيت قائمة كاملة بهم حيث ان العديد من اقوى المقالات في لهجتها القومية العنيفة موقعة باسماء مستعارة، فالقائمة تضم، من بين آخرين، الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، شكري العسلي ، رفيق رزق سلّوم ، سليم الجزائري ، الشيخ رشيد رضا ، توفيق الناطور ، رضا الصلح ، محمد المحمصاني ، عارف الشهابي ، سليم عبد الهادي ، صالح حيدر ، عمر حامد ، [الاخوين] حقي ورفيق العظم ، وكل هؤلاء حكم عليهم بالاعدام من الحكومة العثمانية خلال الحرب (خمسة منهم غيابياً) .

إن جريدة المفيد ، كما يتضح من قائمة الاسماء هذه ، كانت من اهم المنابر المعبرة عن افكار القومية العربية في فترة ما قبل ١٩١٤ ؛ ثم انها كانت ذات انتشار واسع في جميع انحاء الاقاليم العربية من الامبراطورية العثمانية كما يتكشّف ذلك من دراسة محتوياتها ومدى تغطيتها للانباء . فضلاً عن ذلك فإن هذه الصحيفة البيروتية كانت تعتبر من الد الخصوم في دنيا الصحافة بسورية في نظر لجنة الاتحاد والترقي الحاكمة ، كما يتبين من الهجمات المتكررة من مراسل جريدة طنين ، لسان حال اللجنة المذكورة ، على الصحافة السورية عامة وعلى جريدة المفيد خاصة ، وكما هو واضح من المجادلات بين المفيد وبين الصحف المختلفة وغيرها من المثقفين من مناصري الاتحاد والترقي[21] . وقد بلغ هذا حداً وصفت معه « طنين » كتاب المفيد بأنهم « اقلام مأجورة » وذهبت الى حد اتهام الصحافة السورية بالخيانة . وقد فُنّدت هذه الاتهامات بجهد جهيد من كلّ من العريسي وفؤاد حنتس في ثلاث افتتاحيات

(٢٠) ان الاعداد التي غطتها هذه الدراسة من المفيد تشمل الفترة من كانون الثاني / يناير ١٩١١ الى كانون الاول / ديسمبر ١٩١٣ اي اكثر من ثلثي اعداد الجريدة المتوفرة في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت على الميكروفيلم والبالغة ١٢٠٠ عدد .

(٢١) كانت تلك المجادلات مستمرة ، لكن بعضاً من اهم المناوشات هي في الاعداد التالية من المفيد: ٦٧٥ (٢٥ / ٤ / ١٩١١) ؛ ٦٧٦ (٢٦ / ٤ / ١٩١١) ؛ ٦٧٩ (٣٠ / ٤ / ١٩١١) ؛ ٦٨٠ (١ / ٥ / ١٩١١) ؛ ٦٨٣ (٤/ ٥ / ١٩١١) ؛ ٦٩٧ (٢١ / ٥ / ١٩١١) ؛ ٧٢٨ (٢٦ / ٦ / ١٩١١) ؛ ٧٣٢ (١ / ٧ / ١٩١١) ؛ ١٤٠٩ (٢٣ / ١٠ / ١٩١٣) ، ص ٢ ؛ ١٤١٠ (٢٥ / ١٠ / ١٩١٣) ؛ ١٤١٢ (٢٧ / ١٠ / ١٩١٣) ، و ١٤٣٣ (٢٥ / ١١ / ١٩١٣) . والمقال الاخير شديد العنف على وجه الخصوص ضد جاويد بك .

نشرت على الصفحة الاولى[٢٢] ، كما كانت الاتهامات موضوع مقال في جريدة « تنظيمات » الصادرة في اسطنبول ، والذي اعيد نشره في المفيد ، دفاعاً عن شعب سوريا وصحافته بقلم شكري العسلي ، المنتخب نائباً لدمشق في الانتخابات الفرعية لسنة ١٩١١[٢٣] .

وهكذا فحين نبحث في امر جريدة المفيد فإننا لا نبحث في جريدة اقليمية صغيرة الشأن ، إنما في واحدة من اهم صحف المرحلة الناطقة بالعربية ، والتي كانت تعتبر كذلك في ذلك الحين. وقبل ان نباشر مناقشة بعض كتابات عبد الغني العريسي سنتناول ، لهذا ، بالفحص بشكل اوثق بضع موضوعات رئيسية تبرز من قراءة المفيد .

- ٤ -

إن اهم موضوع في جريدة المفيد هو بلا منازع موضوع القومية العربية ، بل إنه بمعنى من المعاني مبرر وجود الجريدة ذاته ؛ القومية العربية بأفكارها الاساسية من سياسية وثقافية ولغوية ،والتي كانت تُبدى فتعاد بقوة إما مباشرة وإمَّا بصورة غير مباشرة في كل مقال افتتاحي تقريباً . وهذا الانشغال الفائق بالقومية العربية يتضح كذلك مراراً من اختيار المقالات المعاد نشرها في صحف اخرى ، ومن المواضيع المنشورة الواردة من جميع انحاء الوطن العربي ، ومن التطورات السياسية في العاصمة التي يرد ذكرها في الصحيفة . ولعل اهم انطباعين عامين يخرج بهما قارىء جريدة المفيد هما التصميم الوطيد العزم على هذه القضية من قبل الشبان المتوقدي الحماس الذين كتبوا للمفيد (الامر الذي صار ملحوظاً على وجه الخصوص في اواخر ١٩١٣ ، بعد ان تجلت استحالة التفاهم بين العرب وبين لجنة الاتحاد والترقي) : ثم البروز الذي حققته الجريدة كمنبر لافكارهم .

ففي فترة ، يمكن اتخاذها نموذجاً ، تقل عن شهرين ، من اواسط تشرين الاول / اكتوبر الى اواسط كانون الاول / ديسمبر ١٩١٣ ، نشرت الاعداد الخمسة والثلاثون ما لا يقل عن ٢٥ افتتاحية ذات موضوعات قومية صريحة او ضمنية (صريحة في اغلبها) بعناوين من مثل « الشباب العربي وواجبه العام » ، «الهوية القومية واللغة » ، « كيفية تعزيز الهوية القومية العربية » (في قسمين) ، « الهوية القومية العربية » (في قسمين) ، « كيف ينهض العرب » ، « خلاص الامة

---

(٢٢) انظر : عبد الغني العريسي ، « لا عرب ولا ترك ، » المفيد ، العدد ٦٨٦ (٨ / ٥ / ١٩١١) ؛ فؤاد حنتس ، « المسألة السورية ، » المفيد ، العدد ٧١٥ (١٤٦ / ٥ / ١٩١١) ، وفؤاد حنتس، « الطريق الصحيح ، » المفيد ، العدد ٧١٥ (١١ / ٦ / ١٩١١) .

(٢٣) المفيد ، العدد ٦٩٤ (١٧ / ٥ / ١٩١١) .

الاسلامية يكمن في العرب ولغتهم » ، « لغة العرب » ، « مذهب العثمانية والبلدان العربية » ، « ماضي العرب ومستقبلهم » (في قسمين) ، « التضامن والاستقلال الوطني » و« النهضة العربية والاستقلال الوطني »[٢٤] .

ثمة موضوعة اخرى ، وإن كانت على العموم تأتي تابعة لموضوعة القومية العربية ، هي دور الاسلام . فإلى جانب المقالات التقليدية المنشورة بين حين وحين مثل « الحجاب في الاسلام »[٢٥] فهي موضوعة نجدها في اوسع اشكالها واكثرها استدقاقاً في الافتتاحيات التي كتبها عبد الغني العريسي نفسه وسنتناولها بالبحث المختصر ادناه . على انه يمكن ذكر عدة نقاط عامة بشأن الفكرة المتصوَّرة عن الاسلام في جريدة المفيد . فالقوميون العرب لهذا الجيل كانوا فيما يبدو على العموم قوميين سياسيين عصريين بالدرجة الاولى ، والدين إنما يلعب دوراً ثانوياً في تفكيرهم . بيد انهم مع ذلك اظهروا احتراماً للاسلام وتفهماً لاهميته كأداة لنقل رسالتهم السياسية . وكان هذا الحال خاصة على هذا المنوال بما أن لجنة الاتحاد والترقي كانت قابلة للطعن فيها بتهمة كونها مناهضة للاسلام من جراء سياساتها الرامية لاضطهاد اللغة العربية ، لغة النبي والقرآن ، ومن جراء البروز المرموق في صفوفها الاولى لغير المسلمين ، او المراكز المتقدمة لاسيما من اليهود والدونمة Donmehs(*) مثل جاويد بك والدكتور ناظم وعمانوئيل كاراسو . ثم ان كون سالونيك ، وفيها مقر لجنة الاتحاد والترقي ، مدينة أغلبيتها يهودية قبل حروب البلقان ، عزّز الانطباع عن كون اللجنة خاضعة للتأثيرات اليهودية ، وهو انطباع مبالغ فيه كثيراً والذي كان يصدقه مع ذلك العديد من العرب والدبلوماسيين الاجانب على السواء .

لذا فإن السياسات المناهضة للغة العربية المتبعة من جمعية الاتحاد والترقي قد وضعت بالطبع في الميزان إزاء الاحزاب السياسية التي تدعو لها الاحزاب العثمانية المعارضة، والتي كان القوميون العرب واغلب النواب العرب متحالفين معها ، وهي سياسة ترمي الى احياء اللغة العربية وتشجيع استعمالها ، لأسباب هي في الظاهر دينية بقدر ما هي سياسية[٢٦] . وبالاضافة لهذا التأكيد على اللغة العربية فيما يخص اهميتها الدينية ثمة

---

(٢٤) وهي في الاعداد ١٤٠٠ ـ ١٤٣٥ التي تغطي الاسابيع العشرة الاخيرة من عام ١٩١٣ .

(٢٥) وهي اولى مقالات عديدة عن الموضوع ابتداء من العدد ٦٠٠ (٢٥ / ١ / ١٩١١) .

(*) وهم من اسلم من اليهود . (المترجم)

(٢٦) وقد وعت جمعية الاتحاد والترقي في النهاية الضرر الذي تلحقه مسألة اللغة بمركزها في الاقاليم العربية ، وإن كان وعيها هذا قد جاء متأخراً بحيث لم يعد بالامكان تلافيه . انظر : افتتاحية طنين في ٢١ نيسان / ابريل ١٩١٣ في : =

موضوعة اخرى تتعلق بالاسلام وجدت طريقها على صفحات المفيد وهي التوافق التام بين شمولية الاسلام الكونية وبين القومية العربية . وقد بذل كتاب المفيد بالغ العناية لاظهار عدم وجود شيء يناقض الاسلام في القومية العربية ، بل ان « خلاص الامة الاسلامية يكمن في العرب ولغتهم »[٢٧] . كما عبّرت كلمات احدى الافتتاحيات التي ذكر عنوانها آنفاً ؛ وهذا على نقيض القوميين الاتراك خلال هذه الفترة ، والذين دأب اغلبهم على تأكيد الطبيعة الخاصة والمتفردة وغير الاسلامية او المناقضة للاسلام ولهويتهم القومية .

ومن الموضوعات الاخرى التي تتكرر في افتتاحيات المفيد ومقالاتها الكره الشديد للسيطرة الاجنبية على الاقاليم العربية والخوف من هذه السيطرة ، وكذلك العداء المستحكم للصهيونية باعتبارها حركة استعمارية يهدد نشاطها بفصل فلسطين من الامبراطورية . كلا هذين الامرين كانا من مشاغل الصحافة القومية العربية بصورة دائبة وذلك في كل انحاء سورية ، وفي القاهرة واسطنبول قبل الحرب العالمية الاولى ، وهما يمثلان القلق المتواصل في الفكر السياسي العربي على مدى السنوات السبعين الماضية .

وكان الخوف من السطوة الاجنبية على اشده لدى محرري المفيد والكتاب فيها ، وهم يعيشون كما كان شأن اغلبهم ، في بيروت تحت ظل جبل لبنان ، مركز المطامح الاقليمية الفرنسية في سورية وفي الامبراطورية العثمانية . ويشترك غالبية السكان في سورية (باستثناء عدد من Uniates)(*) بالنفور من فرنسا ومن مطامحها الاستعمارية العلنية ، وكان ذلك يكاد يضاهي انعدام حماستهم لبريطانيا ، والتي لعبت كذلك دوراً نشطاً في السياسة السورية بدوافع خفية مختلفة[٢٨] . ويشدد من هذا الموقف الاحساس بخطر التقسيم والتمزيق الذي يخيّم على الامبراطورية ، وهو خطر تجلّى بالحروب في ليبيا والبلقان . وقد أثارت الحرب في ليبيا [في ولاية طرابلس الغرب] خاصة مشاعر السكان العرب الى قمم جديدة من الشعور الوطني المعادي للاستعمار ، الامر الذي انعكس على صفحات المفيد[٢٩] .

وقد مثّل خوف القوميين العرب من الاستعمار الغربي،عامل تقييد دائم ، نوعاً

Feroz Ahmad, *The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908-1914* (Oxford: Oxford University Press, 1969), p. 136. =

(٢٧) المفيد ، العددان ١٤٠٩ ، ١٤١٢ (٢٣ ، ٢٧ / ١٠ / ١٩١٣) .

(*) وهم مسيحيون من الطائفية الارثوذكسية ولكنهم يقرون بسلطة البابا . (المترجم)

(٢٨) للتفصيل حول النشاط البريطاني في سورية في هذه الفترة ، انظر :
Khalidi, *British Policy towards Syria and Palestine, 1906-1914...*, chap. 5.

(٢٩) انظر مثلاً افتتاحية : عبد الغني العريسي ، « الموت الشريف ، » المفيد، العدد ٧٩٥ (١ / ١٠ / ١٩١١) التي نشرت بتاريخ اندلاع الحرب والتي سيتناولها البحث لاحقاً .

من الكابح في تباعدهم البطيء ، ولكنه دائب ، من الحكومة المركزية العثمانية ولجنة الاتحاد والترقي بأغلبيتها التركية والتي سيطرت عليها لمدة تقارب المرحلة الدستورية بأسرها . ولم يكن التذبذب الظاهر بشأن الاتراك والامبراطورية العثمانية نفسها من ١٩٠٩ / ١٩١٠ حتى الانشقاق العنيف الذي احدثته الحرب وإعدامات ١٩١٥ / ١٩١٦ مجرد محاولة مراوغة من القوميين العرب لاخفاء مشاعرهم الحقيقية الى ان يحين الوقت الملائم للعمل ، وان كان هذا الاعتبار غير بعيد بالتأكيد عن حسابات البعض منهم . فلقد كان ماثلاً في اذهان الاغلبية خوف حقيقي من البديل - الا وهو السيطرة الاوروبية - وذلك جنباً الى جنب مع العداء الشديد للجنة الاتحاد والترقي والسطوة التركية التي تمثلها ، ذلك الخوف الذي تشهد كتاباتهم على ان العديد منهم كان يعتبره اسوأ الشرين[٣٠] . ويبدو ان أغلب القوميين قد حسموا هذا المأزق الذي كان عسير الحل ، وذلك في اواخر ١٩١٣ و١٩١٤ ، على اثر عودة جمعية الاتحاد والترقي الى الحكم وبعد أن أثارت تكتيكاتهم المخادعة في المفاوضات حول مطالب العرب بالاصلاحات المحلية اشمئزازاً واسع النطاق . كان قرارهم هو العمل من اجل الحكم الذاتي العربي ضمن الامبراطورية إن أمكن ، والا فخارجها اذا اقتضت الضرورة ؛ وبدون تدخل خارجي إن أمكن ، وإلا فمعه اذا اقتضت الضرورة .

بيد ان اندلاع الحرب العالمية الاولى قد أدخل عوامل جديدة من حجم قزّم منظمات القوميين وتجاوز خططهم ، فوقفت تلك العوامل في الوقت نفسه في وجه المجرى الطبيعي للتطورات في الاقاليم العربية من الامبراطورية . وقد أجبرتهم الحرب في النهاية على الاختيار بين المتزعمين القويين اللذين كان مصير العرب يتقرر فيما بينهما ، وهما الدولة العثمانية والقوى الغربية التوسعية التي امست وريثتها . وفي حالة كهذه لا يمكن أن يكون اي خيار هو الخيار الصحيح ، وإن كان عدد من الذين اختاروا اخيراً استقلال العرب تحت زعامة الهاشميين وبالتحالف مع بريطانيا قد مات على اعواد المشانق في بيروت ودمشق دون أن يدركوا مدى القسوة الساخرة التي ستكون عليها نتائج اختيارهم .

ولم يكن هناك مثل هذا التذبذب بشأن الصهيونية في صفوف الحركة القومية العربية ، وفي غالبية الاوساط وخارجها ، فالتنبؤات والتحذيرات بشأن الصهيونية قد تحققت وبدرجة اشد تشاؤماً قطعاً من تحقق ما قيل منها عن مخاطر الحكم

---

(٣٠) انظر على سبيل المثال : رشيد رضا ، « المسألة الشرقية ، » المفيد ، العدد ٨٤١ (٢٣ / ١١ / ١٩١١) ؛ فؤاد حنتس ، « المسألة السورية ، » المفيد ، العدد ٦٩١ (١٤ / ٥ / ١٩١١) ، ومقالات العريسي التي سترد في القسم الخامس من هذا البحث .

الاجنبي . ولقد أبان نفيل ماندل Neville Mandel في كتابه الموسوم « العرب والصهيونية قبل الحرب العالمية الاولى » ان عرب فلسطين والشخصيات السياسية العربية البارزة وغيرها من الصحفيين والمثقفين في بيروت والقاهرة ودمشق ومدن اخرى ، قد عارضوا الصهيونية بشدة وذلك في مرحلة اسبق بكثير مما كان يعتقد سابقاً[٣١] . وقد بحث ماندل بتوسع دور الصحافة العربية في هذه المعارضة للصهيونية، وإن كانت مصادره في الاساس هي عبارة عن الارشيفات الصهيونية والصحافة العبرية في فلسطين في تلك الفترة ، وأخفق في استخدام اي من الجرائد السورية واللبنانية والمصرية الصادرة بالعربية ، او من الصحف الفلسطينية اللهم الا صحيفة فلسطين[٣٢] . مع ذلك ، تبدو استنتاجات ماندل بشأن الصحافة العربية (والتي توصل اليها بالدرجة الاولى اعتماداً على تقارير صحفية صهيونية تبدو صحيحة على العموم ، وعلى قدر محدود من المادة الصحفية العربية) استنتاجات لها ما يبررها عموماً[٣٣] . بل ان الاهتمام الفائق المكرس لمسألة الصهيونية في المفيد ، وفي غيرها من عدد آخر من صحف بيروت ودمشق والقاهرة ، يؤيد كل التأييد استنتاج ماندل الرئيسي .

وكما ذكر آنفاً ، كانت ولاية بيروت تضم قسماً واسعاً من شمال فلسطين ، وكانت سناجقها في الجنوب الاقصى هي مواقع لأكثر من ثلاثين مستعمرة من حوالى خمسين مستعمرة صهيونية تأسست في البلاد منذ اوائل الثمانينات في القرن الماضي[٣٤] . هذا فضلاً عن ان المفيد ، كما رأينا ، كرست اهتماماً واسعاً لشؤون السناجق النائية في الولاية وفي الاقاليم المجاورة كما يليق بجريدة كانت لسان الحال غير الرسمي لجمعية سرية تنادي بالوحدة العربية ، مثل جمعية الفتاة . ولم يكن هناك ما يستغرب في جريدة يديرها شبان عرب وطنيون ومثاليون يستنكرون طرد الفلاحين العرب وتجريدهم من اراضيهم ، كما يستنكرون شراء الاجانب المتواصل للاراضي العربية ، والتدفق المستمر للمهاجرين الغرباء ، والمطامح السياسية **الدفينة** للحركة الصهيونية .

---

(٣١) Neville J. Mandel, *The Arabs and Zionism before World War I* (Berkeley, Calif.: University of California Press, 1976).

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ - ١٣٣ ، التي يدعيها الكاتب تفحصاً « في العمق » لموقف الصحافة العربية من الصهيونية ، في حين انها تعتمد كلياً على خلاصات الصحافة الصهيونية (وهي اما تلك المرسلة من فلسطين الى المكاتب الصهيونية في اوروبا ، والمحفوظة الآن في الارشيف الصهيوني المركزي ، او تلك المنشورة في الصحف العبرية مثل **هاحيروت**) . الاستثناء الوحيد الذي يستخدمه ماندل هو صحيفة **فلسطين** بالنسبة للصحافة العربية السورية .

(٣٣) اقل ما تستوجبه قراءة خاطفة **للمفيد** ، هو اجراء تعديلات على استنتاجات ماندل بشأن مواقف محرري الصحف المسيحية والاسلامية كما وردت في : المصدر نفسه، ص ٣٠ - ٣٣ في ضوء دراسة الصحف نفسها .

(٣٤) الخارطة في : المصدر نفسه ، ص xv .

على انه من المستحيل أن نفهم ، حتى بعد ان قلنا كل هذا ، شدة الاهتمام الذي اظهرته المفيد بالقضية الصهيونية ومواصلة هذا الاهتمام بها (فقد نشرت **٥٣** مقالة عن بعض جوانب الصهيونية ، **٢٤** منها على الصفحة الاولى او افتتاحيات ، في اقل من ثمانية اشهر من كانون الثاني / يناير الى ايلول / سبتمبر **١٩١١** ، وظهر خلال الفترة نفسها **١٨٥** عدداً من الجريدة)[٣٥] دون ان نأخذ بالحسبان العلاقة الوثيقة بين مناهضة الصهيونية وبين القومية العربية والتي كانت ولا تزال ، مظهراً ثابتاً في السياسة العربية .

لم تكن الحركة الصهيونية بالنسبة لكتاب المفيد مجرد مشروع إنساني لرفع الاضطهاد الذي يعانيه اليهود في ارجاء العالم . وكما افاد نجيب نصار ، المحرر المتطرف المناهض للصهيونية لجريدة الكرمل الصادرة في حيفا ، في احدى افتتاحياته المعاد نشرها في المفيد ، فإن العمل الانساني الحق لانقاذ اليهود المضطهدين لن يضر احداً[٣٦] . كما لم يكن هناك معارضة للصهيونية على اساس كره اليهود باعتبارهم يهوداً ، كما تبرهن على ذلك وصية العريسي (وبعض مقاطع منها مذكورة في القسم ٧ ادناه) المنشورة سنة وفاته والتي يدعو فيها الى الوحدة بين العرب من جميع الاديان فيذكر على وجه التعيين المسيحيين والمسلمين واليهود[٣٧] . والذي اقلق العريسي ومعاصريه القوميين واغضبهم هو شبح المستعمرين الغرباء من غير ذوي الولاء للامبراطورية العثمانية والذين لا تربطهم رابطة بالسكان المحليين ، والمتمتعين بالدعم المالي الخارجي القوي والاسناد الدبلوماسي ، والذين تتنامى قوتهم بالتدريج حتى يبلغوا فيها درجة قد يتمكنون معها من فصل فلسطين عن الاراضي العربية الاخرى .

ولم يكن هذا الخوف وهمياً ، ولكنه قائم على إدراك مطّلع للتيارات في الحركة الصهيونية العالمية ، ناشىء عن النشر المنتظم لافكار دعاة الصهيونية ومفكريها في المفيد

---

(٣٥) يبدو ان هذا كان نموذجياً على الرغم من وجود خلافين رئيسين في الصحافة العربية حول الصهيونية في تلك الفترة .

(٣٦) « الجمعية الصهيونية في فلسطين ، » **المفيد** ، العدد ٦٠٨ (٥ / ٢ / ١٩١١) . وقد نشر هذا المقال أساساً في : **الكرمل** ، العدد ١١٨ (٢٠ / ١ / ١٩١١) تحت عنوان « اليهود في فلسطين والجمعية الصهيونية » واعيد نشره في : **الاتحاد العثماني** ، العدد ٧٢٤ (٦ / ٢ / ١٩١١) . وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه **المفيد** تعيد نشر هذا المقال نشرت **الكرمل** افتتاحية **المفيد** عن الصهيونية في العدد ١٢٢ (٧ / ٢ / ١٩١١) تحت عنوان « مشروع اصفر واليهود » التي كانت قد نشرت في: **المفيد**، العدد ٦٠٣ (٢٩ / ١ / ١٩١١) .

(٣٧) هذه الوثيقة التي لا يرقى الشك الى صحتها نشرت في : [داغر] ، **ثورة العرب : مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها** ، الذي نشر غفلاً من اسم المؤلف (مقتصراً في تعريفه على انه احد اعضاء الجمعيات العربية فقط) في ١٩ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٦ .

وغيرها من الجرائد الصادرة بالعربية . ولذا فإن أغلب العرب لم يصدقوا ما كان يقال لهم ، واحياناً بإخلاص ، من قبل اليهود العثمانيين والاجانب بأن الحركة الصهيونية ليست بالاساس سياسية وإنما ثقافية ، وليس لها مطامح إقليمية في فلسطين . وكان قراء المفيد وكثير غيرها من الصحف المناهضة للصهيونية في سورية ومصر يدركون الاهداف الاساسية للحركة الصهيونية ، ويعلمون بكتابات هرتزل ونوردو Nordau ، ويعلمون ان عنوان الكتاب المشهور لهرتزل هو « الدولة اليهودية » Der Judenstaat ، ومطلعون على قرارات مؤتمر بال للحركة الصهيونية في ١٨٩٧ وللذين يعتنقونها . وفي فلسطين أينما يولّي الناس وجوههم فثمة برهان أكيد ان هذه الحركة هي حركة سياسية جادة وعازمة وأنها تعني تطبيق ما يقوله زعماؤ ها .

وكانت معارضة القوميين العرب للصهيونية تقوم بالاضافة الى ذلك على سخط العرب من اخفاق الحكومة التي تسيطر عليها جمعية الاتحاد والترقي في ان تأخذ مأخذ الجد ما كان يعتبره الفلسطينيون وابناء جلدتهم من العرب كأنّه تهديد جسيم . فالحركة الصهيونية ، بالنسبة لساسة الامبراطورية وهم في منأى باسطنبول وتثقل كاهلهم مخاطر وشيكة الحلول في عقر دارهم ، لم تبد مشكلة آنية ، كما ان المحاولات العربية لإثارة القضية في البرلمان كان يجري تجاهلها على العموم من قبل الحكومة[٣٨] ، كما يجري تجاهل الحملات القاسية ضد الصهيونية في الصحافة العربية . وهكذا غدت القضية الصهيونية مناسبة اخرى إضافية يجد فيها القوميون العرب إخفاقاً يظهره الحزب الحاكم في تلبية ما يتظلم منه العرب او تحقيق مطالبهم ، كما اتخذت القضية وكأنها سوط لجلد جمعية الاتحاد والترقي التي كان من السهل تصويرها « كمؤيدة للصهيونية » او « واقعة تحت نفوذ الصهيونية » . ومع ان القضية الصهيونية استُغلت ، لهذا ، ضد الحكومة على نحو وطني ، لكن ذلك لم يكن حالة من حالات الانتهازية السياسية كما يوحي ماندل مثلاً ضمناً[٣٩] . ولم يكن هناك بالنسبة للذين كتبوا في المفيد ادراك تام فحسب للخطر الحقيقي الذي تضعه الصهيونية امام الوطن العربي عامة وفلسطين خاصة ؛ بل كذلك فهم للتفاصيل الخاصة ذات العلاقة ، الى درجة اننا نجد على صفحات المفيد عرضاً مسبقاً لجميع الحجج الفلسطينية الاساسية تقريباً ضد الصهيونية والتي استعملت خلال الانتداب وبعده : فالصهيونية هي أساساً استعمارية بطبيعتها ؛ وهي ابعد من

(٣٨) يصف ماندل الاستماع الى ثلاثة خطب برلمانية تعارض الصهيونية القاها نواب عرب في ايار / مايو ١٩١١ بأنه جرى « وسط لا مبالاة عامة » ، انظر :
Mandel, *The Arabs and Zionism before World War I*, p. 116.

(٣٩) « لم يهتم عديد من المعارضين العرب لجمعية الاتحاد والترقي بصحة هذا الزعم بالذات [بشأن الصهيونية] او عدمه ، اذ كانت لهم مصلحة سياسية في ترويجه » ، المصدر نفسه ، ص ١١٦ .

أن تكون نافعة للسكان المحليين بل ضارة بهم بشكل فاحش ؛ وهي لا يمكن أن تنجح الا بدعم اجنبي ، وتنطوي على وجود اجنبي دائم وتدخل خارجي مستمر ؛ وهي اذا نجحت فستزرع كياناً اجنبياً في قلب الوطن العربي . . . الخ[٤٠] .

ومع ان القومية العربية ، ودور الاسلام ، ومشاكل المخططات الاوروبية والصهيونية في الوطن العربي ، هي بلا ريب الموضوعات الرئيسية التي تبرز من دراسة المفيد ، وهي موضوعات نموذجية لما تنشره الصحافة القومية العربية عامة ، فإن عدداً من الموضوعات الاخرى جدير بالاهتمام كذلك ؛ وهي دور المسيحيين في الحركة القومية العربية ، والمسألة الاجتماعية ، والدعوة للمفاهيم السياسية الغربية الحديثة . وافضل ما تعالج فيه كل هذه الموضوعات هو ضمن عرض قصير للكتابات الصحفية لعبد الغني العريسي ، وهو ما سنتناوله الآن .

- ٥ -

إن افتتاحيات عبد الغني العريسي تبرز ، حتى إزاء المقالات الافتتاحية الاخرى في المفيد والتي تكوّن بعض الكتابات السياسية الممتازة جداً ، التي انتجتها الحركة القومية العربية بأسرها خلال حقبة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، تبرز افتتاحياته من جرّاء ما فيها من قوة ووضوح في التعبير، وما تقدمه من حجج منظمة ومنطقية . وما ينتظمها جميعاً كالخيط الساري في طياتها هو إخلاص الكاتب الشديد لفكرة امة عربية [واحدة] والتزامه بعملية تحديد وتحقيق اهدافها .

وعلى الرغم من هذه القناعات الصريحة المتطرفة فإن العريسي واغلب اخوانه القوميين ما كانوا يريدون فيما يبدو التخلي عن كل الروابط مع الاتراك ومع الامبراطورية العثمانية؛ وبالتأكيد لم يكن ذلك كذلك قبل اواخر ١٩١٣[٤١] . وقد بذل العريسي جهداً جهيداً في احدى افتتاحياته المكتوبة سنة ١٩١١ لتوكيد هذه النقطة ، مركزاً على ان روابط عديدة تربط بين الشعبين العربي والتركي ، واهمها روابط الدين والوطنية . وأردف يدافع عن نفسه ضد تهمة بذر الشقاق بين الشعبين

(٤٠) من ابرز المقالات في هذا الشأن : « الجمعية الصهيونية في فلسطين ،» و« مشروع اصفر واليهود ،» . انظر كذلك من جملة الاعداد : المفيد ، الاعداد ٧٠٤ (٢٩ / ٥ / ١٩١١) ، ص ٣ ؛ ٧٢٠ (١٧ / ٦ / ١٩١١) ، ص ٣ ؛ ٧٢٢ (١٩ / ٦ / ١٩١١) ؛ ١٤٢١ (٦ / ١١ / ١٩١٣) ، ص ٢ ، و١٤٢٥ (١٦ / ١١ / ١٩١٣) ، ص ٢ .

(٤١) يبدو ان القوميين العرب ظلوا على رفضهم لاغلاق الباب دون امكانية الاصلاح والاعتراف بحقوقهم القومية المشروعة ضمن الامبراطورية ، لحين فشل المفاوضات مع جمعية الاتحاد والترقي بعد مؤتمر باريس عام ١٩١٣ .

فكتب يقول : « إنه لمن الكذب القول بوجود سوء تفاهم بين العرب والاتراك : الذي يوجد هو نقاش عائلي عن بعض الروابط القومية التي تجمعهم »[٤٢] . وقال ان النزاع مع لجنة الاتحاد والترقي ولسان حالها ، طنين ، ليس نزاعاً مع الاتراك ، ذلك ان عدداً منهم يعارض كذلك طنين ؛ إنه بالاحرى جزء من حوار يهدف الى اصلاح الامبراطورية وبالتالي تقويتها ، وذلك بتلبية مطالب العرب الاساسية كالتعليم بالعربية وتعيين الموظفين المحليين ممن يحسنون اللغة المحلية ، وإنفاق الموارد التي تجبى محلياً على الاشغال العامة . وهذه المطالب ذاتها ، والتي كانت في صميم القلاقل المتنامية في الاقاليم العربية ابتداء من صدور اجراءات إعادة التنظيم الاداري في ١٩٠٩ - ١٩١٠ من قبل حكومة الاتحاد والترقي ، كان قد دأب على تكرارها العريسي وجميع الناطقين الآخرين باسم العرب تقريباً سواء كانوا من القوميين او من الاصلاحيين المخلصين لمذهب العثمانية .

ويمتزج بمثل هذه النداءات المباشرة من اجل التفاهم العربي - التركي على اساس القبول بالمطالب العربية الخاصة باحترام لغتهم وغيرها من الحقوق ضمن الامبراطورية ، يمتزج بها التوكيد على الاسلام باعتباره ديناً أنزل بالعربية الى العرب ، والتوكيد في الوقت ذاته على اهميته كرباط بين العرب والاتراك . وقد اكد العريسي ، في مقالة قوية كتبت في آذار / مارس ١٩١١ بمناسبة يوم ميلاد الرسول، على الموضوع الاول بطريقة تجلّى فيها الاستعمال البالغ الدهاء لِفكَر دينية ، وللآيات القرآنية والاحاديث النبوية وذلك للافصاح عن رسالة قومية في جوهرها وليست دينية . فقد بدأ العريسي يقول ان محمداً هو رجل كسائر الرجال ، وانه داعية تقدمي لحرية الفكر التامة وللاخوّة ، وأنه نبيّ الامم جمعاء والعرب خاصة والذين كان انتسابه لامتهم شرفاً عظيماً لها[٤٣] .

وتمضي الافتتاحية لتوحي ضمناً ان المحاولات لقمع اللغة العربية إنما هي جهود « لاطفاء نور الله » . وتستمر الانتقادات غير المباشرة ، وإن كانت واضحة ، لجمعية الاتحاد والترقي مع التفجّع على قوم النبيّ ، العرب ، انهم تفرقوا فاغتصب حزب واحد السلطة . وقد ظل العرب بوجه هذا الاضطهاد صامتين ، فيحاسبهم العريسي على ذلك فيجعل كلماته تجري على لسان محمد : « من يتطاول على حقوقكم فعاملوه بالمثل . . . إنهم يضربونكم في عقر داركم فلا تغضبون ، ويزدرونكم فلا تردون ، كالحمير المستأجرة

(٤٢) العريسي ، « لا عرب ولا ترك ، » .

(٤٣) عبد الغني العريسي ، « مولد نبينا عليه الصلاة والسلام ،» المفيد ، العدد ٦٣٨ (١٢ /٢ / ١٩١١) .

التي تموت من اجل ربح الآخرين . . . » ويخلص العريسي في النهاية الى حديث للرسول : « إن العرب هم اشرف الامم ، فالذي يهينهم او يؤذيهم يهينني او يؤذيني ، فالله قد بعثني نبياً من بينهم . . . الويل لمن يمس لغتي او شريعتي بسوء »[٤٤] .

وتجري موازنة هذا الاستعمال ، الذي يكاد يكون شوفينياً ، للاسلام كأداة في خدمة الشعور القومي العربي ، باستعمال رهيف الدقة لمزيج من الموضوعات الاسلامية والقومية وغير الطائفية وذلك في افتتاحية اخرى كتبت بعد بضعة اشهر فقط وهي معنونة : « الله اكبر » مع عناوين ثانوية هي : « قوة الخلافة الاسلامية - توافق الدين والوطن - حج صاحب الجلالة السلطان »[٤٥] . وتبدأ هذه الافتتاحية بتوكيد اهمية الاسلام وفكرة الخلافة لوحدة الامبراطورية العثمانية ، كجزء من استهلال يخاطب الشعور الاسلامي بقوة . على ان هذا يعقبه اعتراف بارز يوضح الفقرات السابقة : « إن قومنا لا يشعرون بالاشياء الا بصددها الديني ، ولذا يجب علينا استخدام شعائر الدين واعظمها الخلافة » . ولعل الجملة التي تلي ذلك مباشرة اشد وقعاً : « بيد ان الدين لا ينفي الوطن، فالاسلام دين وقومية . . . كلا ، إن الدين الاسلامي لا ينكر الوطنية ، بل انه يحترم اخوّة المواطنين من غير المسلمين باعتباره ضمانة لمساواتهم وقيّما على حريتهم . إن لنا ما لهم وعلينا ما عليهم »[٤٦] .

وما حاول العريسي ان يؤكده في هذه المقالة الواحدة ينحصر في ثلاثة اشياء : اولاً ، الروابط الدينية بين العرب المسلمين والاتراك ، واهمية الدين ؛ ثانياً ، اتفاق الاسلام والقومية العربية ؛ ثالثاً ، وحدة المسلمين وغير المسلمين على اساس وطني برغم الفوارق في دياناتهم . وقد جرى تكرار هذه الافكار بصراحة اوضح في افتتاحية اخرى بعنوان « لا عرب ولا ترك » ، وفيها انبرى العريسي يرد على انتقادات جريدة طنين والجرائد المحلية (وعدد منها يحرره مسيحيون) الموجهة الى الخط الذي تتبعه المفيد وسائر الصحافة القومية العربية[٤٧] . والفقرة ذات العلاقة تنص :

« لئن كانت طنين تمثل صاحبها فقط وليس العنصر التركي ، فكذلك الصحف الاخرى تمثل اصحابها فقط وليس آراء طوائفهم . ومهما اختلفت الجرائد فيجب الا تسند هذه الخلافات الى الطوائف التي ينتمون اليها . إن نصارى هذه البلاد تربطهم بالمسلمين روابط الجنس واللغة والوطنية ، تماماً كما يرتبط المسلمون بالاتراك بروابط الدين والوطنية ؛ وكما يرتبط العربي النصراني بالتركي بروابط

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) يأتي ذكر السلطان ضمن اقتراح العريسي ان يؤدي السلطان العثماني فريضة الحج لتقوية الروابط الدينية بين العرب والاتراك ضمن الامبراطورية ، انظر : المفيد ، العدد ٧٢٣ (٢٠ / ٦ / ١٩١١) .

(٤٦) المصدر نفسه .

(٤٧) العريسي ، « لا عرب ولا ترك، » .

الوطنية . . . ومهما حاول ذوو المطامع السياسية ان يقطعوا تلك الروابط، وحاولوا بأشد ما يستطيعون ، فلا مناص من خيبتهم . ومهما نفثوا من سموم اجنبية كثيرة فلن تمس سواهم . فالنصارى ارفع من ان تؤثر فيهم تلكم السموم ، والمسلمون اكثر حكمة من ان يأخذوا بعض الصحف وكأنها تمثل النصارى . والطائفتان هما من الاشقاء ، وكذلك شأن الاتراك والعرب ـ لذلك فلا عرب ولا ترك ؛ لا مسلمون ولا نصارى : إننا ، بدلاً من ذلك ، وطنيون عثمانيون اجمعين »(٤٨) .

وقد افصح العريسي عن احتراس وعداء شديدين بشأن ذوي « المطامع السياسية » الذين يمونون سورية « بسمومهم الاجنبية » ، الا وهم القوى الاوروبية التي كانت تقترب من تقسيم الامبراطورية [العثمانية] . إن هذا الموقف يتماشى في تفكيره ، على نحو متناقض في الظاهر ، مع احترامه العميق للمفاهيم السياسية الغربية وتقديره لها والتي لعبت دوراً رئيسياً في تحديد نمط فكره . كتب العريسي غداة الاحتلال الايطالي لطرابلس في ١٩١١ نداء مثيراً بحمل السلاح عنوانه « موت مشرّف » ، دان بمرارة ليس فقط الاستعمار الايطالي بل الاستعماريين البريطاني والفرنسي كذلك : وفيه وصف بشكل مرير التبرير الايطالي لغزو ليبيا ([وهو] « واجب ايطاليا الانساني ») بأنه « إنسانية الظالم . . . إنهم يريدون لهم [اي سكان طرابلس] ان يعيشوا كما يعيش الجزائريون في ظل (الانسانية) الفرنسية ؛ وهم يريدون ان يقتلوا ، باسم (الانسانية) عشرة منا جرّاء موت واحد منهم ، كما يقتل المصريون في ظل (الانسانية) الانكليزية »(٤٩) .

وحذّر العريسي ، وهو يطالب بمقاومة عنيفة للايطاليين ، بأن « احتلال طرابلس هو استهلال لاحتلال مناطق اخرى » . واكد ان الخطر يبلغ من الجسامة بحيث يجب على العرب نسيان خلافاتهم مع الاتراك « إخواننا في الوطنية » لكي يشتركوا في الدفاع عن ليبيا : « إن الامة العثمانية بأسرها مستعدة للتضحية بنفسها من اجل اي شبر من تربتها » . فالوطنية تأتي ، في وجه العدو الخارجي ، قبل اي شيء آخر كما هو واضح ، ذلك ان وجود واستقلال الامبراطورية وشعبها هما بالذات في كف القدر .

وقد أمست سورية ، بعد خسارة ليبيا ونشوب حروب البلقان ، مركزاً لمطامع الدول ، مما جعل رئيس وزراء فرنسا ريموند بوانكاريه يدلي ببيان في مجلس الشيوخ الفرنسي كرر فيه التأكيدات الصادرة عن وزير الخارجية البريطاني ومفادها ان بريطانيا « ليس لها نوايا او مطامع » بشأن [تلك] البلاد(٥٠) . وفي مقالة افتتاحية طويلة كتبها

(٤٨) المصدر نفسه .
(٤٩) المفيد، العدد ٧٩٥ (١ / ١٠ / ١٩١١) .
(٥٠) بحث خالدي هذه الواقعة بتوسع في الفصل الخامس من :
Khalidi, *British Policy towards Syria and Palestine, 1906-1914*....

العريسي من باريس في اوائل ١٩١٣ حلل فيها بتبصر حالة الامبراطورية عقب نشوب حروب البلقان، ناقلاً نص تصريح بوانكاريه بالكامل . فأكد ان تبرؤ كل من بريطانيا وفرنسا من المطامع الاستعمارية ينبغي الا يصدق ، وان كان سيسرّه لو تخلت بريطانيا عن مطامعها ، مهما كانت هذه الامكانية غير محتملة . ومضى يقول ان الحالة مفعمة بالخطر ، وإنه « من الضروري للحكومة ان تكسب ثقة الناس وتستجيب لمطالبهم في الاصلاح »(٥١) . إن هذا فقط ، والاستجابة التامة لمطالب القوميات في الامبراطورية « سيغلق باب التدخل في وجه اي بلد ، سواء كان بريطانيا او فرنسا ، حيث ان الامتيازات الاجنبية ، غفر الله لمن يسمح بها ، تكوّن باباً مشرعاً لا يمكن غلقه الا بتطمين حاجات الناس » . وختم كلامه يقول: « إن الوطنية وحب البلاد يتطلبان ان يسارع زعماء الامبراطورية العثمانية الى تنفيذ الاصلاح العام كعائق امام مطامع الدول » .

ثمة عامل لم نشر اليه الا بصورة عابرة هو التطور في فكر عبد الغني العريسي كما انعكس في كتاباته . وابرز ما يكون ذلك في المقالات التي كتبها بعد عودته من باريس ، وان كان ما نجده فيها يكاد يكون على الدوام كتوسيع لموضوعات سابقة تبرز بشكل اكثر تعقيداً واقرب الى التمام . والملحوظ في هذا الصدد هو التشخيص الادق لقومية العريسي بمنطويات المفاهيم السياسية الحديثة ، والتوسع في اهتماماته لتشمل مسائل من مثل الديمقراطية . وتمثل افتتاحية كتبت في نهاية ١٩١٣ بعنوان « تطور الامم في السلطة والحقوق » خير تمثيل هذه المرحلة المتأخرة من فكر العريسي(٥٢) . وهي تحوي كذلك حجة مبتكرة دفاعاً عن حقوق العرب القومية والتيلاتتطرق قط للموضوع بصورة مباشرة .

تبدأ المقالة بسرد بارع وحسن الاطلاع لنشوء الديمقراطية التاريخي ـ حكم الاغلبية ـ من الحكم الفردي وحكم الارستقراطية ، وعلى نحو من التحليل يعكس بوضوح الاجماع السائد لدى مفكري العصر الاوروبيين السياسيين .ثم يوضح الكاتب كيف سقط العرب ، وقد كانوا في الاصل ديمقراطيين ويحترمون حقوق الفرد، في براثن حكومة الفرد الواحد على النمط اليوناني ـ الروماني . بيد ان التطور التاريخي للدولة في

(٥١) عبد الغني العريسي ، « الموقف في البلقان وفي غيره من البلاد العثمانية ،» المفيد ، العدد ١١٧٠ (٧ / ١ / ١٩١٣) . كان الاصلاح ، كما رأينا ، المطلب العربي الرئيسي في هذه المرحلة . وقد نشطت جمعية بيروت للاصلاح ، التي كانت رائدة المطالب العربية الاصلاحية ، في عام ١٩١٢ ـ ١٩١٣ عندما كان العريسي في باريس. وقد تناول ذلك فواز سعدون بشيء من التفصيل ، معتمداً على مصادر اولية في : فواز سعدون ، « الحركة الاصلاحية في بيروت في آخر العصر العثماني ،» (رسالة ماجستير، كلية التربية ، الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٧) .
(٥٢) المفيد ، العدد ١٤٣١ (٢٣ / ١١ / ١٩١٣) .

الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والمانيا يوضح ان الاعداد ستكون حاسمة مع الزمن ، وان الحكومة لا بد لها ، عاجلاً او آجلاً من أن تنزل عند ارادة الاغلبية . ومع ان الحكومة العثمانية قد **تخلفت الى الوراء** لحين اعلان الدستور ، والذي يصفه العريسي بأنه ارستقراطي في جوهره ، فإن الوقت الآن قد حان لتغيير العقلية القديمة : « إن من واجبنا إزاحة تلك [النظرة] القائمة على الفلسفة السياسية اليونانية القديمة وقبول الفلسفة السياسية الجديدة القائمة على الديمقراطية والموضوعية » . وتختتم الافتتاحية بهذه الفقرة :

« كان تطبيق الاصلاحات في السابق يتم نتيجة لجهود اوروبا ؛ اما الآن فهي نتيجة لشعب مفكر يصوغ الاصلاحات بيديه ، وهو حدث يقف بين اعظم الاحداث في التاريخ العثماني بأسره . . . إن حكم العدد الاكبر قد بدأ مفعوله بالظهور ، وعلى عقلاء الامة إسناد هذا الحكم حتى تصبح الدولة ديمقراطية وتعمل لصالح جميع الناس ، لا لصالح رجل واحد ، ولا لصالح عدد صغير من البشر » .

وربما لم يكن لتفاؤل العريسي اساس ، فبعد ٦٥ سنة لم يبلغ الوطن العربي الدولة الفاضلة الهانئة التي تطلع اليها . ثمة مغزى ضمني مهم لحكم الاغلبية الذي دعا اليه العريسي قد ظل بالمناسبة دون ان يتطرق اليه الكلام ، ذلك ان القراء لا يغيب عنهم ملاحظة التأكيدات المتكررة من قبل الكتاب في المفيد على مدى السنين العديدة السابقة بأن العرب يؤلفون اغلبية داخل الامبراطورية .

وفي ختام هذا العرض السريع للافكار الاساسية في كتابة عبد الغني العريسي سيكون من المناسب اقتباس فقرتين اخريين : تعريفه لما معنى ان تكون عربياً ، والذي يبدو انه سبق عدداً من التعريفات المشابهة اللاحقة ؛ ومقطع من وصيته التي كتبت فيما يظهر في اواخر ١٩١٥ ونشرت في القاهرة في كانون الاول / ديسمبر ١٩١٦ بعد سبعة اشهر من وفاته .

الاقتباس الاول يرد ضمن افتتاحية في كانون الاول / ديسمبر ١٩١٣ بعنوان « الشباب العربي : واجبه العام » والتي تؤكد ان « الحياة هي ملحمة حقوق بين الشعب والحكومة » تعتمد نتيجتها على جهود الشباب العربي إن كان يراد للملحمة ان تنتهي « بإحقاق العدل لكلا الطرفين ، وبالاخوة كملحمة للشرف والكبرياء » ، لا ان تنتهي « بالظلم والكراهية والمأساة»[٥٣] . والافتتاحية تبدأ بتعريف القومية العربية : « ونقصد بالعربي كل من

(٥٣) **المفيد** ، العدد ١٤٣٥ (١٥ / ١٢ / ١٩١٣) . والظاهر ان هذا المقال ادى الى غلق **المفيد** من قبل السلطات . والصحيفة ، بعد امر سابق بالغلق ، عادت الى الظهور في ١٥ كانون الاول / ديسمبر عام ١٩١٣ تحت اسم « فتى العرب » . والاسماء الاخرى التي ظهرت تحتها الصحيفة نتيجة قرارات سابقة بالغلق من قبل الرقيب العثماني هي : «صدى المفيد»في ايار / مايو ١٩١٢ ، « لسان العرب » في ايلول / سبتمبر ١٩١٣ و« الفتى العربي » في منتصف عام ١٩١٣ .

يرتبط بهذه الامة بوحدة اللغة وروابط القرابة ونزعة العرب » . وهذا التعريف الحديث بشكل بارز ، والذي يعارض به العريسي تعريفات المنظرين الالمان والفرنسيين عن القومية ، لم يجر تجاوزه بصورة مرضية حتى اليوم .

اما وصيته الاخيرة فيبدو ان العريسي كان قد كتبها قبيل القاء القبض عليه ، وبعد اتهامه الاول غياباً صيف ١٩١٥ من قبل المجلس العرفي العسكري في عاليه[٥٤] . وهو يفيد ان اخبار الاعدامات في عاليه قد قادته ان يقرر ان الواجب يدعوه للعودة الى دمشق من الصحراء السورية التي فر اليها مع عدد من اوثق المتعاونين معه : « فلئن نجوت مرة أخرى بعد العودة فسأكون اذن قد قمت بواجبي ؛ والا فسأعتبر اني خدمت امتي ووطني الى آخر قطرة من دمي ؛ فأنا لن اكون اول فدائي يموت اليوم من اجل قضية القومية العربية . . . »[٥٥] .

ثم يقول العريسي وهو يصف المظالم التي ادت بالعرب الى الانقلابات ضد الاتراك : « لقد حاولوا قتل لغتنا وخنق شعورنا القومي ؛ وحاولوا تتريكنا ، ولكنهم لم يفلحوا . لقد صبرنا على هذا ، ولكنهم الآن قد بدأوا بتحطيمنا . . . »[٥٦] . ويضيف ان فظائع جمال باشا قد ساعدت القوميين في دعوتهم للجهاد ضد الاتراك حتى وإن اخّروا ذلك ، فهم قد اضافوا قوة وتماسكاً للاشمئزاز الشعبي ضد الاتراك ، واجبروا القوميين على اعادة التفكير باستراتيجيتهم . ومضى يقول: « إن سورية سرعان ما ستمتلىء بوعّاظٍ يبشرون بدين الاستقلال العربي . . . والخلاص آتٍ من الصحراء . . . والذي يجري في الحجاز الآن هو اول القطر بالنسبة لجميع البلاد العربية »[٥٧] .

ويختتم العريسي وصيته بنداء من اجل الوحدة باسم القومية العربية ، نداء يرن في آذاننا حزيناً بعد احداث ستة عقود من السنين التي تفصلنا عنه :

« لا تتفرقوا شيعاً واحزاباً: اعلموا من الآن فصاعداً الا يوجد مسيحي ، ولا مسلم ، ولا

(٥٤) [داغر]، **ثورة العرب : مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها** ، ص ٢٤١ ، حيث الوصية التي تذكر ذلك بجلاء . ويؤكد موسى ان الاتراك القوا القبض على العريسي في تموز / يوليو ١٩١٥ ، (انظر : موسى ، **الحركة العربية : مسيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ، ١٩٠٨ - ١٩٢٤** ، ص ٦٤) ، الا ان هذا يناقض كل من كلام العريسي نفسه والبيان الذي اصدره جمال باشا في ٦ ايار / مايو عام١٩١٦ بعد تنفيذ حكم الاعدام فيه والذي ورد في : سعيد ، **الثورة العربية الكبرى** ، ص ٧٩ .

(٥٥) [داغر]، المصدر نفسه ، ص ٢٤٢ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .

يهودي ، ولا درزي ولا وثني ؛ فالجميع هم عرب ، من العرب والى العرب . لا لبناني ، لا بيروتي ، لا دمشقي ، لا حلبي ، لا حمصي ، لا حموي ـ فمصير بيروت هو مصير لبنان ودمشق وحلب وفلسطين والعراق والحجاز واليمن »(٥٨) .

- ٦ -

لقد جرى التأكيد في هذا البحث بأسره على اهمية عبدالغني العريسي وجريدة المفيد باعتبارهما من انصار القومية العربية ، وذلك على اساس دراسة منتخبة ومجتزأة لتلك الجريدة . وحتى يتم المزيد من الاستقصاء ، والذي يشمل لا المفيد وحدها بل الجرائد العربية الاخرى ، لهذه الحقبة ، فسيظل عدد من الاستنتاجات التي جرى التوصل اليها اعلاه مؤقتاً . إنما ستكشف بالضبط حتى القراءة العابرة لجريدة المفيد المقدار الضئيل المعروف عن تفاصيل تلك الحقبة الجوهرية في تاريخ العرب الحديث ، حقبة شهدت صحافة حرة وقوية ، وسلسلة من الحملات الانتخابية التي كانت حامية الوطيس (جرت ثلاثة انتخابات برلمانية عامة في السنين ١٩٠٨ ، ١٩١٢ و١٩١٤) وتفاعل نشيط في الحياة الفكرية والثقافية ، على صعيد لا يضاهى الا نادراً .

إن التاريخ السياسي الحديث للوطن العربي قد بدأ ، بمعنى من المعاني ، في سني ما قبل الحرب العالمية الاولى ، ومع هذا فإن المصدر الرئيسي للتاريخ السياسي ، ولازمته (Sine qua non) الصحافة اليومية ، لم يبدأ التنقيب فيها الا مؤخراً . والمأمول ان هذا المؤتمر سيؤدي ، اضافة الى تركيز الاهتمام على شخصيات غير معروفة حتى الآن الا قليلاً مثل عبد الغني العريسي ، والذي لعب دوراً كبيراً في الحياة السياسية والفكرية في زمنه ، سيؤدي الى شحذ الاهتمام بمزيد من الاستقصاء في حقول اخرى متعددة من تاريخ العرب الحديث التي تنتظر الاستكشاف .

---

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٢٤٤ .

الفصل الخامس

بولص نجيم ولبنان الكبير (١٩٠٨ - ١٩١٩)

مروان بحيري

- ١ -

في الايام التي سبقت الحرب العالمية الاولى وفي المناخ السياسي المثقل بالاحتمالات للعقد الاخير من الامبراطورية العثمانية ، نشر في باريس كتاب بقلم م جوبلان حول المسألة اللبنانية[1] ، وهو عمل ضخم يقع في ٥٥٠ صفحة ، ويحمل سمات اطروحة للدكتوراه . ويبدأ « جوبلان » باستعراض موسع للتطور التاريخي لسورية ولبنان من العصر القديم حتى حملات محمد علي ، فيما يقارب ٤٠ بالمائة من الكتاب ، ثم ينتقل الى الاهتمام بالشؤون الداخلية العاصفة لجبل لبنان من ١٨٤١ حتى ثورة جمعية تركيا الفتاة ، مع الاشارة الى الدور الاوروبي في المسألة اللبنانية .

وبينما يحلّل المؤلف التاريخ المتقلّب لمتصرفية جبل لبنان فإنه يقترح كذلك اصلاحات بعيدة المدى منها مزيد من الحكم الذاتي ، ومزيد من المؤسسات الديمقراطية ، وحل جذري لمسألة الارض التي بحيازة الاديرة المختلفة ، والأهم من كل ذلك إضافة الاقاليم الواقعة على الحدود الشمالية والشرقية والجنوبية بالاضافة الى مدينة بيروت : بالنتيجة مضاعفة مساحتها واكثر . ونظر الى المشروع كإعادة تكوين « لبنان العصر الزاهر Le Liban de la grande époque » ، لبنان فخر الدين والامير بشير ، بحدوده الطبيعية . كما رسمت في خرائط الاركان لسنة ١٨٦١ و١٨٦٣ للحملة العسكرية الفرنسية الى سورية . مثل هذه

---

(١) وذلك عام ١٩٠٨ ، انظر :
Paul Noujaim [M. Jouplain], *La Question du Liban: Etude d'histoire diplomatique et de droit international*, 2ème ed. (Jounieh, Liban : Imprimerie Fouad Biban, 1961) (henceforth cited as: *La Question du Liban...*).

التغييرات البعيدة المدى ستحقق تحت رعاية الدول الاوروبية الكبرى مع الاحتفاظ بدور خاص لفرنسا . وبذل جوبلان الجهد الجهيد في ارجاء الكتاب بأسره لتوكيد اهمية الحكم الذاتي والخصوصية في التجربة التاريخية اللبنانية . إن النبرة التحررية الوحدوية ، مدعومة بحجج الاكتفاء الذاتي الاقتصادي ، لا يخطئها المرء .

وقد كشف النقاب عن هوية جوبلان بعد احد عشر عاماً . ففي آب / اغسطس ١٩١٩ نشرت صحيفة بيروتية مهمة لم تعش طويلاً هي La Revue Phénicienne (المجلة الفينيقية) مقالاً بعنوان La question du Liban: étude de politique économique et de statistique descriptive المسألة اللبنانية : دراسة سياسية اقتصادية واحصاء وصفي . وفيه اعلن الكاتب بولص (او بول) نجيْم للملأ ان جوبلان ليس الا هو نفسه ، وان الاسم المستعار M. Jouplain هو في واقع الامر عبارة عن جناس تصحيفي لـ Paul Noujaim(٢) .
ودعا الكاتب مرة اخرى ، شأنه في ١٩٠٨ ، لإنشاء «le Liban de la grande époque» « لبنان العصر الزاهر » لكنه في هذه المرة سمّاه على وجه التعيين « لبنان الكبير Le Grand Liban» ، وهو مصطلح استعمله في المقال مرتين ، وبالحرف البارز في المرتين .
والمقال الذي يحمل اسم جونيه بتاريخ ١٠ تموز / يوليو ١٩١٩ ربما يؤلف هو ومقال ألبرت نقاش المعنون « مستقبلنا الاقتصادي » «Notre avenir économique» المنشور كذلك في الصحيفة المذكورة نفسها ، شيئاً من اقدم الاشارات المكتوبة والعلنية للبنان كبير .
فالمصطلح مثلاً لا يبدو انه استعمل قبل سبعة اشهر من ذلك من قبل اول وفد لبناني الى باريس ؛ لم يستعمل في النشرات الصحفية الرسمية على الاقل . واذا ضربنا مثلاً لاحقاً فإن المصطلح لم يستعمل في الرسالة المهمة من كليمنصو الى البطريرك حويّك بطريرك الطائفة المارونية المؤرخة ١٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٩(٣) .

---

(٢) Paul Noujaim, «La Question du Liban: Etude du politique économique et de statistique descriptive,» *La Revue Phénicienne*, (Août 1919), pp. 66-81.
وقد ساهم الكثيرون في الكتابة في هذه الدورية القيّمة ـ والتي لم تعط حقها من الاهتمام ـ خلال هذه السنة الحاسمة (١٩١٩) ، حول المواضيع الاقتصادية والسياسية والثقافية ، مثل شارل قرم ، البرت نقاش ، جان جلخ ، جوزيف جميل ، اميل عرب ، اوغست اديب ، شكري غانم ، ميشال شيحا ، عبدالله خير ، فيليب دي طرازي ، هكتور خلاط ، يوسف الخازن ، عزيز زبال ، ابراهيم تابت والياس حويك .
واود هنا تسجيل امتناني للسيد دايف قرم لتكرمه باهدائي بعض النسخ النادرة من *La Revue Phénicienne* ، وللسيد فكتور جبر ، ابن اخت بولص نجيم ، لمنحي نسخة من عمل الاخير الرئيس حول المسألة اللبنانية .
(٣) للاطلاع على نص الرسالة ، انظر :
Zeine N. Zeine, *The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdon in Syria* (Beirut: Khayat's, 1960), pp. 263-264. =

ولا ريب ان نجيم كان يصوغ افكاره تحت ضغط الاحداث الخطيرة لذلك الصيف من عام ١٩١٩ حينما غادر جونيه في ١٥ تموز / يوليو وفد برئاسة البطريرك الماروني على ظهر باخرة حربية فرنسية الى روما والفاتيكان اولاً ، ومنها الى باريس ومؤتمر الصلح في فرساي ؛ وحينها كانت تحاول بعثة امريكية لتقصي الحقائق ، وهي لجنة كنغ ـ كرين التي ارسلها الرئيس ولسن ، تقويم الرغبات السياسية لمختلف الجماعات في سورية ولبنان وفلسطين . وكان السبب الآخر للقلق في عدد من الاوساط المارونية والروم الارثوذكس هو تطلعات المؤتمر السوري الذي طالب بالاستقلال التام لسورية الجغرافية بأسرها « وتنصيب الامير فيصل ملكاً عليها تحت ظل ملكية ديموقراطية ، مدنية ، دستورية »(٤) .

وقد اسهم نجيم كذلك ، فيما بين كتابته للعملين المذكورين آنفاً ، بكتابة فصول عن تاريخ لبنان في كتاب « لبنان : مباحث علمية واجتماعية » لمحرره اسماعيل حقي . ويغطي نجيم الفترة من الفتح العربي الى ١٩١٤ بينما اسهم الاب لويس شيخو بفصول عن عهود اسبق . وانهى نجيم سرده ، وهو بلا ريب يضيق ذرعاً بالحكم الكيفي للنظام العسكري التركي ومخاطره إبّان الحرب ، بابداء الامل بنهاية عاجلة للحرب العالمية الاولى وعودة الرخاء الى لبنان « تحت ظل جلالة السلطان محمد رشاد »(٥) . كان نجيم ، في عمله الثالث هذا ، محترساً في معالجته لموضوعات الحكم الذاتي والخصوصية[اللبنانية]والانجازات الوطنية لأبطاله . والفصول ذات اهمية اقل بقدر تعلق الامر بهذه الدراسة ، الا بالنسبة لما يتضح فيها من أن نجيم يبدو وقد تراجع عن تفسيره الراديكالي ، التقدمي ، والمحفّز للذهن ، لثورة الفلاحين في كسروان سنة ١٨٥٨ ، والذي افصح عنه سنة ١٩٠٨ في كتابه « المسألة اللبنانية »(٦) .

= وفي دراستها الاخيرة القيمة :
Daoud Ammoun et la création de l'Etat libanais, préface de Pierre Rondon (Paris: Klincksieck, 1978),
تقتبس Lyne Lohéac مقتطفات من رسالة شخصية لداود عمون الى زوجته بتاريخ ١٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٨ ، يستعمل فيها هذا السياسي اللبناني مصطلح « لبنان الكبير » : « انكم تعرفون برنامجي الخاص بلبنان الكبير ؛ ولقد جعلت الجميع هنا يتبنونه ، بما فيهم الحكومة الفرنسية . كما تبناه « المجلس الاداري » . وقد تقرر بالاجماع ، ومن الدروز والمسلمين ايضاً ، ارسال وفد . . . الى باريس لدعم هذا المشروع في مؤتمر الصلح . وقد كنت في عداد هذا الوفد بصفة مندوب اول » . الا انه من الامور ذات الدلالة ان برنامج النقاط الاربع الذي اقرّه المجلس الاداري لجبل لبنان في ٩ كانون الاول / ديسمبر لا يستخدم مصطلح « لبنان الكبير » .
(٤) Harry N. Howard, *The King-Crane Commission* (Beirut, Khayat's, 1936), p. 120.
(٥) اسماعيل حقي ، محرر ، لبنان : **مباحث علمية واجتماعية** ، مراجعة وتقديم وفهرسة فؤاد افرام البستاني ، ط ٢ (بيروت : الجامعة اللبنانية ، قسم الدراسات التاريخية ، ١٩٦١) ، ص ٣٦٤ .
(٦) احد اسهامات نجيم المميزة في تأريخه للصراع في لبنان هي تفسيره النافذ البصيرة للنزاع الاهلي في جبل لبنان بين ١٨٥٨ و ١٨٦٠ على انه ثورة اجتماعية وصراع طبقي . وقد انتقد ممثلي الدول الاوروبية في اسطنبول وسورية لتصويرهم اسباب النزاع على انها طائفية بحت ، بينما في حقيقة الامر « السبب الرئيس . . . =

إن الاغراض الرئيسية لهذه الدراسة هي تفحّص المساهمات الفكرية لهذا الشخص الموهوب من ابناء الطبقة الوسطى المهنية الصاعدة ، وتفهّمه للسمات المهمة للتاريخ اللبناني باعتبارها مقرّرات لمنهجه ورؤيته السياسية الوطنية . وهذه تضم الاصول التاريخية لسورية ولبنان ، ودور فخرالدين والامير بشير في تكوين ما هو برأي نجيم نظام لبناني متميز **يمتد بين الحواجز الطائفية**، والآمال الخائبة والتطلعات المتسامقة للمتصرفية ، وطبيعة الاصلاحات وعجالتها في المجالات السياسية والاقتصادية والاقليمية . واخيراً مقارنة مفهومه عن لبنان الكَبير مع التشكيلات الاخرى الموضوعة من قبل الموارنة والروم الارثوذكس في الفترة تحت الدرس ، ١٩٠٨ ـ ١٩١٩ .

ـ ٢ ـ

وُلد بولص نجيم سنة ١٨٨٠ في جونيه ، كسروان ، لأسرة اخرجت عدداً من المطارنة للكنيسة المارونية[٧] . ودرس في كلية عينطورة الذائعة الصيت . وكان والده فارس نجيم ، المذكور في مصدر ظهر قبل ١٩١٤ باعتباره عميد اطباء جبل لبنان ، احد الاعضاء البارزين في المهنة الطبية،وعلى نطاق واسع من الاحترام من جرّاء فنه وصفاته الانسانية[٨]. كان فارس واحداً من اولى المجموعات من الطلاب اللبنانيين الذين درسوا في مدرسة الطب في القاهرة (حوالى سنة ١٨٦٠) والتي ضمت عدداً من الموارنة ، كما كان الامر بالنسبة للمجموعة التي دخلت المدرسة في ١٨٦٨ . وكان الخديوي كما يذكر الدكتور شاكر خوري ، وهو نفسه خريج مدرسة القاهرة ، يخصص بانتظام عشر بعثات دراسية للطلب لطلاب من سورية ولبنان[٩] . ولم يكن هؤلاء الخريجون الاوائل من لبنان موضوع دراسة

= هو الصراع الاجتماعي بين السادة والفلاحين . فالنزاع ليس بين طائفتين دينيتين متعاديتين ، والدين لم يدخل في هذا الصراع الا في وقت متأخر » .

Noujaim [Jouplain], *La Question du Liban…*, pp. 282-288 and 543.

(٧) منصور الحتوني ، **نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية** (بيروت : اوراق لبنانية ، ١٩٥٦) ، ص ٢٨ و ١٤٦ . ويذكر الحتوني منهم يوسف وارميا نجيم .

(٨) *Le Réveil*, 21 / 10 / 1913.

(٩) شاكر خوري، كتاب **تحفة الراغب** (بيروت : ١٨٧٩) ، ص ٣ ـ ٤ . والدفعة الاولى من الاطباء الذين درسوا في مصر ابتداء من عام ١٨٣٧ تضم ابراهيم نجار من دير القمر ، غالب خوري من بعقلين ، يوسف جلخ ، ويوسف مرهج لطيف . ويعتبر د. ابراهيم نجار اول جرّاح اخصائي لبناني ، وسميت باسمه مستشفى الكرنتينا القديمة في بيروت ، انظر : **الحياة** ، ١١ / ٨ / ١٩٧١ و *Le Jour*, 15 / 11 / 1970 . ومن الجدير الاشارة الى بعض المفاهيم المعينة لهذه الطبقة الوسطى الجديدة . فبولص نجيم ، على سبيل المثال ، يرى صراعاً من طبيعة اقتصادية وانتخابية في جبل لبنان بين « الحواضر الكبيرة Gros bourg » المتنامية اهمية وتطوراً في بنيتها التحتية وبين الـ « القرى الصغيرة hameau » المتواضعة . اضف الى ذلك ان « الحواضر الكبيرة » مالت الى =

شاملة حتى اليوم . وهم ، بالطبع ، يسبقون الجيل الاول من الاطباء الذي ظهر في لبنان على يد الكلية السورية البروتستنتية (سلف الجامعة الامريكية في بيروت) وجامعة القديس يوسف اليسوعية .

وأضحت الطبقة الوسطى المهنية ، بحلول الربع الثالث من القرن التاسع عشر، على مرأى البصر سواء في المدن الساحلية او المدن الاكثر رخاء في جبل لبنان ؛ وعلى نفس الشاكلة فإن بعض السمات السلوكية لهذه الطبقة كان من الممكن التنبؤ بها : فمن بين ولدي الدكتور فارس نجيم سار سعيد على خطى أبيه بدراسة الطب ـ في فرنسا ـ وفتح عيادة في جونيه ، بينما حصل بولص على دكتوراه في القانون ودكتوراه في العلوم السياسية من كلية الحقوق بباريس واتجه الى السياسة . وكان البعد الفرنسي ، بالنسبة لجيل الولدين ، يمكن التنبؤ به كذلك .

فبينما كان البعد الفرنسي بالصدارة من مجال الامتيازات الاقتصادية والتعليم واللغة وأساليب الحياة لصفوة المجتمع والطبقة الوسطى بشريحتها العليا ، فقد تغلغل كذلك في ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان . ويصدق هذا على الاخص في العقود الاخيرة قبل الحرب العالمية الاولى . خذ مثلاً سنة ١٩١٣ . ففي الشهور الاولى تناولت صحافة بيروت بالبحث ما ينطوي عليه ادعاء بوانكاريه ان فرنسا قد نالت من بريطانيا اعترافاً بمنطقة نفوذ خاصة بها في سورية ولبنان . وفي الوقت ذاته واصلت اللجنة اللبنانية في باريس إثارتها لمسائل الاصلاحات والتوسع الاقليمي تحت الرعاية الفرنسية . وفي اواسط السنة اشتركت لجنة الاصلاح البيروتية ، وهي من ارفع الجمعيات السياسية مكانة ، كما أنها ومن عدة نواح اكثرها سفسطة في لبنان ، اشتركت في المؤتمر العربي الذي انعقد في باريس (لا في اسطنبول او روما او برلين او جنيف او لندن) . ثم في نهاية السنة ملأت عناوين الصحف زيارة الاسطول الفرنسي التي اعلن عنها احسن اعلان ، والتي هيأت مناسبة لبعض الزجالين من الاهالي لنظم اشعار رنانة تكريماً للاسطول الفرنسي . بالاضافة الى ذلك فقد سرت في هذا الوقت عدوى حمى الطيران الى اللبنانيين ، وهي حمى فرنسية . إن « الغارة » التي أُعلن عنها كثيراً والتي يقوم بها دوكور Daucourt ورو Roux على طائرة الطير الازرق Oiseau Bleu لم تصل الى بيروت قط . فقد تحطمت الطائرة شمال حلب . غير انه ، وبعد بضعة اسابيع (يوم ٢٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٣) حط فدرين Védrines بطائرته بليريو[*] Blériot ذات الجناح الذي يبلغ باعه عشرة امتار في حقل اعد خصيصاً

= استيطان الساحل او قريباً منه ، في حين ان « القرى الصغيرة » علت الجبال وعادت التغييرات الاجتماعية والاقتصادية والاصلاحات اللبنانية ، انظر :

Noujaim [Jouplain], *La Question du Liban…*, p. 480.

(*) نسبة لبليريو وهو مهندس وصانع طائرات واول من عبر المانش بطائرة . (المترجم)

بالقرب من الكرنتينا في بيروت الشرقية(١٠) . وبعد ثلاثة ايام (في ٣٠ كانون الاول / ديسمبر) حط طيار فرنسي آخر يدعى بونييه Bonnier بطائرته على الرمال هذه المرة في بير حسن في بيروت الغربية . في هذه الاثناء وصلت بيروت مجموعة مسرحية فرنسية هي La Troupe de Madame Jeanne Rolly et Gaston Bubose وافتتحت موسمها بمسرحية La Bascule « الميزان » لـ Maurice Donnay . في حين كانت سينما غومونت المتخصصة عادة بافلام فرنسية تعرض بالتناوب « غرق الباخرة تايتانيك Titanic » و« مناورات الجيش العثماني » و« كو فاديس Quo Vadis » الذي قد يليق عرضه بالمناسبة! وتخصصت السينما الاخرى في المدينة ، وهي Le Grand Cirque Ribera ، وذلك بصورة لا مناص منها بالـ الفانوس السحري Vitagraph والافلام الامريكية .

أما في المجال الاقتصادي فقد شهدت نهاية سنة **١٩١٣** حملة من وزارة الخارجية الفرنسية عاقدة العزم على كسر الاحتكار البريطاني لاستكشاف النفط في سورية ، والممنوح لشركة بوكوسل Boxall . فأكد السير ادوارد غري للحكومة الفرنسية في **٢٢** كانون الاول / ديسمبر **١٩١٣** ان بريطانيا لا تطالب سوى بامتياز واحد للنفط في سورية وانه « ليس هناك اي محاولة للحصول على احتكار لمثل هذا المشروع »(١١) . إن النفوذ الفرنسي ، من الثقل **الفج** للمسألة النفطية الى الاثارات **الهائجة** للطيران ، كان ينحو الى السيادة غير منازع في سورية ولبنان في **١٩١٣** . وفي حقيقة الامر يمكن القول وبصدد اقتصادي صرف ، ان

(١٠) عنبرة سلام الخالدي ، **جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين** (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٨) ، ص ٤٨ . انظر ايضاً : لحد خاطر ، **عهد المتصرفين في لبنان ، ١٨٦١ - ١٩١٨** (بيروت : الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٧) ، ص ١٩٦ .

(١١) William I. Shorrock, *French Imperialism in the Middle East: The Failure of Policy in Syria and Lebanon, 1860-1914* (Madison, Wisc.: University of Wisconsin Press, 1976), pp. 134-135.

ولتحليل متبصر للاهمية الاستراتيجية والاقتصادية لاتفاقات سكة الحديد الانجلو - فرنسية (١٩١٠) في سورية عاملان لتقسيم النفوذ ، انظر :

Rashid Ismail Khalidi, *British Policy towards Syria and Palestine, 1906-1914: A Study of the Antecedents of the Hussein- MacMahon Correspondance, the Sykes - Picot Agreement and the Balfour Declaration* (Oxford: 1980), p. 113.

وقد اسف نجيم لتراجع النفوذ الاقتصادي الفرنسي ونمو النفوذ الالماني في المنطقة . ومع هذا فهو يعتقد ان مركز الصدارة الفرنسي الاول يمكن استرداده بسرعة . « ان نفوذ فرنسا المعنوي ما زال كبيراً في لبنان وسورية بأكملها . ان اللغة التي يتعلمها الشباب اللبناني هي الفرنسية ؛ والمدارس التي يتلقى فيها العلم هي الفرنسية . انها جامعة بيروت الفرنسية حيث يدرسون الطب . انها فرنسا التي يتوجهون اليها لاكمال دراساتهم . انهم يريدون ان يكونوا ، وهم دوماً « فرنسيي الشرق » . فعلى فرنسا ان تساندهم ، وان تقوم بنشاط اقتصادي اكبر في سورية . فبفضل تعاطف السوريين واللبنانيين على الاخص ، ستستعيد فرنسا المقام الاول بين القوى التجارية » ، انظر :

Nujaim [Jouplain], *La Question du Liban*, p. 501.

الانتدابات على سورية ولبنان وفلسطين كانت قائمة اصلاً بحلول **١٩١٢** .

شارك بولص نجيم ، بعد عودته من فرنسا (حوالى ١٩٠٨) بالحياة السياسية لاقليم كسروان في اواخر ايام المتصرفية . ويروي يوسف الحكيم ، وهو مصدر مهم لتاريخ الحقبة ، ان الصراع من اجل النفوذ في كسروان كان « بين جماعة الشيوخ من آل الخازن وبين الجبهة الشعبية بقيادة حبيب بيطار وجورج زوين وبولص نجيم ونعوم باخوس »(١٢) . كانت القضايا في الغالب من الامور الضيقة ، لكنها تنطوي كذلك ، في المستوى الاعلى ، على منافسة حادة من اجل المراكز المجزية في الادارة تحت متصرف يملك سلطة مطلقة في تعيين او عزل الموظفين المدنيين ، ومن ضمنهم سبعة قائمقامين وسبعة واربعين مديراً . ومن المهم ان نجيم عارض علناً السياسة العثمانية الرسمية الخاصة بتقييد ملاحة البواخر في موانىء جبل لبنان كميناء جونيه . فانضم في تشرين الثاني / نوفمبر **١٩٠٩** الى بشارة عربي وسيجان اريج بتوقيع كراس احتجاجي وزّع على نطاق واسع بعنوان « لبنان وموانئه Le Liban et ses ports »(١٣) .

كانت هناك كذلك حوافز اقتصادية اخرى للطبقة الوسطى اللبنانية الصاعدة . فقد وجدت فرص جديدة نتيجة التزاحم على الامتيازات ومن ضمنها سكك الحديد ، وتسهيلات الموانىء ، والري ، ومشاريع الكهرباء بالقوة المائية ، والتي جمعت بين المصالح المالية الفرنسية وبين المقاولين entrepreneurs [او ملتزمي الاعمال (المنظمين؟)] المحليين في مستهل القرن . والمثل الحسن على هذا الاتجاه هو سكة حديد بيروت - المعاملتين ، مع الخيار بالتوسع شمالاً وجنوباً معاً ، وهو المشروع الذي تولاه بالاشتراك الاخوة خضرة من صربا (كسروان) ومجموعة بنوك وشركات فرنسية . وقد وفر عامل المضاربة الكثير من هذا النشاط ، وتوسع الاعتمادات المالية ، وتوقع الارباح الطائلة ، وخلق الاعمال الجديدة ، وفر كل هذا اساساً مثالياً للتفاعل الجاري في الرعاية السياسية .

اخذ المتصرف الجديد ، اوهانيس كيويومجيان ، يباشر في اوائل **١٩١٣** بتعديل

(١٢) يوسف الحكيم ، **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان** (بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، **١٩٦٤**) ، ص **٤٤** و**٥٢** ، وانظر ايضاً : لحد خاطر ، **عهد المتصرفين في لبنان ، ١٨٦١ - ١٩١٨** ، ص ١٨١ - ١٨٤ .

(١٣) وجيه كوثراني ، **الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، ١٨٦٠ - ١٩٢٠ : مساهمة في دراسة اصول تكوينها التاريخي** (بيروت : معهد الانماء العربي ، **١٩٧٦**) ، ص **٢٢٩** . هذا الكتاب ومؤلَّف كوثراني الآخر : **بلاد الشام : السكان ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين - قراءة في الوثائق**(بيروت : معهد الانماء العربي ، **١٩٨٠**) ، **هما** مصدران قيمان لدراسة النفوذ الفرنسي السياسي والاقتصادي في لبنان وسورية خلال الفترة ١٨٦٠ - ١٩٢٠ ، وكذلك دراسة :

John P. Spagnolo, *France and Ottoman Lebanon, 1861-1914*, St. Anthony's Middle East monographs, 7 (London: Ithaca for St. Antony's College, Oxford, the Middle East Centre, 1977).

شامل للادارة ، فعيّن ، من بين آخرين ، بولص نجيم رئيساً لقلم الاجانب (اي مدير مكتب الشؤون الخارجية) : وهو اجراء جرى تقبله قبولاً حسناً على العموم . وعلقت جريدة بيروتية موالية للفرنسيين على هذا في ذلك الحين فقالت : « إن تعيين نجيم جرى الترحيب به بالرضا في لبنان كعلامة تشير الى ان الحكومة تنوي من الآن فصاعداً اختيار المواهب الشابة القادرة على توفير دفع جديد وتقدمي لادارة متعبة [او : منهكة] »(١٤) .

ونُفي نجيم خلال الحرب العالمية الاولى من قبل جمال باشا . واما في ظل الانتداب الفرنسي فقد عُيّن مدعياً عاماً Procureur général لمحكمة الاستئناف ، ومات في فرنسا سنة ١٩٣١ .

فبأي معنى كان بولص نجيم ممثلاً **للطبقة المثقفة** الصاعدة [او : نخبة اهل الفكر the intelligentsia] . لقد افترض هربرت باسان ان المجتمعات التي تدخل « دورة الحداثة لا بد لها عند نقطة ما من أن تشق طريقها في ثلاثة حقول : الاصلاح السياسي والاجتماعي ، اللغة ، والصحافة » . وقد يحدث شق الطريق [الثلاثي] في الوقت نفسه كما حدث في الصين خلال حركة ٤ ايار / مايو ١٩١٩ والتي يقول باسان إنه قد حدث « اوج متزامن في الافكار الادبية والفلسفية والسياسية التي تبتغي الانطلاق الحر من قيود ثورة ١٩١١ التي حققت انعتاقاً نصفياً »(١٥) . وقد حدث فعلاً شيء مشابه لهذا في الاقاليم العربية من الامبراطورية العثمانية عقب ثورة [جماعة] تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ ، وان كان شق الطريق [الثنائي] في اللغة والصحافة قد سبق شق الطريق في الاصلاح السياسي والاجتماعي بنحو عقد من السنين . والحق ان قنوات جديدة من الاتصالات كالكتب والجرائد والمجلات قد لعبت ادواراً حاسمة بصفتها مذيبات للنظام التقليدي في المشرق العربي ؛ وهي ادوار تستحق المزيد من الدرس .

ويتحسس ك . ت . خيرالله هذا الغليان عند وصفه المشهد الفكري في العقد الذي سبق الحرب العالمية الاولى قائلاً :

« بيروت التي يتوافد عليها شباب لبنان المثقف ، هي العاصمة الثقافية لسورية . ففي احضانها تكمن خميرة افكار ومشاعر لا يتحسسها المرء بسهولة . كما ليس سهلاً تصور الإقدام في النظريات

(١٤) *Le Réveil*, 25/2/1913.

(١٥) Herbert Passin, «Writer and Journalist in the Transitional Society,» in: Lucien Pye, ed., *Communications and Political Development* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963), p. 82.

انظر ايضاً :

Samir Khalaf, *Persistence and Chance in 19th Century Lebanon: A Sociological Essay* (Beirut: American University of Beirut, 1979), p. 118.

الاجتماعية والادبية التي تتطور في هذه المدينة . هذا الاقدام قد شحذ على الاقل هذا المجتمع الشرقي الهرم وخلق فيه تياراً يدفع به الى الامام »(١٦) .

وبالطبع يجب ألا يُبالغ في تأكيد اثر القنوات الجديدة للاتصالات . فالضغوط الاقتصادية والسكانية مثل تلك الموجودة في جبل لبنان في ١٨٥٨ ، وحتى قبل ذلك في بيروت وصيدا وطرابلس ، هي ايضاً مذيبات قوية بالمثل . مع هذا فالافصاح عن القضايا التي اعتبرت جوهرية ، وانتشارها ، قد ثبتت فائدته في المحافظة على وتيرة التآكل واحداث التغيير . وانه عند هذه النقطة ان وجدت « الانتلجنسيا » ما يدعوها للعمل ، حتى غدت مع الزمن مؤسسة قائمة بذاتها .

إن الانتلجنسيا المارونية ، الفرنسية الثقافة ، لجبل لبنان او لولاية بيروت والتي من افرادها بولص نجيم ، سألت على وجه التقريب الاسئلة الاساسية نفسها واظهرت الملكة النقدية نفسها ، كالمجموعة الصاعدة من الانتلجنسيا المسلمة في المدن والممثلة على سبيل المثال بعبد الغني العريسي . إنما اذا كانت الاسئلة متشابهة فالاجوبة غالباً ما اختلفت . والاسئلة التي طرحت تشمل : من نحن ؟ واين يقع اللوم ؟ ومن هم اصدقاؤ نا ؟ وما العمل؟ والفارق بين اجوبة نجيم واجوبة العريسي هو فارق بارز حقاً . (انظر بحث رشيد خالدي عن العريسي والمفيد في هذا الكتاب) .

- ٣ -

إن الجمل الاستهلالية في كتاب « المسألة اللبنانية » لبولص نجيم (المنشور في ١٩٠٨) تكشف بجلاء عن الخطوط العريضة لرؤيته التاريخية . كان تصميمه المعلن ينصب على « اقتفاء تاريخ هذا الاقليم اللبناني الصغير ، هذه الامة الصغيرة ، والتي قامت ، على الرغم من صغر حجمها ، وتواصل القيام بمثل هذا الدور الكبير في المشرق » (ص ix) . لقد رأى نجيم لبنان في الازمان القديمة مركزاً لحضارة متقدمة . اما في الحقبة العثمانية ، فمع ان لبنان قد جرى ضمه في امبراطورية ، فإنه قد أفلح مع ذلك في الاحتفاظ بقدر كبير من الحكم الذاتي وذلك بسبب عوامل تتعلق بالموقع الجغرافي والظرف التاريخي . إن لبنان ، وهو ضمن سورية ، قد طوّر « شخصيته الخاصة في المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية » (ص ix) . وباختصار نظر نجيم الى تاريخ لبنان على انه يتجاوز الاطار السوري ، مع منطويات اوسع . فلبنان خلال القرن التاسع عشر بأسره كان موضع عناية خاصة من قبل الدبلوماسية الاوروبية ؛ وبانتهاء تدخل محمد علي في ١٨٤٠ « اضحت المسألة اللبنانية مسألة

(١٦) K.T. Khairallah, *La Syrie* (Paris: Leroux, 1912), p. 112.

دولية ، وفيها يطالب اللبنانيون لأنفسهم بأوسع حكم ذاتي ممكن » (ص x) [١٧] . ولفرنسا في هذا الخصوص دور خاص عليها أن تلعبه بسبب عرفها الطويل من الروابط الدينية واللغوية والتعليمية والسياسية والاقتصادية مع الساحل والجبل .

هذه باختصار مكثف هي مناقشة نجيم . اما عند وضع التفاصيل فإنه يبدأ بعرض المشهد الجغرافي لسورية ولبنان ، مفصحاً إبّان ذلك عن تحيّز ملحوظ لمبدأ الحتمية الجغرافية . ويتضح تأثير Elisée Reclus بتكرر الاستشهادات به . يقول نجيم : « ثمة حقيقيتان جغرافيتان قد قررتا تاريخ سورية وعرقيّتها : اولاً ، تكوينها كشريط اقليمي ضيق محصور بين البحر المتوسط والصحراء ، وثانياً ، طبيعتها الجبلية »(ص i) . وهو يصف المنطقة بأسرها بأنها ملتقى طرق الامم ، ومركز اتصالات ، والطريق البري الوحيد بين آسيا وافريقيا ،واقصر الطرق بين البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي ، ومكان الالتقاء الطبيعي للشرق والغرب . بيد ان الطبيعة الجبلية السائدة للارض ينظر اليها كذلك كعامل تفرق : فهي تنحو بالعناصر المتنافرة من السكان الى البقاء منفصلة عن بعضها . وكل الذي رآه نجيم من تطور تاريخي هو دول صغيرة في نزاع ضروس مستديم ، فهي لهذا لقمة سائغة للاكتساح من الغزاة الاجانب . وهنا يقدم نجيم في مناقشته بعداً داروينياً ـ اجتماعياً . إن الاشداء من مختلف السكان السوريين سيأوون الى حصون الارض الطبيعية ـ بخاصة في جبل لبنان والمناطق الجنوبية Anti Lebanon وجبل الشيخ ـ حيث تساعدهم الاحوال الجغرافية المواتية للحفاظ على استقلالهم الذاتي وتطويره ، وعلى الاخص خلال فترات تردي السلطة المركزية .

اظهر نجيم ، أساساً ، إعجاباً كبيراً بانجازات الفينيقيين ، مع انه لم ينفق عليهم اكثر من بضع صفحات من مجموع ٥٥٠ صفحة . واظهر ما يمكن وصفه بعدم الاكتراث بالمرحلة الاغريقية ـ الرومانية ، فيخلص منها بفقرة واحدة . ويكشف عن عداء ملحوظ نحو البيزنطيين ، فيعتبرهم مسؤولين عن خراب سورية الجغرافية . والواقع ان كل الذي يراه في العصر البيزنطي هو الفساد الاداري والموظفون القساة والظلم الاجتماعي والاقتصادي ، والضرائب الباهظة ، والهرطقات والاضطهادات ، والفرق الدينية مع

---

(١٧) المصدر نفسه ، ص x . ومن المستغرب ان بولص نجيم لم يحظ بالاهتمام الذي يستحق ، باستثناء :
Albert H. Hourani, «Historians of Lebanon,» in: Bernard Lewis and P.M.Holt, eds., *Historians of the Middle East* (London: Oxford University Press, 1962),p. 238, and K [amal] S. Salibi, *The Modern History of Lebanon* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1965), pp. 118-119.

وقد استخدم نجيم ، في احد الاوقات ، المصطلح الانجليزي «self-government» لتوضيح نوع الحكم الذاتي الذي في ذهنه لجبل لبنان عام ١٩٠٨ ، انظر :

Noujaim [Jouplain], *La Question du Liban...*, p. 531.

امتيازات اقتصادية جسيمة لا تسهم الا القليل في الحياة الاقتصادية للمنطقة ككل (ص ٤ و٧) . وكنتيجة لذلك لم تكن بيزنطة في وضع يمكنها من إيقاف الزحف العربي ولاسيما أن السكان السوريين لم يستوعبوا الهلينية استيعاباً فعلياً . لقد بقي السوريون ، في نص كلام نجيم ، ساميين دائماً ، يعاملون البيزنطيين كغرباء والعرب كأشقاء من نفس الجنس . كتب يقول : « إن اغلبية السوريين رحبت بفرح بقدوم العرب وبهزيمة المضطهدين البيزنطيين » (ص ٧) .

والواقع ان المؤلف اظهر موقفاً إيجابياً نحو الفتح العربي . لقد رأى فيه انتقام المبدأ السامي لتسعة قرون من السيطرة الهيلينية ، كما رأى فيه عودة سورية الى مسارها التاريخي الصحيح : « إن حضارة سامية ، عميقة الجذور في سمات الارض الجغرافية والعرقية والوارثة الحقة لحضارة المشرق القديمة ، يمكن أن تتطور من الآن فصاعداً » (ص ٩) . ويخلص الى القول : « إن سورية مع العرب قد اصبحت مرة اخرى مركز السامية . . . ومهد الحضارة العربية او الاسلامية » (ص ١٠) . بل انها غدت في عهد الامويين مركز العالم المتحضر : فـ « على ايدي الامويين بزغت الحضارة الاسلامية او العربية ، اروع الحضارات في مطلع القرون الوسطى . لقد كانت الامبراطورية العربية ـ السورية بالتأكيد الدولة الاكثر حضارة والاشد ازدهاراً في القرنين السابع والثامن . لقد كانت سورية بحق مركز العالم المتحضر » (ص ٢٠) .

بالاضافة الى ذلك فإن قدوم العرب كان كذلك هو نقطة الانطلاق للتجربة المارونية : « في هذه الحقبة ، بدون شك ، يجب وضع الاصل التاريخي لقوم قاموا فيها بعد بدور مهيمن في لبنان وسورية وهم الموارنة . ومنذ مطلع الفتح العربي وجب على لبنان ان يلعب دوراً خاصاً في سورية والذي سنعرضه بكامله »[١٨] . كذلك يبحث نجيم باختصار اصل التنوخيين المسلمين ، والقرامطة الشيعة ، والدروز بقدر تعلق الامر بتاريخ لبنان . اما المصادر التي استخدمها فمختلفة لكنها جوهرية : ديركس Diercks ، دويهي ، يوسف ديب ، عازار ، شدياق ، بن يحيى ، تشرشل ، لامان ، دي ساسي ، غاي Guys ، جودت باشا ، دي جوج de Goeje ، ابن خلدون ، الطبري ، الواقدي ، وهذا قليل من كثير .

- ٤ -

ليس في نية هذا البحث (الورقة) ان يفحص تقدير نجيم للتطورات التاريخية تحت حكم العباسيين والفاطميين والسلاجقة والصليبيين ، باستثناء ملاحظة ثلاثة تأويلات

---

(١٨) Noujaim [Jouplain], Ibid., p. 12. وكان دخول نجيم في نقاشات عنيفة مع مؤرخين آخرين حول موضوع الموارنة محتماً . وقد اختلف مع احكام عازار (المصدر نفسه ، ص ٣٦) وفرّق بين الموارنة والمردة (المصدر نفسه ، ص ٤٢) .

تتميز بميزة خاصة . الاول ، انه كرد فعل للسلاجقة الذين ادخلوا الى سورية تنظيماً عسكرياً ـ اقطاعياً ، فإن المارونيين بدورهم « تبنوا هذا التنظيم العسكري وهو تنظيم امة مسلحة بتسلسل هرمي من زعماء رجال اقطاعيين يتألف من رؤساء وامراء ومشايخ » (ص ٥٣٦) . والثاني ، ان سورية تحت حكم الصليبيين غدت الملتقى الطبيعي للغرب والشرق ، الذي منه اعاد « الفرسان اللاتينيون » معهم بذور حضارة جديدة تفتحت للنور في عهد النهضة (ص ٥٣٧) . والثالث، ان الصليبيين انشأوا روابط لا تنفصم بين الفرنجة ومسيحيي سورية ، وعلى الاخص الموارنة . ومن هذه المرحلة فصاعداً صار الموارنة « فرنسيي المشرق وانصار فرنسا المسيحية في سورية» (ص٥٣٧) .

ويخص نجيم كلاً من فخر الدين والامير بشير بمعاملة خاصة . فالاعجاب المغرق بالامير المعني الذي يستشفه المرء من كتابة التاريخ في عهد متأخر (مثلاً عند ميشيل شبلي او عادل اسماعيل) إنما هو موجود اصلاً [عندنجيم] بوضوح جلي . لم يكن فخر الدين بالنسبة لنجيم واضع (منظم) مؤسسة عسكرية كفوءة فحسب بل كان بالدرجة الاولى عاهلاً يخلق دولة ذات سيادة وذلك بجمع المجموعات السكانية المختلفة في اتحاد متجانس . لقد رأى نجيم في فخر الدين اميراً مستنيراً توّاقاً لشحذ النمو الاقتصادي ، و« كولبيري قبل كولبير »(*) «Colbertiste avant Colbert» يبتغي الاكتفاء الذاتي والحماية وتنظيم الاقتصاد ، وتطور البنية الاساسية (التحتية) تطوراً واسع النطاق بمساعدة الخبراء الاوروبيين والتقنية الاوروبية[19] .

وباختصار ، وعلى حد تعبير نجيم : « ارسى فخر الدين دولة قوية وحسنة التنظيم مركزها لبنان . . . إنها لم تعد إقليماً تركياً ، بل دولة لها حياتها الخاصة بها ، اكثر شبهاً بالبلاد المتحضرة في اوروبا الغربية منها بولاية من ولايات الباب العالي . فخبرت ـ يقودها مستبد متنور ـ عظمة نهضة (ايطالية) » (ص ١١١) .

ويدرك نجيم [حق الادراك] اخطاء فخر الدين ؛ افتقاره للاعتدال وكونه على عجلة كبيرة من امره . ويلاحظ كذلك اتجاهاً نحو **الضغط** (الكبت ؟) الاقتصادي قبيل نهاية حكمه . مع ذلك كان حكم نجيم عليه واضحاً :

« وهكذا مات الامير . . اعظم امير ممن حكموا الجبل . عبقريته لا يرقى اليها الشك . لقد ترك شواهد خالدة ، اولها رخاء بيروت ولبنان الاقتصادي والذي هو صنع يديه والذي لا يزال حتى اليوم يضعهما

(*) كولبير هو وزير فرنسي مشهور في عهد لويس الرابع عشر ، قام باصلاحات عديدة لكنه انتهى نهاية مأساوية . (المترجم)

(١٩) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

في المصاف الاول بين دول الشرق (الليفانت) ، ويلي ذلك اقامة وحدة لبنان السياسية ، إقامة دولة لبنانية قادرة على ان تلعب دوراً كبيراً في سورية وكافة المشرق ، دولة رخية حظيت حتى في اوروبا بانتباه متعاطف . انه فشل بدون شك ولكنه كان قد أنار الطريق امام اللبنانيين بدروزهم وموارنتهم طريق وحدة الجميع للدفاع عن الاستقلال، إنه عزز هذه الوحدة بتقاليد حكومته المجيدة ، إنه أيقظ في مشاعر كل سكان الجبل الوعي بوحدتهم الوطنية ، لقد وضعهم في الصف الاول لكافة الشعوب السورية . ومنذ ذلك الحين كان جلياً ان خلاص واستقلال سورية لم يكونا ليأتيا الاّ عن طريق لبنان » (ص ١٣٦) .

اما بالنسبة للامير بشير المثير للجدل فقد ركز نجيم على سياسته التي وصفها بأنها سياسة حياد محسوب بين الولاة الاتراك للاقاليم السورية بهدف الاحتفاظ الدائم بميزان القوى بين دمشق وعكا . لقد بذل قصارى جهده في الداخل لاضعاف المشايخ الاقوياء والنظام الاقطاعي لإحكام قبضته على الجبل والساحل ، بشكل سيطرة اقتصادية ومركزية ادارية على الاخص . كان بشير يتمتع في رأي نجيم ، بعبقرية خاصة في التلون فبوسعه ان يظهر بمختلف انواع اللبوس الديني لإرضاء الجماعات السكانية المتعددة الاديان في بلده . ولا يثير نجيم امكانية هذا الامر على انه خرافة ، ويفترض ان اللبنانيين من مسلمين ومسيحيين ودروز قد خدعتهم حيلة بشير .

على انه لم يسع بشير ان يبقى محايداً الى الابد . فبحلول ١٨٣١ ، حسبما يراه نجيم « اضطرته الظروف للتخلي عن الحياد والاختيار ما بين تركيا ومصر » (ص ١٦٨) . فأدى هذا الى سقوطه والى نهاية العهد الشهابي . لكن تجربة بشير بالنسبة لنجيم احتوت عدداً من العناصر الايجابية : ١) ان التحالف بين محمد علي وبشير عزز الاتجاه نحو مركزية السلطة ؛ ٢) على الرغم من التوترات السابقة بين الدروز والموارنة ، التي تعمد اطلاقها كل من بشير ومحمد علي ، فإن الجماعتين دفنتا خلافاتهما وعداواتهما ووقعتا ميثاق دير القمر لسنة ١٨٤٠ . ٣) ان المعركة الحاسمة ضد محمد علي وحّدت الجميع في جبهة مشتركة وبذا ساعدت على وضع نوع ما من الوحدة ؛ ٤) انزال البريطانيين كميات هائلة من الذهب والطعام والسلاح والعتاد لادامة الثورة ضد المصريين ؛ ٥) واخيراً ، لم تعد المسألة السورية ، لاسيما ببعدها اللبناني ، من الشؤون العثمانية الداخلية . لقد جرى تدويلها (« لقد دخلت نهائياً في المجال الدولي ») (ص ١٦٨) . وهو تطور يرحب به نجيم . مع هذا فإن فرنسا بمساعدتها محمد علي قد خسرت بعض الشيء ؛ إن دورها كوسيط بين الدولة العثمانية والجماعات المسيحية قد انتقل الى دول الوفاق الاوروبي بقيادة انكلترا .

وباختصار ، رأى نجيم خلال العهد المعني واوائل العهد الشهابي انحساراً للسياسة القائمة على الدين امام سياسة الامارة والنظام الاقطاعي المعدّل ، ونشوءاً لطبقة من الوجهاء (الاعيان) الذين تتجاوز مصالحهم الاقتصادية الانتماءات الدينية . لذا فالانقسام الثنائي

السياسي في لبنان لم يكن انقساماً درزياً ـ مارونياً بقدر ما كان انقساماً قيسياً ـ يمانياً . الى جانب ذلك كان لدى جميع الجماعات مصلحة في بقاء العثمانيين خارجاً وفي الدفاع عن حكم ذاتي متقلقل . وإنه بهذا المعنى ان جرت صياغة نظام حكم يتخذ قاعدة « لحركة التحرر والاستقلال من العثمانيين » (ص ١٦٧) .

والعلاقة البارزة الحاسمة الاخرى في تجربة لبنان التاريخية هي « المتصرفية » . ويحلل نجيم بعناية عند وضعه للائحة الحساب النتائج الايجابية للمتصرفية وآمالها الخائبة ، وذلك قبل ان يبادر بعرض منهاجه للاصلاح السياسي والاقتصادي . وهو يعتقد ان العناصر الايجابية كانت متعددة . فأولاً ، وعلى حد قوله « كان جبل لبنان خارج السلطة المباشرة للباب العالي العثماني ، وقد وضع بصورة واضحة تحت الوصاية الجماعية (tutelle) للدول الكبرى ، والتي شارك ممثلوها فعلياً بترشيح المتصرف » (ص ٥٤٤)(٢٠) . كان الحكم الذاتي اللبناني آخذاً بالنمو ، موفراً بذلك نموذجاً يحتذى للاقاليم السورية الاخرى . ثانياً ، اضحى السلام الداخلي حقيقة واقعة وكان يجري نسيان احداث ١٨٦٠ تدريجياً . ثالثاً، على الرغم من كل انواع الصعوبات تركزت الحياة الوطنية والسياسية ، « كما هو الحال في اوروبا الغربية » ، على قضايا سياسية واقتصادية ، فتطورت بالفعل برامج معينة بصرف النظر عن الانتماءات الدينية . وباختصار يزعم نجيم انه كان هناك « نشوء متواصل للديموقراطية في لبنان » (ص ٥٤٤) . رابعاً ، كان هناك بعض التقدم في التطور الاقتصادي ، لا على الصعيد التجاري بقدر ما هو على صعيد البنية الاساسية [التحتية] .

مع هذا فقد كانت الآمال الخائبة عديدة ايضاً . يقول نجيم باديء ذي بدء ان الجبل في الفحوى الاقليمي قد جرى تمزيقه بمرسوم Règlement ١٨٦١ . فإعادة الترتيب الاقليمي التي جزّأت البلاد بصورة مصطنعة كانت شنيعة بالنسبة لنجيم من باب اولى لأنها جرت من قبل الدول الاوروبية نفسها التي ساعدت على تكوين الوحدة الايطالية والالمانية (ص ٥٣١) . فضلاً عن ذلك، كانت سياسة منح المتصرف سلطات مطلقة عبارة عن خطوة ترجع القهقرى . وعلى اي حال فهذه الشخصية البارزة ينبغي ان تنتخب من بين اهالي البلاد . ثم ان مبدأ الاعتراف [الكاثوليكي] كان يلقى كذلك تزكية رسمية(٢١) .

---

(٢٠) لقراءة مختلفة للتجربة العثمانية وامكانية التقدم ، انظر : سليمان البستاني ، **عبرة وذكرى او الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده** ، طبعة اخرى تحقيق ودراسة خالد زيادة (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٨) ، ص ٢١٤ ـ ٢٢٩ .

(٢١) Naujaim [Jouplain], *La Question du Liban...*, p. 477. كان عداء نجيم للمتصرفين ، وخاصة لداود باشا يراميان ، شديداً . وقد اشار اسد رستم الى هذا الطابع في كتابات نجيم وانتقده عليها في مؤلفه : **لبنان في عهد المتصرفية** (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٣) ، ص ٨٥ .

واخيراً ، فإن استيطان الجبل كان يجري بنسبة ثلث ما كان عليه سكانه في الثلاثين سنة من ١٨٧٠ الى ١٩٠٠ وذلك لصالح امريكا الشمالية والجنوبية ومصر [عن طريق الهجرة] .

فأين يقع اللوم ؟ وما الذي يجب عمله ؟ رأى نجيم باديء ذي بدء ان اللبنانيين انشط شريحة من سكان سورية واكثرهم كداً ، مع دور ريادي ليلعبوه في الوصول بالوحدة القومية والتقدم الى سورية : « انهم وحدهم القادرون على ان يلعبوا في هذه المناطق ذات المجد القديم ، الدور الذي لعبته مقاطعة بيمونت الايطالية في ايطاليا . اللبنانيون هم بيمونتيو سورية . فلنتركهم الدول يلعبوا ذلك الدور في سوريا »(ص ٥٣١) . تصور نجيم بوضوح اذاً ، في ١٩٠٨ ، قيام لبنان ضمن اطار قومي سوري ، وله دور طليعي . اما بشأن التشبيه بـ بيمونت Piémont فإنه جدير بالذكر ومبتكر فيما يخص طبيعة الارض والدين واهمية عامل الحرير . ولغرض تحقيق ما تصوره فإن الامر يتطلب اعادة تكوين لبنان الطبيعي ، ويتطلب على حد قوله استرداد طرابلس وعكار ، والبقاع ، ومرجعيون ، ومنطقة الحلوة في الجليل وصيدا وبالطبع بيروت .

ومن الامور الحاسمة في اهميتها كذلك الحاجة الى ايقاف سيل الهجرة الى الامريكيتين . وهنا يقترح نجيم اجراء جذرياً ومثيراً للجدل جداً ، ويصر على انه الاجراء الوحيد الذي يمكن بواسطته حل مشكلة الهجرة : الا وهو وضع حد للاملاك الموقوفة (mainmorte) : اي وضع حد للاراضي التي بعهدة الفرق الاكليريكية والاديرة ، التي لا تعود ملكيتها لها شخصياً ولا يمكن تحويل رقبتها الى الغير(٢٢) . يقول نجيم انه لا يريد ان يظهر ذلك « كاجراء متعصب مناهض للاكليروس » (ص ٥٢٦) بل يريد ان ينظر اليه بما ينطوي عليه من مصلحة عامة . وهو يصر على ان المؤسسة الكهنوتية لها تأثير مدمر على الاقتصاد لأن سياستها ترمي الى محض اكتساب المزيد من الاملاك الموقوفة ثم تترك بعدئذٍ دون استثمار ودون ان يستطيع الفلاحون الذين هم بأمس الحاجة للأرض ان يمدوا ايديهم اليها . فما هو افضل طريق للبدء؟ ان الحل الجذري ضروري : مصادرة الوقفيات الرئيسية العائدة للفرق الاكليريكية لقاء تعويض ، « واصدار قانون يمنعها من حق اكتساب المزيد من الارض » (ص ٥٢٧) . وهو يقترح اضافة الى ذلك اخضاع المؤسسة الكهنوتية القوية لقوانين الضريبة نفسها ، حالها حال جميع الآخرين في البلاد . ولا بد ان يتذكر المرء ان نجيم كان يكتب في فرنسا ، اما الستارة التي خلف مسرحه فهي التشريع المناهض للاكليروس الذي اصدرته الجمهورية الثالثة ، ومن الواضح انه كان متأثراً بصورة عميقة بهذا التيار .

---

(٢٢) Noujaim [Jouplain], Ibid, p. 530.

ونكتفي بهذا بشأن المسألة ، كما كان ينظر اليها في ١٩٠٨ . اما اذا ظهر بعض الغموض او حتى التشويش بشأن مصطلحي سورية او لبنان فهذا امر طبيعي . فالمرء سيلاحظ الغموض نفسه في مؤلف المطران يوسف دبس المتعدد الاجزاء والمعنون « تاريخ سورية » والذي يمثل افضل كتابة مارونية للتاريخ ، كما يلاحظ في كتاب « سورية » لخير الله المنشور سنة ١٩١٢ والذي يمثل الاتجاه العلماني[٢٣] . ان نجيم نظر في هذا الصدد، ورغم التأكيد الواضع على موضوعات الخصوصية والعلاقة الخاصة مع فرنسا ، نظر مع ذلك الى اللبنانيين على انهم طليعة الامة السورية في المستقبل : اي الصيغة البيمونتية ، إذا اردنا استعمال تشبيه اوروبي استعمله نجيم نفسه . وبعبارة اخرى فإن نجيم ما كان ، في هذه المرحلة ، ليختلف كثيراً عن اللجنة السورية في باريس بقيادة جورج سامنه وشكري غانم .

- ٥ -

إن اهمية سنة ١٩١٩ ليست بحاجة الى المبالغة في امرها . فالحلفاء في فرساي لم يحققوا اي تقدم في محاولتهم الوصول الى اتفاق عن سورية . وقد كتب مصدر امريكي ، وهو وكهام ستيد Wickham Steed ، يصف الجو المتوتر لمفاوضات آذار / مارس ١٩١٩ فيقول : « بُحثت في الاجتماعات المسألة السورية والاتفاقات الفرنسية - البريطانية بخصوصها ، وكذلك المعاهدات السرية عامة ، وكانت النتيجة ان اصبحت البلبلة مقيتة . وخرج الرئيس ولسن من الاجتماع يلعن الجميع وكل شيء قائلاً انه لم يفعل شيئاً سوى الكلام لثمانٍ واربعين ساعة ، وانه أخذ يشمئز من الامر كله »[٢٤] . ولم يمض وقت طويل حتى اجتمع ، في نيسان / ابريل ، كليمنصو والامير فيصل فحاولا تضييق شقة الخلاف في وجهات نظرهما . اما مسودة الاقتراح الفرنسي ، الذي سُحب في الواقع حينما رفضت الحكومة الفرنسية مسودة جواب فيصل ، فقد وافق بشكل له مغزاه « على الاعتراف بحق سورية في الاستقلال بشكل اتحاد فدرالي بين الادارات المحلية المتمتعة بالحكم الذاتي بصورة تعكس تقاليد السكان ورغباتهم »[٢٥] . وربما تكون بعض هذه المعلومات قد تسربت الى جماعات الضغط اللبنانية في باريس وكذلك الى الاوساط المؤيدة لفرنسا في بيروت . وعلى اي حال ، وكما يقول Gontaut - Biron الذي وضع دراسة مفصلة لسنة ١٩١٨ - ١٩١٩ في كتابه Comment la France s'est installée en Syrie « كيف حلّت فرنسا في سورية » فإن الموارنة قد اقلقهم خطاب لجورج بيكو القاه في دمشق في كانون الثاني /

(٢٣) Khairallah, *La Syrie*, pp. 139-140.

(٢٤) Zeine, *The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria*, p. 79.

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

يناير ١٩١٩ انطوى على علاقات وثيقة بين فرنسا وفيصل[٢٦] . وبوصول فيصل الى بيروت من فرنسا وعلى باخرة حربية فرنسية فإن قلق اولئك الذين يفضلون قيام لبنان مستقل تحت سيطرة فرنسية قد تصاعد الى درجة اعلى . فلما كُشف النقاب عن ان لجنة امريكية ستزور الشرق الادنى للتحقق من رغبات الناس موقعياً ، تنادى مؤيدو فرنسا فجمعوا صفوفهم بصورة فعّالة وذلك لضمان سماع صوتهم .

فكيف رأى نجيم « المسألة اللبنانية » في تموز / يوليو ١٩١٩؟ انه يبدأ مقالته قائلاً : « إن الازمة اللبنانية حريصة على استقلالها » (ص ٦٦) ، ومهتمة بشأن سيادتها الوطنية ، تطالب لنفسها بوجود سياسي حر ومستقل ، يلائم مركزها الجغرافي وماضيها التاريخي . إن هذا يعني عملياً ، بالنسبة الى نجيم ، اعادة تكوين لبنان الكبير «Liban de la grande époque: Le Grand Liban» (ص ٦٦) .

ويناقش نجيم الامر قائلاً أن اضافة الاراضي المبينة سلفاً لها اسبقية اعظم على طبيعة نظام الحكم او شكل الحكومة المفروض على البلاد. وقد يبدو هذا مستغرباً من النظرة الاولى . لكن الاسباب واضحة : إن لبناناً صغير الحجم ، لبنان المتصرفية **الضيّق** او [المخنوق]، مكشوف للمخاطر الاقتصادية ويكاد لا يسعه العيش على مؤونة شهرين من القمح الذي ينتجه . ويوضح نجيم ، وهو يقتبس كثيراً من التحليل المتبصر لمستقبل لبنان الاقتصادي الذي وضعه ألبرت نقاش ، ان التوازن الاقتصادي يعتمد في الاوقات الطبيعية على ثلاثة عوامل رئيسية ، كلها خارجية . الاول هو التحويل المتدفق للذهب من اللبنانيين المغتربين في الامريكيتين ، ويمثل في حصيلته الصافية مئة مليون قرش سنوياً . والثاني هو حرية استيراد بعض دود القز من فرنسا وايطاليا ثم تصدير الحرير من مختلف الاشكال . والثالث هو الاستيراد المتدفق للقمح والحبوب الاخرى من الداخل بمعدل ٨٠ مليون قرش سنوياً[٢٧] . إن اي إخلال خطير سيؤدي بكامل اقتصاد « لبنان **اصغر** » الى التوقف ويقود الى المجاعة كما حدث في الحرب العالمية الاولى . إن لبناناً **اكبر** ، يرسم وفق حدود خرائط الاركان العامة الفرنسية لسنة ١٨٦١ و ١٨٦٣ سيكون من جهة اخرى وحدة قومية واقتصادية قابلة للحياة . ويعني هذا وفق الجداول الاحصائية التي يقدمها اضافة نحو ١٥٠٠٠٠ سني و ٩٠٠٠٠ شيعي الى سكان لبنان المتصرفية . وباختصار سيصل عدد الموارنة في النهاية الى ٢٧٠٠٠٠ من اصل سكان يبلغ عددهم ٨٥٠٠٠٠ نسمة . ولا يبدو ان نجيم ينظر الى هذا الوضع المتوقع بفزع من اي نوع . فهو يعتقد ان اللبنانيين **ناضجون**

(٢٦) Roger de Gontaut-Biron, *Comment la France s'est installée en Syrie, 1918-1919* (Paris: Plon-Nourrit, 1922), p. 233.

(٢٧) Noujaim [Jouplain], *La Question du Liban*, p. 75.

لنظام حكم ديموقراطي يخلو من جميع الوشائج الاجنبية (mûrs pour un régime democtrati-que, libre de toute affinité, extérieure.) ، كما يعتقد ان اللبنانيين يؤلفون كلاً عضوياً ، كياناً قومياً ، « يوحده الماضي المجيد والعرف المشترك والتاريخ الوطني ، وفيه ينتسب الجميع الى العرق نفسه » (ص ٧٥) .

ثمة شيء واحد محيّر في مقال ١٩١٩ : فنجيم ، وهو يعيش تحت ظل ادارة عسكرية فرنسية ، لم يدع الى انتداب فرنسي كما كان يدعو الكثير من الشخصيات الاخرى من الانتلجنسيا الفرنسية الهوى على صفحات الجريدة نفسها وغيرها . فكيف يفسّر المرء ذلك ؟ هل كان لدى نجيم هاجس بأن البلاد إنما ستستبدل متصرفاً بآخر : مظفر باشا بجورج بيكو ؟ هل ان أيام تلمذته في باريس قد كشفت له الطبيعة الحقيقية لادارة استعمارية فرنسية؟ هل كان سياسياً من الحصافة بمكان يجعله يدرك ان العديد من الاشياء يمكن أن تبرز من ميوعة ١٩١٩ وان من الحكمة الابقاء على ما يمكن من الخيارات مفتوحة ؟ كما ان هذا ليس بمستغرب اذا تذكرنا ان الوفد اللبناني الاول الى فرساي قبل في كانون الاول / ديسمبر سنة ١٩١٩ كاحد الخيارات « حكماً ذاتياً ضمن سورية الكبرى تحت النفوذ الفرنسي »[٢٨] . ومهما كان الجواب فإن شيئاً واحداً هو مع ذلك واضح ، اذ رفض نجيم فكرة جيب enclave صغير لجماعته السكانية ؛ لقد تصور في ذهنه بدلاً من ذلك لبناناً قادراً على الحياة اقتصادياً ، ومتعدد الديانات . إن الفرق الرئيسي بين كتابات ١٩٠٨ و١٩١٩ هو ان البعد السوري يبدو وكأنه قد انحسر ، كما ان النموذج البيمونتي لم يعد موجوداً .

- ٦ -

فأي مكان تحتله افكار نجيم في فكر الانتلجنسيا المارونية والروم الكاثوليك المتعدد الالوان جداً بشأن مستقبل لبنان ؟ ففي احد الاطراف وهو طرف الوحدة العربية الجامعة ، لم يكن لدى نجيم الا قليل من الامر المشترك في الاتجاه المتمثل بمنهاج نجيب عازوري عن عصبة الوطن العربي Ligue de la Patrie Arabe باستثناء العنصر الفرنسي الهوى والتأكيد على حكم ذاتي لبناني . اكد عازوري انه « لا يوجد من دجلة الى برزخ السويس ومن المتوسط الى بحر عمان سوى امة واحدة ، الامة العربية ، التي تتكلم اللغة نفسها ، وتملك التقاليد التاريخية نفسها وتدرس الادب نفسه ، وكل فرد من هذه الكتلة العرقية فخور بكونه مواطناً في الوطن العربي »[٢٩] .

(٢٨) Georges Samné, *La Syrie,* préface de Chekri Ganem (Paris: Bossards, 1920).

(٢٩) Négib Azoury, *Le Réveil de la Nation arabe dans L'Asie turque en présence des intérêts et des rivalités des puissances étrangères, de la curie romaine et du patriarcat oecuménique, partie asiatique de la question d'Orient et programme de la Ligue de la Patrie arabe* (Paris: Plon, 1905), p. 164.

ولم يكن نجيم ، في الطرف الآخر من ذلك الفكر المتعدد الالوان والذي يمكن تسميته بطرف لبنان المتفرنس ، يشارك آراء فرديناد تيان الذي تصور لبنان في ١٩١٧ على انه « محمية على نمط محمية حرة صلبانية » مع امير ماروني بالوراثة يدير الشؤون المحلية ، تاركاً الشؤون الخارجية في يد الحاكم العام الفرنسي المقيم في دمشق[٣٠] . وتعقيداً للأمر اكثر فأكثر سيكون الحاكم الفرنسي عاملاً في بيروت بمثابة « المقيم الفرنسي العام لدى امير لبنان » . وهنا يضيف تيان : « بأن ذلك يعني بأن سورية قد يكون استعمارها ممكناً بشرط الَّا يقام الَّا شكل واحد من الحماية على جبل لبنان »[٣١] . وستكون لغة الامارة هي اللغة الفرنسية كما سيكون إشغال المناصب العليا في الادارة المحلية بالاشتراك مع الفرنسيين « على اساس اخوي » .

كما لم تكن آراء نجيم متفقة ، لا سيما بعد ١٩١٩ ، مع الآراء التي عبّر عنها سوري **انضمامي** مثل **ندرة مطران** ، او مع تلك التي عبّر عنها شكري غانم وجورج سامنه اللذان دعيا الى عضوية لبنان في كونفدرالية او فدرالية سورية واسعة ، مع تولي فرنسا دور المرشد تحت نظام الانتداب ، يكون فيصل خارجه .

لقد قرأ ندرة مطران تاريخه بشكل مختلف جداً عن بولص نجيم . فكتب في ١٩١٦ يقول : « إن لبنان هو جزء لا يتجزأ من سورية ؛ وليس هناك ما يميزه عن سورية من وجهات النظر التاريخية والعرقية والتجارية »[٣٢] . وانتقد « السيكولوجية السياسية » السائدة التي تبغي نسج الخرافات والاساطير حول المسألة اللبنانية ، فيقول « إن لبنان ابتداء لم يكن مستقلاً قط »[٣٣] . والحكم الذاتي الذي تمتع به قبل ١٨٦٠ « كان صورياً فقط ولا يختلف عن الحكم الذاتي الذي تمتعت به كل الاقاليم السورية تقريباً »[٣٤] .

اما بالنسبة لجورج سامنه فقداستهل مناقشته في ١٩١٩ و١٩٢٠ بالقول « بأن لبنان يمكن بسهولة ادخاله في كونفدرالية سورية ، دون ان يخسر شيئاً من حقوقه وامتيازاته »[٣٥] . وحذّر يقول : « إن الحكم الذاتي اللبناني لا معنى له بدون اطار سورية الكبرى ؛ فحتى مع بيروت والبقاع سيؤول الجبل اذا انعزل عن الجسد السوري الى حياة **تافهة** وغير واثقة ، حياة بدون مستقبل »[٣٦] .

(٣٠) Ferdinand Tyan, *France et Liban: Défense des intérêts français en Syrie* (Paris: Perrin, 1917), p. 78.

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

(٣٢) Nadra Mutran, *La Syrie de demain* (Paris: Plon, 1917), p. 97.

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

(٣٤) المصدر نفسه .

(٣٥) *Samné, La Syrie,* p. 232.

(٣٦) المصدر نفسه .

واخيراً ، لم يكن نجيم يتعاطف مع الاتجاه المؤيد لفيصل الممثل باسكندر عمون او سعدالله هويدة . لقد ظل مثله الاعلى من ١٩٠٨ الى ١٩١٩ هو لبنان العصر الزاهر Liban de la grande époque متطوراً الى لبنان الكبير . وكانت اصالة نجيم المبدعة تكمن في استعماله الحذر لحقائق الجغرافية السياسية وللاقتصاد وذلك لتعزيز رؤية امرىء قومي ليبرالي ومنهاجه ، امرىء حساس للتكوين المتعدد الجماعات للمجتمع اللبناني وللدور القيادي لجماعته السكانية معاً .

الفصل السادس

الشيخ عبد القادر القبّاني وجريدة ثمرات الفنون

هشام نشّابة

تأتي الكتابة اليوم عن الشيخ عبد القادر القباني في وقت مناسب جداً ؛ ففي العام الماضي حلّت الذكرى المئوية لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت[1] ، والتي أسسها الشيخ سنة ١٨٧٨ والتي تبقى احد اهم إنجازاته من اجل نهضة الجماعة الاسلامية في لبنان . بيد ان اهتمامنا في هذه المقالة سينصب على « ثمرات الفنون » ، الجريدة التي أسسها قبل بضع سنين من تأسيس المقاصد .

وإنه لمن المفارقات أن يكون الشيخ القباني موضوعاً لدراسة في ندوة مكرسة لدراسة «أبعاد غير مستكشفة» ؛ فإذا كان معيار اهمية شخصية ما هو النفوذ الذي مارسه، ليس فقط على معاصريه ، بل ايضاً على اجيال لاحقة ، فالشيخ القباني ربما يبرز كشخصية من اهم الشخصيات في تاريخ الثقافة الحديث في لبنان . إن جمعية المقاصد التي أسسها واصبح رئيساً لاول مجلس ادارة فيها تدير الآن نحو ٧٥ مدرسة في لبنان ، تضم من التلاميذ ما يزيد تعداده على ٢٦٠٠٠ ، ومن المدرسين نحو ١٣٠٠ ، بالاضافة الى مستشفى وخدمات اجتماعية متعددة ، فتكون الجمعية بذلك اكبر مؤسسة خاصة تعليمية واجتماعية في الوطن العربي وربما في العالم الاسلامي برمته[2] .

وان شخصية الشيخ القباني شخصية فذّة بكل ما في الكلمة من معنى ، فهو مفكر

---

(١) جهينة حسن الايوبي ، « جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت ، » (رسالة ماجستير ، دائرة التربية ، الجامعة الاميركية في بيروت ، ١٩٦٦) .

(٢) المعلومات المتعلقة بجمعية المقاصد متوافرة في كتبها السنوية وفي التقارير المنشورة لرئيسها الحالي صاحب المعالي السيد صائب سلام .

اجتماعي يتطرق في مقالاته الى القضايا الاجتماعية في المجتمع الشرقي عامة واللبناني خاصة ، وهو مفكر سياسي يعالج قضايا التحرر في الدولة العثمانية ويسهم في مقاومة الاستبداد تارة وفي تنمية الروح القومية تارة اخرى ، وهو رجل اعمال جريء وصاحب مبادرات تجارية كما سنتبين من عرض سريع لحياته . غير ان اهتمامنا الاساسي موجه الى عمله في ميدان الصحافة ، اي الى نشاطه في «ثمرات الفنون » .

ستقسّم هذه الدراسة الى قسمين رئيسيين :

- حياة القباني .
- ثمرات الفنون ؛ تاريخها ، سياستها ، وأثرها .

وقد جرى اغفال دراسة جمعية المقاصد عمداً لأنها تخرج عن نطاق هذه الندوة ، وتستحق بحثاً مستقلاً .

اولاً : حياة القباني

وُلد الشيخ عبد القادر القباني في بيروت سنة ١٢٦٤هـ / ١٨٤٧م[٣] . وابوه مصطفى أغا بن سيد عبد الغني القباني الذي يدّعي الانحدار من سلالة زين العابدين ، حفيد الامام الحسين بن الخليفة الرابع علي بن ابي طالب .

وقد جاءت عائلة القباني في الاصل من الحجاز . ويقال انها انتقلت اولاً الى العراق ثم جاءت الى سورية في القرن الحادي عشر الميلادي واقامت في مدينة جبيل . وبعدها انتقلت الى بيروت حيث يسكن عدد من ذريتها حتى يومنا هذا .

وتفيد المعلومات غير المؤكدة ان مصطفى اغا ، جد الشيخ عبد القادر ، قاتل في سنة ١٨٣٢ جيوش ابراهيم باشا الغازية في لبنان . ويقال ان مصطفى آغا جُرح في القتال وأُخذ أسيراً الى مصر ، فاستطاع ان يهرب من هناك لكي ينضم الى قوات الخليفة في اسطنبول . وامتعض ابراهيم باشا من هربه فأمر بنفي عائلة مصطفى آغا الى قبرص حيث اقامت الاسرة الى حين جلاء القوات المصرية عن بلاد الشام . وهكذا ، ففي حوالى سنة ١٨٤٠ عادت اسرة القباني الى بيروت حيث عاشت منذ ذلك الحين حتى الآن .

ولا يعرف الّا القليل عن بواكير حياة الشيخ عبدالقادر وتعليمه ؛ وفي اغلب الظن

(٣) تم جمع المعلومات عن حياة القباني من قبل الكاتب بواسطة مقابلات مع بعض اقرباء القباني الذين لا زالوا يسكنون بيروت .

انه شأن الولدان الآخرين في زمنه ، قد درس في « الكتّاب » التقليدي . كان نظام التعليم العثماني الذي يشهد اول اصلاحاته في ذلك الحين انما يشمل جزءاً ضئيلاً جداً من جمهرة التلاميذ الذين في سن الدراسة . بيد انه يقال ان الشيخ القباني قد درس في « المدرسة الوطنية » التي اسسها في بيروت بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣)[٤] . ومدرسة البستاني ، كما يشير اسمها هي ذات توجّه « وطني » اكثر مما هو توجه ديني[٥] . ونحن نعرف كذلك ان القباني قد تعلم على يد عدد من علماء المسلمين المرموقين في عصره ، وصار بعضهم فيما بعد من مشاركيه في مشاريعه الاجتماعية ومن المتعاونين معه في ميادين الفكر والاصلاح . وتنبغي الاشارة بصورة خاصة من بين معلميه الى الشيخ يوسف الاسير ، والشيخ محيي الدين اليافي والشيخ ابراهيم الاحدب[٦] ، وكلهم شغل مراكز بارزة في الوسط العلمي ببيروت .

ومن المستبعد جداً ان يكون الشيخ القباني قد تلقى تعليماً اصولياً من اي نوع بعد مغادرته مدرسة البستاني . إنه بالتأكيد لم يدرس في الازهر كما فعل اغلب العلماء البارزين في زمنه . ولا بد من انه كان قد اكتسب لقب الشيخ نتيجة اتصاله بعلماء بيروت المحليين ودراسته على ايديهم . وينبغي ان نذكر ان بيروت لم تكن بعد قد اكتسبت ، في اواخر القرن التاسع عشر ، صيتها كمركز اسلامي للعلم ، وهو صيت اكتسبته منذ اوائل القرن العشرين واحتفظت به حتى يومنا هذا . وكان اكتساب بيروت لهذا الصيت منذ تأسيس المقاصد الاسلامية على وجه التقريب ، وتأسيس معاهد علم مشابهة كمدرسة الشيخ احمد عباس الازهري ، وهو معلم بارز آخر ، يستحق دراسة خاصة .

وما أن غادر الشيخ عبد القادر المدرسة حتى بدأ يزاول حياة عملية عامة نشطة جداً . لقد ظهر اسمه في سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣ بين اسماء الاعضاء لجمعية تعرف باسم « جمعية الفنون » وكان رئيسها الحاج سعد حمادة . وهدفها المعلن هو « مساعدة الفقير ونشر المعرفة » . ولا يعرف الا القليل عن هذه الجمعية، ولكن لم يغب هذا الهدف عن بال القباني طيلة حياته . ويعود الفضل الى جمعية الفنون في شراء مطبعة صدرت عنها « ثمرات الفنون » التي كانت إجازتها الرسمية باسم القباني . وقد ظهر العدد الاول من « الثمرات » في ١٥ ربيع الاول ١٢٩٢هـ / ٢٠ نيسان / ابريل ١٨٧٥م .

(٤) كامل م . داعوق ، **علماؤنا** (بيروت : ١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠) ، ج١ .

(٥) البرت حوراني ، **الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩** ، ترجمة كريم عزقول (بيروت : دار النهار ، ١٩٦٨) ، ص ١٢٩ .

(٦) حول اهمية الاسير والاحدب ، انظر : مارون عبود ، **رواد النهضة الحديثة** (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٢) ، ص٧٢ - ٧٧ .

ويحسن ان نتذكر السياق الفكري العام ـ وعلى الاخص السياق الصحفي ـ الذي ظهرت فيه « الثمرات » . ذلك ان هذا السياق هو الذي اعطى الصحيفة طابعها المتميز .

لقد شهد القرن التاسع عشر في لبنان نشاطاً صحفياً مرموقاً ؛ ويمكن تصنيف الجرائد والمجلات التي ظهرت على اساس حقول اهتمامها الرئيسية : الاجتماعية ، السياسية ، الادبية . . . الخ . غير انه يمكن ايضاً ان تصنف هذه الصحف حسب المؤسسات او الاتجاهات التي تمثلها . فإذا صنفت وفق هذا المعيار الاخير فإننا نجد « ثمرات الفنون » تسير في التيار الاسلامي ، المؤيد للعثمانيين ، في حين ان « البشير » تمثل معاهد الارساليات الكاثوليكية ، وعلى الاخص جامعة القديس يوسف (المؤسسة في ١٨٧٦) والمدارس التابعة لها . وكانت تساند معاهد الارساليات المذكورة الاقليات الكاثوليكية المحلية في سورية ولبنان من جهة ، وفرنسا بالدرجة الاولى من جهة اخرى . اما الارساليات البروتستانتية التي تمثلها بالدرجة الاولى الكلية البروتستانتية السورية (المؤسسة في ١٨٦٦) فقد كان لديها [من الصحف] « كوكب الصبح المنير » ، و« النشرة الاسبوعية » ، وبعدئذٍ « الجنينة » لسليم البستاني .

وهكذا فحين بدأ القباني نشر جريدته « الثمرات » . . . اعتبرت على الفور الناطقة باسم المسلمين . وقد ظلت هذه الصلة بين « ثمرات الفنون » وبين الاتجاه العثماني والرأي العام الاسلامي قائمة حتى توقُّف الجريدة عن الصدور في ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٨ ، بعد ٣٤ عاماً من ميلادها . وسنبحث فيما بعد في هذه الدراسة الى اي مدى من الدقة مثلت « الثمرات » وجهة النظر العثمانية ـ الاسلامية . ولنستمر الآن في تقديم تاريخ حياة الشيخ عبد القادر .

كانت جمعية الفنون قصيرة العمر . غير اننا لا نعرف بالضبط متى توقفت . وواصلت « الثمرات » ظهورها نتيجة الدعم الفعّال من القباني . لكن تحرير جريدة من الجرائد ، مهما كان ذلك مهماً ، ما كان ليرضي الشيخ الطموح . ولذا نجده منهمكاً في العمل السياسي العام وبخاصة تأييد مشروع السلطان عبد الحميد لبناء سكة حديد دمشق ـ الحجاز ، وهو احد مشاريع السلطان المهمة التي كان يأمل ان يساند بها دعوته لتعزيز الوحدة الاسلامية تحت سلطة آل عثمان .

وفي ١٨٧٨ قام الشيخ عبد القادر مع بعض زملائه في جمعية الفنون بتأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت والتي اصبحت في النهاية نموذجاً لعدد من الجمعيات التعليمية الاسلامية الاخرى في لبنان والوطن العربي. ففي السنة نفسها تأسست في صيدا جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، ثم تأسست في وقت لاحق على هذا النموذج جمعيات بالاسم نفسه في القدس وغيرها من المدن في سوريا ولبنان .

وفي الوقت نفسه تقريباً أشرف الشيخ القباني على بناء المدرسة السلطانية التي شيدتها الادارة العثمانية المحلية . وستصبح هذه المدرسة فيما بعد « ثانوية البنات » (التابعة لجمعية المقاصد) . وما ان اكتمل بناء المدرسة حتى عين القباني مسؤولاً عنها .

وفي عام ١٨٨٠ اصبح الشيخ عبد القادر عضواً في المجلس الاداري للواء بيروت ، وفي حوالى ذلك التاريخ تقريباً عيّن قاضياً في محكمة البداية . ثم رُقّي سنة ١٨٨٨ في عمله القضائي الى محكمة استئناف بيروت . وفي ١٨٩٨ كان رئيساً لبلدية مدينة بيروت . وعند توليه لمنصبه هذا ، زار بيروت الامبراطور فردريك ويلهلم الثاني ، فقلد العاهل الزائر وساماً للشيخ عبد القادر . وفي نهاية توليه لبلدية بيروت عين مديراً للمعارف فيها . وفي هذه الاثناء ، في السنين الخمس الاولى من القرن العشرين ، نجده يترأس لجنة لجمع الاموال لغرض بناء مدرسة « الصنايع » المهنية في بيروت والتي دشنت في ١٩٠٦ وهي التي تبقى حتى يومنا هذا من اهم الآثار العثمانية في المدينة .

وفي ١٩٠٨ ، وبعد صدور المشروطية التي جاءت بجماعة تركيا الفتاة الى الحكم في اسطنبول ، لم يعد الشيخ عبد القادر يتمتع بالحظوة لدى السلطات العثمانية الجديدة ، وذلك لمدة مؤقتة ؛ فقد اتهم بإثارة المشاعر القومية العربية التي كانت السلطات العثمانية معادية لها .

عندئذٍ تحول القباني الى نشاط ذي طبيعة تجارية . لكنه أثبت حتى في هذا المجال انه رائد من الرواد . وهكذا أسس مشروعاً تجارياً للتنقيب عن النفط في سورية ولبنان ، ولجأ الى معونة مهندسين المان في هذا الحقل . بيد ان هذا النشاط انقطع في ١٩١٤ باندلاع الحرب العالمية الاولى .

وخلال السنين الاولى من الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان أناطت سلطات الانتداب بالشيخ عبدالقادر إدارة الاوقاف الاسلامية . وفي اثناء توليه لمنصبه في الاوقاف تملكت جمعية المقاصد قانونياً المقابر الاسلامية في بيروت المعروفة « بالسمطية » و« الخارجية » و« الغرباء » و« الباشورة » وفي اواسط العشرينات أعفي القباني من ادارة الاوقاف حينما أدركت السلطات الفرنسية اهمية هذه الادارة فقررت وضعها تحت الاشراف المباشر لدائرة المندوب السامي الفرنسي .

وتوفي الشيخ القباني في بيروت في آب / اغسطس ١٩٣٥ عن عمر يناهز الثامنة والثمانين .

ثانياً : « ثمرات الفنون »

ظهرت « ثمرات الفنون » في بداية الامر كمجلة اسبوعية ، لكنها شأن عدد من الصحف في ذلك الزمن ، لم تكن تصدر بانتظام تام ؛ فهي تظهر احياناً مرتين في الاسبوع ، واحياناً مرة واحدة في كل اسبوعين . وقد وصفها مؤسسها في العدد الاول بأنها جريدة « سياسية ، اقتصادية ، وادبية» . وفي الواقع كان نطاق المجلة واسعاً جداً ؛ فلا يكاد موضوع من المواضيع يخرج عن حقل اهتمامها . بيد ان المقالات الاجتماعية والادبية تبدو اكبرها عدداً ، مع انه ليس ضرورياً ان تكون اكثرها اهمية . وكان لتلك المقالات ، التقليدية جداً في الاسلوب والمحتوى معاً ، ميزة واحدة فقط هي انتقاد بعض الممارسات الشائعة في المجتمع الاسلامي لذلك العهد . اما الاشارات العرضية للمخترعات الجديدة في العلوم والطب والزراعة . . . فيشار اليها احياناً كمقتنيات ذات جدّة مثيرة اكثر من كونها امارات على التقدم . والموضوعات(٧) الرئيسية للصحيفة هي (من الصفحة التالية) :

والارقام هذه تعطي بصورة تقريبية فكرة عن اهتمام المجلة ، والاهم بالطبع هو محتويات الفقرات الاخبارية او التعليقات . ومن الجدير بالذكر ، مثلاً ، ان المقالات السياسية المؤيدة للعثمانيين غالباً ما كان يكتبها الشيخ عبد القادر نفسه . اما في موضوع الفلسفة فقد نُشرت سلسلة مهمة من المقالات عن « الدهريين » (اي الطبيعيين) ويفترض ان ذلك كان بتأثير السيد جمال الدين الافغاني الذي نشر كتيباً في الموضوع هاجم فيه بشدة المصلح الهندي السير سيد احمد خان .

أمّا كتاب المقالات التي ظهرت في « الثمرات » هم متنوعون ؛ فقد ساهم عدد من المسيحيين في الكتابة للصحيفة ؛ وأسهمت شخصيات من دنيا الادب في لبنان والبلاد العربية المجاورة بصورة تكاد تكون منتظمة ؛ والأسماء التي تلفت النظر على الاخص هي اسماء الشيخ ابراهيم الاحدب ، الشيخ يوسف الاسير ، الشيخ احمد طبارة ، واديب اسحق وسليم الشلفون . وتظهر كذلك ، لمرات اقل ، اسماء رشيد رضا ويعقوب صرّوف .

إن هذه امارة على الصلات الواسعة التي كانت لمحرري الصحيفة في الوطن العربي ؛ بل ان الصحيفة تدّعي وجود « مراسلين » لها في عدد من المدن الرئيسية في الامبراطورية العثمانية ـ اسطنبول ، دمشق ، اللاذقية ، قبرص ، عكا ، جبل لبنان ، حماه ،

---

(٧) لجدول بمقالات ثمرات الفنون وكتابها ، انظر : هدى صبح ، «صحيفة ثمرات الفنون ،» كلية التربية ، الجامعة اللبنانية ، [د.ت.] (مستنسخ) .

حمص ، صيدا ، يافا ، غزة ، طرابلس ، ازمير ، صور ، نابلس ، بورسعيد والاسكندرونة ، هذا إن ذكرنا اهم المدن . والصحيفة تذكر في ١٩٠٦ انها قد افتتحت لها مكتباً في بغداد .

الموضوعات الرئيسية لجريدة « ثمرات الفنون »
حسب عدد المقالات المخصصة لكل منها

الموضوع	عدد المقالات
اخبار ونقاشات اجتماعية	٥٨٨
سياسة ومعلومات سياسية	٥٧٠
كتب (دينية وادبية بالدرجة الاولى)	٣٦٠
انباء اقتصادية وتجارية	٢٤٠
طب وانباء طبية	٢٤٠
صحافة واخبار عنها	٢٣٤
اخبار سياسية مع تعليق احياناً	٢١٠
نصوص قوانين مع معلومات وتعليق	٢١٠
مدنية وحضارة	١٩٣
دين ـ انباء بالدرجة الاولى عن العالم الاسلامي ، مناقشات دينية	١٧٣
تعليم	١٥٥
أدب	١٥٠
صناعة ومخترعات جديدة	١٢٠
زراعة	١٠٦
تاريخ	١٠٥
فلسفة	٩٠
علوم عامة	٦٠
جغرافية ورحلات	٥٤
لغة عربية	٥٠
سير افراد	٣٦
آثار	٢٩
قصص قصيرة	٢٥
مسرح	١٩
اخبار رياضية	١٥

المصدر : استناداً الى : هدى صبح ، « صحيفة ثمرات الفنون ،» كلية التربية ، الجامعة اللبنانية ، [د.ت.] (مستنسخ) .

ونشرت في ١٩٠٠ انها قد مُنعت من الدخول الى الجزائر من قبل السلطات الفرنسية هناك على أساس انها تنشر مقالات تدعو فيها الى وحدة الامة الاسلامية .

ظهرت « الثمرات » بصورة تكاد تكون منتظمة لمدة ٣٥ سنة حسب التقويم الهجري - ٣٤ سنة حسب التقويم الميلادي -. وخلال تلك الفترة تولى تحريرها اثنان آخران من ابرز الشخصيات هما الشيخ ابراهيم الاحدب والشيخ احمد طبارة . وحين كان الاخير محرراً لها عُطلت الصحيفة مرات متعددة من قبل السلطات العثمانية . وفي ١٨٨٢ اضطرت للاحتجاب لفترة قصيرة بسبب صعوبات مالية . ولم يقطع الشيخ عبد القادر صلته قط بالصحيفة حتى بعد تركه لرئاسة تحريرها ؛ بل إننا نجده يدافع عنها كلما فقدت حظوتها مع « المكتوبجي » اي الرقيب العثماني الرسمي[٨] .

لقد عُطلت « الثمرات » مرتين خلال سنة ١٨٩٦ ، الاولى لمدة سبعة اسابيع والثانية لمدة ثلاثة اشهر ونصف . ومن الملحوظ ان الصحيفة لم تشر قط عند عودتها الى الظهور الى اسباب تعطيلها . وانها تعمدت عند استئنافها الصدور ان تثني على السلطان وعلى السلطات العثمانية المحلية .

ومرّ موقف « ثمرات الفنون » من الاتجاهات السياسية الرئيسية التي شهدتها منذ ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥ حتى احتجابها النهائي في ١٩٠٨ بثلاث مراحل رئيسية ؛ كانت في المرحلة الاولى هي الصحيفة الاسلامية والمؤيدة للعثمانيين بلا منازع ؛ اما في المرحلة الثانية التي بدأت حوالى السنة الثامنة من الصدور فإنها تعاطفت مع الحركة القومية العربية الوليدة. وهي في هذه المرحلة قد خضعت لقيود كثيرة . وفي المرحلة الثالثة رجعت الى توجهها المؤيد للعثمانيين ممتدحة بين حين وحين القوميين الاتراك الجدد .

اما الغرب فقد كانت الصحيفة ضده على ما يظهر . ولا يمكن استشفاف اي ميل خاص نحو اي من الدول الغربية بعينها . إنها بالاساس تبتغي الدفاع عن المصالح الاسلامية والخلافة والمذهب العثماني .

وفي المسائل الاجتماعية أشارت الصحيفة اشارات متكررة الى اهمية التعليم وحاجة المجتمع الاسلامي اليه ، كما لفتت الانظار الى اهمية تعليم المرأة . وظل هذا الموضوع الاخير يحظى باهتمام كبير من الشيخ عبد القادر القباني حتى وفاته[٩] .

ولعله من جراء هذه السياسة ان كانت « ثمرات الفنون » خلال فترة صدورها هي اهم صحيفة اسلامية في لبنان .

(٨) انظر: Donald J. Cioeta, «Ottoman Censorship in Lebanon and Syria, 1876- 1908,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 10, no. 2 (May 1979), p. 273.

(٩) رسالة القباني الى السيدة عنبرة سلام الخالدي ، [د. ت.] (مخطوطة) .

الفَصل السَّابع

نجيب عازوري وكتابه «يقظة الأمة العربية»

ستيفان ويلد

إن نجيب عازوري شخصية مهملة في تاريخ الفكر القومي العربي . ويجري الاقتباس من كتاباته حسب الاصول في اغلب الكتب التي تتناول بواكير القومية العربية، وفي الاغلب الاعم تستخدم الفقرات والعبارات نفسها . ويشار اليه عادة بصدد موقفه ضد الخلافة او الامبراطورية العثمانية ، وفي العادة ايضاً جنباً الى جنب مع عبد الرحمن الكواكبي ، وعلى نحو يكاد يشبه التزام طقس من الطقوس . مع هذا يظل الرجل نفسه في الظل بشكل او بآخر ، حتى لم يكن من الممكن مثلاً التحقق من تاريخ ولادته . وتقدم سيلفيا حييم Sylvia Haim في مختاراتها بعنوان « القومية العربية » نصاً لعازوري باعتباره « منهاج عصبة الوطن العربي » وهو ليس المنهاج وإنما وصف له[١] . ويقدم سليمان موسى ، المؤرخ العربي المشهور والمتخصص بالفكر العربي الحديث والتاريخ السياسي ، معلومات غير صحيحة بشأن تاريخ وفاة عازوري ومكانها[٢] . وباختصار يبدو ان عازوري شخص يستحق المزيد من الدرس .

وكتاب عازوري الوحيد الموجود هو في الوقت ذاته اهم مفتاح لشخصيته وطريقة تفكيره . ويتبع عنوانه نمط عناوين الكتب الفرنسية في القرن التاسع عشر ، بكونها في غاية الاطناب ولعلها لهذا السبب لا تكاد تذكر بالكامل ابداً . والعنوان الكامل هو : « يقظة الامة العربية في بقاع آسيا التركية إزاء مصالح وخلافات الدول الاجنبية ، الكنيسة

(١) Sylvia G. Haim, ed., *Arab Nationalism: An Anthology* (Berkeley, Calif.: University of California Press, 1964), p. 81 +

(٢) سليمان موسى ، الحركة العربية : مسيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ، ١٩٠٨ - ١٩٢٤ ، ط٢ (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧) ، ص ٢٣ .

البابوية ، والبطريركية المسكونية . الجانب الآسيوي للمسألة الشرقية ومنهاج عصبة الوطن العربي » . ولم يُعرَّب كتابه الا حديثاً[٣] . ويذكر عازوري في كتابه ثلاثة كتب اخرى كان ينوي كتابتها لكنها لم تر النور قط . لكن عناوينها وحدها تلقي ما يكفي من الضوء على نوع الكتب التي اراد ان يكتبها :

- الوطن العربي . دراسة متعمقة للحالة الراهنة ومستقبل البلاد العربية الآسيوية .

- الخطر اليهودي العالمي . كشوفات ودراسات سياسية .

- الدول الاجنبية ومسألة اماكن العبادة في الارض المقدسة . خلاصة تاريخية واستعراض للوضع الراهن .

هذه العناوين تنبىء بجلاء عن النقاط الرئيسية لفكر عازوري السياسي وهي : ١ ـ امة عربية لا بد من ان تقام في الوطن العربي ؛ ٢ ـ مسألة الاماكن المسيحية المقدسة وهي تعكس الانقسام الطائفي بين العرب المسيحيين ؛ ٣ ـ بواكير الهجرة الصهيونية .

ولا يمكن برأي عازوري لهذه المشكلات الثلاث ان تحل الا عند انهاء الحكم العثماني . بيد ان سقوط الامبراطورية العثمانية لا يمكن تحقيقه الا بمساعدة الدول الاوروبية .

اولاً : حياة عازوري

لا يعرف تاريخ ولادة عازوري ، كما سبقت الاشارة ؛ وهو في الغالب حوالى سنة ١٨٧٠ . ويذكر بوملحم[٤] انه ولد في عازور، وهي قرية في جنوب لبنان . ويدعى والده جرجس حنا عازوري ، ولا يعرف عنه شيء غير اسمه . وكان شقيقه يوسف العازوري قسيساً درّس في كلية عينطورة الكاثوليكية ، التي كانت تدار آنئذٍ من العازاريين الفرنسيين . تزوج عازوري من شقيقة بشارة حبيب ، مترجم والي بيت المقدس ؛ وهي ابنة وكيل للـ Messageries maritimes لشركة النقل البحري في القدس[٥] . ويذكر بو ملحم ان

(٣) Négib Azoury, *Le Réveil de la Nation arabe dans L'Asie turque en présence des intérêts et des rivalités des puissances étrangères, de la curie romaine et du patriarcat oecuménique, partie asiatique de la question d'Orient et programme de la Ligue de la patrie arabe* (Paris: Plon, 1905) [henceforth cited as: *Le Réveil de la Nation arabe...*] :

نجيب عازوري ، **يقظة الامة العربية** ، تعريب وتقديم احمد بو ملحم ، مقدمة بقلم زاهية قدروة (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، [١٩٧٨؟]) .

(٤) عازوري ، **يقظة الامة العربية** ، ص ١٧ .

(٥) Elie Kedourie, «The Politics of Political Literature: Kawakibi, Azoury and Jung,» in: Elie Kedourie, *Arabic Political Memoirs and Other Studies* (London: Cass, 1974), p. 111.

عازوري كانت له ابنة تدعى كورنيليا تزوجت فيما بعد من احد وجهاء غزة المدعو يوسف اللحام ، وابن يدعى انطوان عمل بعدئذٍ مفتشاً لبعثة امريكية علمية في بنغازي[٦] . تخرّج عازوري من [العدادي] الملكية في اسطنبول[٧] وحاز في العشرين من عمره على دبلوم من Ecole des Haûtes Etudes مدرسة الدراسات العليا في باريس[٨] . وبمساعدة عضوين من اعضاء البرلمان العثماني هما الاخوان ملحمة وكذلك من البطريرك حايك[٩] ، عيّن مساعداً («adjoint») لوالي بيت المقدس ، كاظم بك ، وبذا اصبح موظفاً عثمانياً سنة ١٨٩٨ . ويزعم عازوري انه قدم تقريراً الى عبد الحميد عن سوء الحكم الفاضح والفساد تحت ادارة كاظم بك (ص ٢٤٩) . وأنه ترك فلسطين الى مصر في ١٩٠٤ . ويصور عازوري ذلك على انه نتيجة خصومة شخصية بينه وبين كاظم بك الجشع وترجمانه الفتاك بشارة حبيب ، نسيب صهر عازوري . وبدأ في مصر حملة عنيفة ضد الوالي وضد نسيبه نشرها في جريدة قاهرية تسمى الاخلاص أسسها ابراهيم عبد المسيح في ١٨٩٥ . لقد حدا هذا ، حسب قول عازوري ، بوالي بيت المقدس ان يرسل وكيلاً سرياً الى القاهرة لاغتياله ، وهي محاولة أحبطتها الشرطة السرية الانكلو ـ مصرية (ص ٢٠٣) .

وقد تمكن ايلي خضوري ان يبين ان القصة الحقيقية قد تكون مختلفة بعض الشيء ، وذلك استناداً الى وثائق من « ارشيف وزارة الخارجية Etrangères » ومن « ارشيف الحلف الاسرائيلي ـ العالمي l'alliance israelite universelle» . اما تعيين عازوري مساعداً للوالي « فالوظيفة هي [رمزية] لا يتناسب راتبها الكبير مع عملها القليل ، وذلك لمكافأة عازوري على تخليه عن مزاولة النشاط عن جماعة تركيا الفتاة وإعلانه الولاء للسلطان »[١٠] . وبرأي F. Wiet القنصل الفرنسي العام في بيت المقدس ، كان عازوري يريد منصب صهره لنفسه[١١] . إنه بعدئذٍ قد حكم عليه بالاعدام من قبل السلطات العثمانية لكن الادارة الانكلو ـ مصرية رفضت تسليمه للباب العالي (ص ١٩١ وما بعدها) . وبعد ما لا يزيد عن شهور قلائل ترك عازوري القاهرة لاسباب مجهولة الى باريس حيث وصلها حوالى نهاية ١٩٠٤ . وفي ١٩٠٥ نشر كتابه « يقظة الامة العربية» في باريس وبدأ ، مع يوجين ينغ Eugène Jung وآخرين

(٦) المرجع الذي ذكره بو ملحم في: عازوري ، المصدر نفسه ، ص ١٧ ، الهامش رقم (٢٠) مسنداً اليه هذه المعلومات هو للاسف غير صحيح .

(٧) Kedourie, Ibid., p. 111.

(٨) Eugène Jung, *La Révolte arabe, 1906-1924*, 2 vols. (Paris: Colbert, 1924, 1925), vol. 1, p. 10.

(٩) عازوري ، **يقظة الامة العربية** ، ص ١٧ .

(١٠) Kedourie, «The Politics of Political Literature: Kawakibi, Azoury and Jung,» p. 111.

(١١) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .

حركته المسماة « عصبة الوطن الفرنسي Ligue de la Patrie Française » وهي منظمة مضادة لدريفوس وذات ميول معروفة مناهضة للسامية .

ولعل عصبة عازوري لم يكن لها اي عضو قط سوى عازوري نفسه . وقد اسس في ١٩٠٦ في باريس « حزب الوطن العربي في الاقاليم التركية » ، الذي نطق باسم « عصبة الوطن العربي » . وكانت الناطقة الرسمية باسم هذه الحركة هي الصحيفة الشهرية « الاستقلال العربي » ، التي صدر منها ١٨ عدداً بين نيسان / ابريل ١٩٠٧ وايلول / سبتمبر ١٩٠٨ . ولما نجحت جماعة تركيا الفتاة [في جهدها] ضد عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ، عاد عازوري الى يافا مرشحاً للانتخابات البرلمانية : «« ومن متانة خلقه . . . ان عازوري لم يستخدم كبيان انتخابي له المنهاج القومي العربي الذي كان يقدمه في الاشهر الخمسة عشر السابقة في صحيفته (الاستقلال العربي) ؛ وقد ارتأى بدلاً من ذلك ان يلبس خطاباته بأعم التعابير»[(١٢)] . ولم ينتخب . وكانت له في باريس والقاهرة صلات سياسية وثيقة مع شخصيات سياسية فرنسية مثل رينيه بينون René Pinon ولودوفيك دي كونتنسون Ludovic de Contenson وادموند فازي Edmond Fazy . وفي ١٩٠٨ اعترف عازوري بجماعة تركيا الفتاة حكاماً شرعيين .

ويحتوي كتابه « اليقظة » على رسالة طويلة وإطرائية من لجنة تركيا الفتاة في اسطنبول . ويغلب الظن ، حتى لو كانت الرسالة غير موثوقة ، ان عازوري كان على صلة بمعارضين لعبدالحميد من الشبان الاتراك .

وفي مصر ، حيث اسس عازوري محفلاً ماسونياً[(١٣)] ، عارض الافكار السياسية لمصطفى كامل وناصر « حزب الاحرار المصري » الذي اسسه محمد واجد بك ، الذي كان شعاره السياسي « الامن في مصر بالاتفاق مع سلطة الاحتلال »[(١٤)] . كانت افكار عازوري تتناقلها الجرائد والمجلات الفرنسية مثل « مجلة المجلات » ، و« صدى باريس » و« الوطن »[(١٥)] . وكان في مصر لوقت ما « وزير خارجية » حزب مصر الفتاة ، ومات في القاهرة سنة ١٩١٦ .

---

(١٢) Neville J. Mandel, «Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine, 1882-1914,» in: Albert Hourani, ed., *Middle Eastern Affairs, No. 4,* St. Antony's papers, 17 (London: Ghatto and Windus, 1965), p. 92.

(١٣) Jung, *La Révolte arabe, 1906-1924,* vol. 1, p. 33.

(١٤) Sylvia G. Haim, «Intorno alle origini della teoria del panarabismo,» *Oriente Moderno,* no. 36, (1956), p. 409.

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٤١٠ .

ثانياً : كتاب عازوري

إن موضوع عازوري الرئيسي وفكرته المهيمنة المتكررة هي ادانته للحكم التركي في البلاد العربية باعتباره حكماً بربرياً وظالماً وغير فعّال . وتستند اتهاماته العنيفة ضد الباب العالي وممثلين في فلسطين الى معرفة شخصية . وقد يكون الحقد الذي تتميز به هجماته ضد الوالي النهم لبيت المقدس ، كاظم بك ، وضد ترجمانه بشارة حبيب ، متأصلاً في افكار عازوري السياسية ، لكنها ملونة كذلك بخصومات شخصية . وقوة الدفع الرئيسية في نقاش عازوري تتسم بمناهضة العثمانيين . فالعرب لم يجنوا شيئاً سوى الشقاء تحت حكم الاتراك . والحكومة التركية هي عبارة عن عصابة من اللصوص برئاسة مجرم ، يعمل بانتظام على خراب بلاد العرب (ص ٢٥) . ويقول عازوري ان عبد الحميد هو اخبث الحكام الاتراك ، ويتنبأ بأنه سيكون آخرهم لهذا السبب (ص ١٨٣) . ويفيد ان جميع « الاجناس » في الامبراطورية العثمانية تشمئز من الاتراك ، والعرب في هذا اقل من البلغار والالبانيين واليونانيين والصرب والارمن (ص٢٠٨) . وبرأي عازوري ان العرب يكرهون الخليفة التركي ويحتقرونه لأن القرآن عربي والنبي عربي ولغة الكلام في الجنة هي العربية ، فكيف يجرؤ عبد الحميد التركي هذا ان يسمي نفسه خليفة ؟ واي خليفة هذا الذي لا يعرف العربية والذي لم يؤد بعد وهو في سن الخامسة والستين فريضة الحج (ص ٢٤٧) . ويقول عازوري ان القومية اليونانية قد قامت في اوروبا بوجه هذا الاستبداد ، فقامت على اثرها كل الشعوب الاخرى في تركيا الاوروبية : الصرب ، المونتنغريّون (Montenegrians) ، البلغار والالبانيون ؛ اما في تركيا الآسيوية فيوضح عازوري ان التطلعات القومية للارمن قد حركت المشاعر القومية للاكراد والعرب (ص ٢١٢) .

ولهذا السبب حملت صفحة الغلاف من كتاب عازوري شعار : «« بلاد العرب للعرب ، كردستان للاكراد ، ارمينيا للارمن ، بلاد الترك للترك ، البانيا للالبانيين وجزر الارخبيل لليونان ، ومقدونيا مقسمة بين اليونانيين والصرب والبلغار » . وحسب رأي عازوري سيؤلف العرب ، اي الامة العربية ، إمبراطورية عربية تمتد من دجلة والفرات الى برزخ السويس ومن المتوسط الى بحر عمان . بعبارة اخرى ستضم الامبراطورية العربية بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين وشبه الجزيرة العربية . وستحترم هذه الامبراطورية العربية المستقبلة الحكم الذاتي للبنان واستقلال امارات اليمن ونجد والعراق جميعها . ويجري التنازل عن اي مطالب اقليمية للامبراطورية العربية الى الغرب من قنال السويس : فهي ترفض فكرة توحيد مصر والامبراطورية العربية تحت حكم الملك نفسه ، لأن المصريين ، كما يقول عازوري ، لا ينتمون الى نفس العنصر العربي ؛ إنهم من فصيلة البربر الافريقيين

واللغة التي كانوا يتكلمونها قبل الاسلام لا شبه لها بالعربية . فضلاً عن ذلك ، ثمة حدود طبيعية قائمة بين مصر والامبراطورية العربية والتي يجب احترامها ؛ والا ستزرع جراثيم الفرقة والتخريب في الدولة الجديدة (ص ٢٤٦) . سيكون شكل هذه الدولة ملكياً . ويمضي عازوري في اعتقاده الى اكثر من هذا : إن العصبة تعرض عرش الامبراطورية العربية على امير من الإسرة الخديوية في مصر الذي سيعلن صراحة انه الى جانبها ، والذي سيكرس جهده وما أوتي من مواهب لهذا الغرض . ستكون هذه الملكية بالطبع وراثية ، لكنها ستكون ملكية دستورية . وفي هذه الامبراطورية ستكون ولاية الحجاز ذات اهمية خاصة ، لأنها ستكون امبراطورية مستقلة وسيكون عاهلها في الوقت ذاته « الخليفة الديني » لجميع المسلمين . يقول عازوري انه ستحل بهذه الطريقة المشكلة المزعجة الخاصة بفصل السلطة الروحية عن السلطة الدنيوية وذلك لمنفعة الجميع (ص ١ وما بعدها) .

ويؤكد عازوري اكثر من مرة ان الخليفة لن تكون له سلطة دنيوية خارج ولاية الحجاز : « إن الوطن العربي سيقدم كذلك الخلافة الدينية العامة على الاسلام كافة الى ذلك الشريف (سليل النبي) الذي سيحتضن قضيتها بإخلاص ويكرس نفسه لهذا العمل . وسيحظى الخليفة الديني ، باعتباره دولة سياسية تامة الاستقلال ، بولاية الحجاز الفعلية بأسرها ، من ضمنها مدينة المدينة واقليمها حتى العقبة . إنه سيتمتع بمظاهر التكريم التي يتمتع بها الملك ، كما سيتمتع بسلطة ادبية حقيقية على جميع المسلمين في العالم » (ص ٢٤٦) .

وهنا قد ينشأ السؤال التالي : باسم من كان عازوري يتكلم؟ فأفكار من هذا النوع لم تكن غريبة عن بعض معاصري عازوري المسلمين ، الامر الذي تثبته اعمال عبدالرحمن الكواكبي ، [مثل كتاب] « طبائع الاستبداد » المناهض للحكم الحميدي و[جريدة] ام القرى المناهضة للاتراك[١٦] . وعازوري لا يسعه ، بالتأكيد ، ان يدعي الكلام باسم ايّ من معاصريه المسلمين في فلسطين .وهو لاشك كان قد عرف بأفكار الكواكبي ، لكنه لا يذكرها قط ، إنما يشير الى اسطورة تسميمه من قبل عبد الحميد[١٧] . ولو تذكرنا نوع العاصفة التي أثارها علي عبد الرازق بعد امد غير قصير في القاهرة وذلك بتبيان الفصل بين الصعيدين الدنيوي والروحاني في الاسلام ، ثم نظرنا الى الطريقة العرضية نوعاً ما ، التي بها حاول عازوري ، وهو شخصياً غير مسلم ، ان يحل هذه المشكلة ، فإننا نتساءل تُرى هل ان « للحزب القومي العربي » ، الذي يدعي عازوري النطق باسمه ، اي اساس عربي

(١٦) Khaldun Sati al- Husri, *Three Reformers: A Study in Modern Arab Political Thought* (Bierut: Khayat's,1966), p. 57.

(١٧) بالمناسبة ، يسمي عازوري عبد الرحمن الكواكبي « السيد الكيواكبي » ، انظر :
Azoury, *Le Réveil de la Nation arabe...*, p. 229.

اسلامي . ان عازوري لم يكن حسن الاطلاع جداً على الاسلام ؛ ويتضح هذا من اقتباسه (ص ٢٠٨) ، آية طويلة زعم انها من القرآن وهي في الحقيقة ليست فيه . والطريقة التي يصور بها التطلعات الاسلامية لقرائه الاوروبيين تقارب السخافة في المرة تلو الاخرى . وهو يزعم ان لجنة من علماء المسلمين قد اجتمعت في مكة في ١٩٠٣ او ١٩٠٤ وقررت انشاء خلافة عربية دينية صرفة ؛ وكان لا بد من منح لقب الخليفة الى مسيحي اجنبي حتى لا يمنح لعبد الحميد البغيض (ص ٢٢٩)[١٨] .

واجرى عازوري كذلك ترتيب كل شيء للعرب المسيحيين . فبعد تنديده المرير بالخصومات المتواصلة بين الفرق المسيحية حول الاماكن المقدسة المختلفة في بيت المقدس وإنشقاقاتها ونزاعاتها الداخلية العميقة ، فإنه يضع مسؤولية هذه الحالة على عاتق العثمانيين مباشرة . ثم يقترح عازوري انشاء كنيسة كاثوليكية عربية قومية ، تكون محرمة على السريان واليونان واللاتين ، ولغة الصلاة والعبادة فيها هي العربية وحدها . (ص ١٧٨) . ويقترح عازوري ان يكون لمثل هذه الكنيسة بطريرك خاص بها ، ويتنبأ بأن هذا الطقس الجديد سيستوعب جميع الطقوس الاخرى ، اي ايضاً تلك الطقوس الاصولية القديمة ، وذلك في مدى بضع سنين فقط . انه يحث البابا على اتخاذ خطوات في هذا الاتجاه .

لم يشتهر نجيب عازوري فقط بمناشدته من اجل القومية العربية ، بل لعله اكثر شهرة لكونه من اوائل الذين حذروا من التطلعات الصهيونية المتصاعدة من اجل « وطن قومي » في فلسطين . وكلمات عازوري التالية التي استشهد بها مراراً والتي هي ذات طابع تنبئي غريب ، تقول : « ثمة ظاهرتان مهمتان هما من طبيعة واحدة لكنهما مع هذا متعارضة احداهما مع الاخرى ، واللتان لم تلفتا بعد انتباه احد ، وهما تفصحان عن نفسيهما في الوقت الحاضر في تركيا الآسيوية : الا وهما يقظة الامة العربية والجهد المستتر لليهود لاعادة تأسيس مملكة دولة اسرائيل القديمة على نطاق معظّم جداً . هاتان الحركتان كتب عليهما ان تقاتل احداهما الاخرى باستمرار ، حتى تنتصر واحدة منهما . وعلى النتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين ، الممثلين لمبدأين متعارضين ، سيعتمد مصير العالم بأسره » (ص ٧) .

بهذه النقاط الاربع تكون الموضوعات الرئيسية لكتاب عازوري قد ذكرت : لا بد من تأسيس امة عربية ؛ لا بد من إنهاء الحكم العثماني ؛ طقس كاثوليكي عربي بالكامل يَجُبُّ الطقوس الاخرى الخاصة بالكنائس البابوية Uniate ؛ والمشكلة الصهيونية .

يستعرض عازوري مفصلاً ، مع استشهادات كثيرة من مؤلفين اغريقيين

(١٨) Kedourie, «The Politics of Political Literature: Kawakibi, Azoury and Jung,» p. 114.

ولاتينيين ، سياسات الدول الاوروبية المختلفة في المتوسط وحواليه . وهو يضع تطلعاته القومية العربية ضمن اطار المصالح الاوروبية في المنطقة وذلك بصورة صريحة . ما الذي يقوله عن قبرص ؟ « لا يلومنّ احد انكلترا لاحتلالها قبرص ، لأن هذه القاعدة تتيح للبحرية البريطانية الدفاع عن الدردنيل وخليج الاسكندرية ووادي الفرات (هذه المفاتيح الثلاثة الى آسيا والمتوسط) ضد اندفاع روسي » (ص ٨٤) . ويفيد عازوري ان فرنسا قد فتحت الجزائر لا لبناء مستعمرة منتجة بقدر ما هو لتخليص المتوسط من قرصنة البرابرة التي فتكت بالتجارة الدولية ودمرتها (ص ١٠١) .

ويعود عازوري الى التاريخ فيفسر الحروب الصليبية على النحو التالي : « ان الامة الفرنسية هي في جوهرها امة نبيلة . وقد تولت فرنسا الحروب الصليبية ، وهي حملات خطرة ، فعادت نتائجها بالخير على العالم بأسره » . (ص ١٠١) . والوجود البريطاني في مصر؟ يجب على المرء ألا يحتج على الوجود البريطاني في مصر ، لأن بريطانيا تحرس حرية المتوسط وآسيا من مصر . إن مقولات كهذه هي على نحو ما طعنة في ظهر قوميين مصريين مثل مصطفى كامل والذين كانوا منهمكين بنشاط في كفاح ضد بريطانيا في مصر .

وبالنسبة لعازوري ينتهي الوطن العربي عند قنال السويس ؛ وهو يرى ان موقف مصطفى كامل المناصر للاسلام والمؤيد للعثمانيين هو ببساطة عبارة عن«قومية مصرية زائفة»[١٩]. وبعد امد غير قصير ، عمل عازوري عندما ترك باريس الى القاهرة بمثابة وزير خارجية لحزب Young Egyptian Party ؟ الذي كان يأخذ بسياسة التدرج التام نحو الاستقلال ، وذلك ، وكما يوضح عازوري ، «لأن المصريين غير قادرين على حكم انفسهم » (ص ٨٩) . فليعطونا في سورية ادارة مصرية ، ويعني ادارة انكليزية ، وسيرى المرء ما اذا كنا سنستمر في الهجرة الى مصر واميركا . . . (ص ٩٩) . والذي يريده عازوري حقاً هو امة عربية بالحدود المبينة ، لكنها امة عربية تحت ارشاد دولة اوروبية ، وحبذا ان تكون فرنسا : « لن يكون لأحد حق افضل في ان يحكمنا من فرنسا ، وما من دولة مثلها سيجري الترحيب بها بحرارة حينما تنزل في البلاد العربية في اللحظة التي يتقرر فيها تجزئة الامبراطورية العثمانية » (ص ١٢٨) .

يقول جورج انطونيوس عن كتاب عازوري ما يلي : « لفتت حملة عازوري بعض الانتباه في اوروبا في حينها ، ولكن كان تأثيرها ضئيلاً بقدر تعلق الامر بالحركة العربية نفسها . وبصرف النظر عن مزايا هذه الحملة فإن ادارتها من عاصمة اجنبية وبلغة اجنبية كان بحد ذاته تقييداً

(١٩) Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal age, 1798-1939* (London: Oxford University Press, 1962), p. 278.

يصيب بالشلل . إن الحملة لم تتوصل قط الى قلب الحركة » . ويضيف محذراً : « وإن قيمتها الرئيسية في هذا [البحث] التاريخي هي انها توفر مثلاً على المدى الذي انحرف اليه بعض دعاة الثورة العربية عن منابع وحيها ، وذلك كنتيجة للثقافة الاجنبية»[٢٠] . وهذا التقويم « لحملة » عازوري، لا يبدو مرضياً مع كونه نقدياً . فهل ان كتاب عازوري ، والحملة التي اتخذت شكل بيانات وشكل مجلة هي « الاستقلال العربي » - والتي تطبع كما أشار انطونيوس في عاصمة اجنبية وبلغة اجنبية اي غير عربية - كانت موجهة الى جمهور عربي؟ ان بيان عازوري « بلاد العرب للعرب » قد ترجم فعلاً للعربية في كانون الثاني / يناير ١٩٠٥ . وقد هُرّبت نسخ بالعربية والفرنسية الى داخل فلسطين « وأثار من الانتباه ما يكفي السلطات العثمانية بالنتيجة الى القاء القبض على عدد من الوجهاء العرب في يافا وغيرها بينما جرى تفتيش بيوتهم واوراقهم »[٢١] . وقد افلح البيان الى درجة « احدثت ضجة بين الموظفين »[٢٢] . ووافى كل من القنصل العام الفرنسي في القدس ونائب القنصل البريطاني في « أضنة » ووكيل القنصل العام الفرنسي في بيروت رؤساءهم بتقارير عن نداء عازوري[٢٣] . لكن [كتاب] اليقظة كان موجهاً بالاساس للاستهلاك الاوروبي ، وكانت مهمته الاساسية حث فرنسا على الاهتمام بمزيد من الفعالية بسورية وفلسطين .

لم ير عازوري اي مستقبل للامة العربية إلا على يد الدول الاوروبية . والدولة الاوروبية التي لها اسمى حق تاريخي ، الامة التي يقدسها الجميع في الشرق الادنى ، هي فرنسا (ص ١١٢) . واحتفظ عازوري بكلمات ثناء لجميع الامم ذات المصالح في المنطقة باستثناء روسيا . مثلاً للامريكيين ، إذ يسأل عازوري : « من هو السائح الذي لم يذهله التنظيم الرائع للجامعة الامريكية في بيروت ؟» (ص ١١١) . والالمان وقيصرهم والنمساويون سوف يتعاطفون بالتأكيد مع استقلال العرب (ص ١٤٢) ، وخطة المانيا لاقامة رايخ من بحر الشمال الى الخليج العربي ، والذي يذكره عازوري (ص ١٣٦) لا يمكن إلا ان يكون نافعاً . إن آسيا الصغرى على يد الالمان ستكون المانية بالكامل خلال بضع سنين . ويقارن عازوري الالمان بالانكليز فيقول : « إذا كان الانكليز هم خير من يدير المستعمرات فالالمان هم (مستعمرون Colons) مرموقون وعلى اي حال ، فإن هؤلاء هم اكثر الشعوب استعماراً » (ص ١٣٦) .

(٢٠) George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* (London: Macmillan, 1938), p. 99.

(٢١) Mandel, «Turks,Arabs and Jewish Immigration into Palestine, 1882-1914,» p. 91.

(٢٢) Kedourie, «The Politics of Political Literature: Kawakibi, Azoury and Jung,» p. 115.

(٢٣) المصدر نفسه .

ويؤكد عازوري لقرائه ان « العرب الآسيويين » هم أسلس الناس قياداً في العالم وأنهم كذلك اسهل من يُحكم من الشعوب . وفي البيان الذي يتصدر الكتاب يوضح عازوري ان استقلال العرب ، الذي يجب ان يؤخذ على أنه استقلال ضمن اطار اوروبي ، إنما هو مفيد جداً لرأس المال الاوروبي : « ما من رجل مستقيم ومخلص بوسعه ان يعادي هذه الحركة الخيّرة التي ستفتح سوقاً واسعة للتجارة الدولية وتضمن منافع عديدة وتؤمّن استثمارات لرأس المال الاوروبي » (ص II) .

وينظر عازوري بقلق الى المغازلة الالمانية ـ التركية : إن عبد الحميد لم يسمح لانكلترا او لفرنسا ببناء سكة حديد الحجاز لأنه خشي ان هاتين الامتين ستنشران حضارتيهما ايضاً أينما ذهبتا . بيد ان الالمان يختلفون : إنهم اقل انفتاحاً من الآخرين وهم لا يطالبون بالاصلاحات ابداً ، شرط ان يُمنح رأسمالهم فائدة معقولة (ص ٢٣٧) . ولكن حتى رأس المال ، الذي سيأتي مع الاصلاح ، اي رأس المال الفرنسي والمصري بالدرجة الاولى ، سوف لا يخيب امله : « والانفع كذلك جداً للتمويل الاوروبي الذي له اموال في تركيا ، ولرجال الاعمال والصيرفيين ايضاً والذين لهم علاقات تجارية مع بلادنا ، ان يؤيدوا كل هذه المشاريع . ذلك انه بسقوط الهيمنة التركية ستكون كل آسيا مفتوحة للتجارة الدولية . إن الاستثمار الذي يدر اليوم ٤ بالمائة سيدر ٥٠ بالمائة في اليوم الذي نكون فيه احراراً » (ص ٢٤٤) .

إن تقويم انطونيوس لحملة عازوري المذكور آنفاً لا بد من ان يعدّل. فكتاب عازوري ورسالته لم يتوصلا حقاً الى قلب الحركة ، على حد تعبير انطونيوس ؛ لكن هذا ليس لأن الحملة قد اديرت بلغة اجنبية ومن باريس ، بل لأن الكتاب لم يَرُمْ قط التوجه الى الجمهور العربي في المقام الاول . إنه كان يروم التوجه الى الجمهور الفرنسي المهم سياسياً ، والذي خشي في ١٩٠٥ ان تتنازل فرنسا عن كثير جداً من مصالحها في الشرق الادنى الى انكلترا . إن كتاب عازوري هو مناشدة للسلطات الفرنسية لكي تدخل الشرق الادنى حاكمة وذلك من بوابة المعارضة للحكم الحميدي . وبالطبع قرىء الكتاب بعناية من قبل السلطات العثمانية ومستشاريها . وفي السنة التي تلت نشر كتاب عازوري ظهر تفنيد مؤيد للعثمانيين بقلم عربي مسيحي آخر ـ بروتستاني في اغلب احتمال ـ بالفرنسية مرة اخرى، ومطبوع في باريس ايضاً[٢٤] . ويندد المؤلف بعازوري باعتباره عميلاً لمصالح الروم الكاثوليك[٢٥] .

(٢٤) Farid Kassab, *Le Nouvel Empire arabe, La curie romaine et le prétendu péril juif universel*, réponse à M.N. Azoury (Paris: Giard et Brière, 1906).

(٢٥) Haim, «Intorno alle origini della teoria del panarabismo,» p. 410, footnote (2)

ولم يقف تلهف عازوري للتعاون مع الفرنسيين عند حد تأليب الرأي سياسياً وإنما تجاوز ذلك الى حد بعيد . فقد كتب عازوري في كانون الثاني / يناير ١٩٠٦ رسالة الى م. كرستيان ، مدير المطبعة الوطنية في باريس ، والذي ساعده في نشر كتابه « اليقظة » ، يقول فيها : « لو دفعت له الحكومة الفرنسية (اي لعازوري) مبلغ مئة الف فرنك فسيتمكن من إثارة تمرد في سورية لصالح فرنسا »[٢٦] . وهنا يُمسي نشاط عازوري السياسي أشبه شيء بالمغامرة الصرفة . إن عازوري حاول حتى وفاته « ان يبتز من حكومات مختلفة مبالغ كبيرة من المال بإزجاء الوعود بإثارة التمردات نيابة عنها في الامبراطورية العثمانية »[٢٧] . كان شريك عازوري الرئيسي في هذه التشبثات هو يوجين ينغ ، مؤلف كتاب **الدول بمواجهة الدول العربية** ـ المهدى لعازوري ـ ومؤلف كتاب « الثورة العربية » في جزأين . وتستند مشاركة عازوري مع ينغ التي دامت عشر سنوات على مناورة بسيطة في الاساس: إنهما يخلقان انطباعاً ، عن طريق الكتب والمجلات التي ينشرانها او المقالات التي يفلحان في زرعها في الجرائد والمجلات ، بوجود (حركة عربية) قوية في الامبراطورية العثمانية ؛ من ثم سيدّعيان ان عازوري هو رأس هذه الحركة القادر على السيطرة عليها ، وعندئذٍ يعرضان استخدام الحركة لهذه الحكومة او تلك لقاء مبالغ كبيرة من المال والسلاح . ولم تنطل المناورة في الحقيقة على اي حكومة من الحكومات ، لكن عازوري وينغ لم يتوانيا قط عن اتباعها المرة تلو المرة[٢٨] . وقد كتب الممثل الفرنسي في القاهرة في سنة ١٩٠٨ يخبر حكومته ان عازوري قد طلب اعطاءه تفويضاً من حكومتنا[٢٩] . وفي ١٩١٢ حوّل ينغ رسالة من عازوري الى وزارة الخارجية الفرنسية يطلب فيها ٦٠٠٠٠٠ فرنك لمجابهة النشاطات البريطانية . في هذه الاثناء عرض عازوري في القاهرة على الممثل الايطالي ان يثير ثورة في سورية لمصلحة ايطاليا ـ الامر الذي ربما بدا وكأنه عرضٌ مغرٍ في زمن الحرب في طرابلس التي كانت إيطاليا منهمكة فيها . وبعد اندلاع الحرب العالمية الاولى حاول عازوري وينغ كرّة اخرى الحصول على المعونة الفرنسية والبريطانية للمساعدة في قيام انتفاضة مناوئة للعثمانيين[٣٠] .

والنقطة الاخيرة هي تحذير عازوري من « الخطر اليهودي » . يستشهد حوراني بالجملة المشهورة عن الصدام المحتم بين الصهيونية والقومية العربية ، فيمضي قائلاً :

(٢٦) Kedourie, «The Politics of Political Literature: Kawakibi, Azoury and Jung, p. 117.

(٢٧) المصدر نفسه .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ١١٨ .

(٢٩) المصدر نفسه .

(٣٠) عام ١٩٠٩ كتب مارتن هارتمان ما يلي عن نجيب عازوري « لا شك ان الصدام هنا مع المجموعة العربية =

« إننا نكاد نسمع لأول مرة نبرة جديدة من التحذير ضد مطامح القوميين اليهود في العودة الى فلسطين »[٣١] . وهنا يلفت حوراني النظر بصورة تناسب المقام جداً الى الحقيقة التي مفادها أن عازوري قد نوّه في العدد (١) من (الاستقلال العربي) « بأن إقامة المستوطنات والبنوك اليهودية في فلسطين قد يعني تعزيز القومية العربية لصالح التمويل الكبير »[٣٢] . وليست جملة عازوري بحد ذاتها هي التي تستدعي التأمل. فعازوري ، الذي كان على اي حال موظفاً عثمانياً في فلسطين ، يظهر جهلاً مستغرباً كل الاستغراب بشأن وضع التركيب السكاني في فلسطين. فبموجب اوثق التقديرات كانت نسبة السكان اليهود في فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى ما بين ٧ و١٠ بالمائة من مجموع السكان . وحتى اذا أخذنا بعين الاعتبار هامش خطأ مبالغ فيه فإن رقم عازوري ، الذي يعطي للسكان اليهود نسبة تصل الى ٥٠ بالمائة من مجموع السكان ، هو رقم مستحيل جداً ويكاد لا يصدق كتخمين **مدروس** ،وهو يصدر عن شخص موجود موقعياً . وثمة فروقات اخرى غير هذه في احصاءات عازوري .

لقد وعد عازوري بأن معالجة مسألة الهجرة الصهيونية بأسرها ستكون موضوع كتاب هو كما قال المؤلف « قيد الاعداد » وانه سيحمل عنوان « الخطر اليهودي » . ولم ينشر هذا الكتاب البتة . وادعاء بو ملحم[٣٣] ان الكتاب اختفى من جميع المكتبات بسبب ضغط الصهيونية العالمية هو إدعاء غير مقبول . لكننا قد نستنتج من بضع ملاحظات مذكورة هنا وهناك في كتاب « اليقظة » لعازوري ، ان الرجل سقط ضحية لضرب من معاداة السامية هو ضرب نموذجي خاص بعدد من الاحزاب السياسية في اوروبا وفرنسا في ذلك الحين . وهذا النوع من معاداة السامية يُربط بصورة سطحية بمعاداة الصهيونية سياسياً ؛ وإشارة عازوري الى ان عبد الحميد يفصح عن « نمط ارمني - يهودي armeno- judaic type » ، وكذلك تجريحات عنصرية اخرى ، تدعم الانطباع بأن عازوري كان قد وقع فريسة لاغراء المعاداة المسيحية للسامية في اوروبا ، الامر الذي جعل مقاومة الصهيونية من الناحية الموضوعية ليست اسهل ، بل اصعب تحقيقاً .

= سيكون سريعاً وحاداً ، فالمسألة تعدت كونها عملاً من اعمال بعض الدساسين الذين يتحدثون ويكتبون كثيراً عن الامة العربية ونهضتها ، فهؤلاء انما تحركوا غالباً لمطامعهم الشخصية وللفرنسيين الذين يعملون عندهم بالاجرة » . انظر :

Mitteilungen: des Seminars fuer Oreintalische Sprachen zu Berlin, 2 Abt., Westasiatische Studien, 12 (1909), p. 53.

(٣١) Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939*, p.279.

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٩ .

(٣٣) عازوري ، **يقظة الامة العربية**، ص ٢٢ .

ومن الطبيعي ان يكون كتاب عازوري موضع اهتمام كبير من الحركة الصهيونية . فلقد استشهدت الحركة بمصادر من قبيل كتاب « اليقظة » لتؤكد الحالة المتأخرة لفلسطين . وكتب أهارون هرموني Aharon Hermoni عرضاً موسعاً للكتاب في المجلة الشهرية الادبية والعلمية الصادرة بالعبرية المعنونة هاشيلوا Hashiloah التي كان محررها آهاد ها - آم Ahad ha-Am اولاً في اوديسا ووارشو ، ثم في برلين وكراكاو[٣٤] . كانت هاشيلوا تعبر عن معاداة آهاد ها - آم لهرتزل و« صهيونيته السياسية » . بيد ان محرر المجلة اضحى بعدئذٍ شخصية مركزية في تحرير صحيفة هاعولام Haolam ، وهي الاداة الرئيسية الناطقة بالعبرية باسم « المنظمة الصهيونية العالمية » وذلك باعتبار المحرر متعاوناً وثيق الصلة بسوكولوف Sokolov .

كتب الدبلوماسي الفرنسي أ . بوب A. Boppe في رسالة لحكومته في ٢٦ ايلول سبتمبر ١٩٠٥ من اسطنبول يقول فيها ان عرض كتاب عازوري في الصحافة الفرنسية هو الذي آل بالفعل الى خلق مسألة عربية[٣٥] . وهذا الرأي ، بالطبع ، يقلل من قيمة تصاعد المشاعر القومية العربية لدى اجزاء مهمة من سكان الامبراطورية العثمانية قبل عازوري بزمن بعيد . لكن كتاب « يقظة الامة العربية » وتاريخ مؤلفه نجيب عازوري يوضحان بجلاء ان التمرد القوي ضد الحكم العثماني في الشرق الادنى كان له تيارات خفية كثيرة ، واحد هذه التيارات ، وليس اقلها اهمية ، هو مصلحة الدول الاوروبية التي كانت تهيىء السبيل لاتفاقية سايكس - بيكو .

---

(٣٤) Aharon Hermoni, «Ha-tenu'ah ha-a'ravit u-megamoteha,» [The Arab Movement and It's Tendencies] *Hashiloah* (Crakow), no. 15 (1905), pp. 377-390.

(٣٥) Kedourie, «The Politics of Political Literature: Kawakibi, Azoury and Jung»,p. 116.

الفصل الثامن

أمين الريحاني: نظرة ذاتية لعربي عصري

أرنولد هوتنغر

إن الصورة القلمية الشخصية الشهيرة (المقدمة) التي تستهل كتاب « ملوك العرب »[1] معروفة لنا جميعاً . لقد صادفتها حينما درست العربية لأول مرة في بيروت وبدأت بتناول الكتب المدرسية المتداولة في ذلك الحين . كانت هنالك بطابعها كقطعة ادبية مختارة وقد قرأتها مراراً بعدئذٍ حينما تصديت لذلك الكتاب المشهور بأسره . وأردت مرة ان اريها لبعض تلامذتي الامريكيين في لوس انجلوس فذهبت الى المكتبة لجلب الطبعة الانكليزية من « ملوك العرب » . وكان الكتاب موجوداً حسب الاصول ، لكني اكتشفت اكتشافاً بسيطاً هو عدم وجود المقدمة في الكتاب . واكتشفت كذلك السبب . قمت بترجمة النص [العربي] وقرأته على صف من التلاميذ الامريكيين . وكان رد الفعل مثيراً للاهتمام ، اذ كان السؤال الاول هو : « هل ان الريحاني مواطن امريكي؟ وكيف يتجرأ ان يكتب على هذه الشاكلة عن هذه البلاد الكريمة ؟ أليست هذه خيانة ؟» ولم أكن قد فكرت بالامر على هذا النحو قط ، لكني استطعت فهم وجهة نظر تلامذتي الامريكيين . إن الريحاني في صورته القلمية يصف نيويورك وحياته فيها وصف خبرة سلبية اساساً :

« وغدوت بعد عشر سنين في اميركة معجباً بنشاط الشعب الاميركي وبحريته في الفكر والقول والعمل ، خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا . وما كان خوفي على الامة الاميركية وانا في ذاك الحين ، في عين نفسي ، قطب كل ما اهتممت له ونقطة الدائرة في كل ما ملت اليه . خفت ان أغلب في ذاك الجهاد ، أشفقت على نفسي من ذاك التكالب » .

---

(١) امين الريحاني ، **ملوك العرب او رحلة في البلاد العربية** (بيروت : دار صادر ؛ مطبعة الريحاني ، ١٩٥١) ، ص١٠ .

ثم بعد هذا توجد تساؤلات تعجبية مثل : « ماذا في نيويورك غير الضوضاء والعناء والعياء والبلاء؟» (ص ٩) .

« ونسيت فرنسا الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وتردداً في مضار الحياة . صرفتني عن حقائق الوجود المادية ، وزينت لي الفنون الجميلة الحقائق المعنوية » .

وعن الكتّاب الانكليز : « ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية واجتماعية ، ارقى من الشعب الاميركي ، او احب الى من كان مثلي » .

« لله أنتِ ايتها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان أجهلك حياتي كلها ، فبعث اليّ ، وانا بعيد عنك ، انكليزياً يعرفني الى رسولك واميركياً يصف لي محاسن ابنائك » .

هذا هو جوهرياً خط الرحلة [الفكرية] الذي يتضح من نص المقدمة الخاص بسيرته الذاتية . إنه مشمئز من الولايات المتحدة . بسبب نزعته الفنية وبسبب اتصال اول سابق بالأدب الفرنسي . . ويكتشف ذاته في ارض اسلافه ولغتهم . وهو يروح ويجيء بين لبنان والولايات المتحدة . إنه يصبح مترجم لزوميات المعري[٢] .

ويقدم البرت الريحاني في سيرة قصيرة عن حياة اخيه نشرت سنة ١٩٤١ (بعد عام واحد من وفاة امين المبكرة) يقدم صورة قلمية صغيرة مؤثرة للحياة المبكرة لشقيقه الاكبر على لسان ذاته : « أنا الآن تاجر وعليّ ان أُعنى بشؤون والدي في غيابه . لكني عدت الى البيت في نحو الساعة الخامسة فذاكرت اعتباراً من ذلك الوقت حتى منتصف الليل قدر ما استطيع » . ويقول انه حاول استعمال المنبهات ضد النعاس : القهوة ، الشاي ، الحشيش ، وكذلك قليلاً من الويسكي ، اتباعاً لنصيحة ابن سينا ؛ لكنه في النهاية وجد ذلك ضاراً بأعصابه فأخذ يستعمل الماء البارد ليظل مستيقظاً . من ثم نجد قائمتين بكتب يرتئي دراستها في السنين القلائل التالية ، احداهما بكتب عربية والاخرى بكتب انكليزية وفرنسية . وهذا مؤرخ في ١١ تموز / يوليو ١٩٠١ . بعدئذٍ يصر ألبرت على القول إن اخاه ينهض في الخامسة صباح كل يوم من حياته ويعمل حتى منتصف الليل مع انقطاع قصير[٣] .

لقد قدمت هذا المقتبس لأنه يبين بشكل صارخ مدى السعي الشاق الذي سعاه الريحاني في عمله للوصول الى جذوره والتغلغل في اصوله بمحض قوة العمل المكثّف . ويمكن النظر الى كتاب ملوك العرب باعتباره النقطة التي يشق بها طريقه نهائياً نحو تلكم

(٢) الذي نشر في نيويورك عام ١٩٠٣ .

(٣) البرت الريحاني ، امين الريحاني : تآليفه ، حياته ومختارات من آثاره (بيروت : مطبعة الريحاني ، ١٩٤١) ، ص ١٦ وما بعدها .

الاصول بعد سنين عديدة من العمل الشاق ؛ وقد جرت الرحلة سنة ١٩٢٢ . فصار الكتاب عن ملوك العرب وسيلة لتعريف كل منهم بالآخر اذ لا يستطيع احد منهم ان يقول حقاً انه يعرف زملاءه الحكام او بلدانهم ، حتى ولا بواسطة تقارير موثوقة (المقدمة ، ص ١٨) ، سيّان الملك حسين او الامام يحيى او حتى عبد العزيز آل سعود العظيم . لكن الاهم من ذلك بكثير ان الكتاب صار وسيلة لاكتشاف الذات . إن الريحاني العربي (وإن كان لا يخفي قط كونه مسيحياً) يتنقل بين عرب شبه الجزيرة ويعكس نفسه في مرآة ميراثهم المشترك . وهذا الميراث يحياه سكان الصحراء الامراء منهم والعامة ، في حالتهم الطبيعية الجارية على رسلها من دون رويّة . . وكان ذلك موضع دراسة من قبل الريحاني ، وقد جرى التغلغل فيه بفاعلية وتم اكتسابه بمحض قوة الارادة والاهتمام والبصيرة الانسانية والعمل البدني والعقلي الشاق . وبوسع المرء ان يجد وراء كل هذا حافزاً رئيسياً واحداً : إرادة الانتماء والانتساب والمشاركة فيمن قرر الريحاني انهم قومه فعلاً ، وهويته ، وحضارته (وإن كان لا يسعه القول إنه قد وُلد فيها كلياً ، بل وبدرجة حتى اقل ان يقول انه شبّ فيها) . إن من السهل ان يرى المرء ان إرادته الحديدية للانتماء لهذه الحضارة ، وللمساعدة في بنائها ولجعلها مدركة لذاتها في جميع ابعادها ، هي وراء كل غزارة نشاط الكاتب وإنجازه .

وعندما نرجع البصر من النقطة المواتية ليومنا هذا لننظر الى حياة هذا الرجل وعمله (كان يجب ان يحتفل بذكرى ميلاده المئوية سنة ١٩٧٦) فإن أغرب شيء نراه هو المعاصرة في خبرته وفي عمله . ولقد بقي ذلك جديداً وواردا ذا صلة بصورة مدهشة الى اليوم . إنه اكثر جدةً من كل كتابات تلك المرحلة تقريباً . ويمكن تفسير هذه الحقيقة ، فالريحاني كان سلفاً واحداً . فقد خبر فردياً ووضع في اعماله (بين ١٨٨٨ حين وصل الولايات المتحدة وبين ١٩٢٤) ما خبر جماعياً جيل من بعده . إن الريحاني الفرد كان عليه ان يشد الرحال متنقلاً بين عالمين متنائيين ومتناقضين لكي يخبُر شخصياً ما حصل بعدئذٍ كخبرة جماعية لجميع المجتمعات والجماعات العربية تقريباً ، وذلك هو وجود وسيطرة الاجنبي وسطوته وحضارته ، وأدواته للانتاج والسلطة ، ومجريات تفكيره ، ومفترضاته المستبطنة ومعتقداته .

وكما فعل الريحاني فردياً قامت ، بعدئذٍ وعلى نفس شاكلته ، مجتمعات بأسرها تحاول ان ترفض جماعياً العنصر الاجنبي ووجوده المسيطر . إن هذه المحاولة هي القوة الدافعة خلف موجات القومية والسبب الاعمق لها ، تلك الموجات التي اكتسحت الجماهير العربية خلال العقود الحديثة .

ولئن أشرنا الى التشابه فيجب علينا كذلك ان ننتبه للاختلاف . ويبدو لي ان هناك بين الريحاني الفرد البشير وبين المجتمعات العربية الجماعية التي تلت ، ثمة فارقاً في تغلغلها

[العميق] وتوسعها [العريض] ، في احياء جذورها . إن الجماهير اكتفت في حالات عديدة جداً بالشعارات . والشعار في هذا الصدد يمكن تعريفه بأنه التعبير العاطفي المشبوب عن الرغبة بالانتماء للجماعة وعن تأكيد عظمتها . والشعارات يمكن أن تسير يداً بيد مع ذلك الجهل بالنفس الذي باشر الريحاني بمقاومته وذلك في الحالة الخاصة بعرب الجزيـرة . إن التغلغل والاحياء يعنيان اكثر من مجرد ارادة مشبوبة ، فهما يعنيان كذلك العمل والدراسة الحانية . إنهما يعنيان التغلب على ذلك الجهل بالذات ، على الصورة الثقافية عميقة الجذور (والراسخة) وايجاد مكان لهذه الصورة في الحاضر . وهذا ما لم يحققه جيل القوميين التالي على ما يبدو الا على نحو واسلوب محدودين . ولو كان الامر خلاف ذلك فلربما كان استطاع عبدالناصر ان يتجنب الحرب في اليمن ، اذا أشرنا [فقط] الى حالة واحدة واضحة بعض الشيء على المستوى السياسي . إننا لا نستطيع حتى في يومنا الراهن سوى ان نقدم بعض الاجوبة المترددة عن سبب كون الحال على هذا المنوال .

وتبدو المجتمعات وكأنها قد استحوذ عليها ما يسمى « بالحداثة » . إنها قد أجبرت على ان تقبل ، على ان تستوعب وتهضم ، المجرى المتعاظم من اجنبي الانجازات والاجراءات ومجريات الفكر والطرق والمواضيع واساليب الحياة ، وان تجعل ذلك ، بعبارة اخرى ، عائداً لها . واقول « أجبرت » على ان تقبل ذلك لأن بقاءها ذاته كجماهير حرة يعتمد على اولئك الذين يتقنون كل تلكم النفائس الاجنبية . ولو رفضت فعل ذلك (وهي حتى يومنا هذا مستمرة بفعل الشيء ذاته لأن العملية آخذة بالسرعة لا بالبطء) لاصبحت مجرد مسائل تعود للتاريخ بكل ما يعني ذلك من خسارة الشخصية وفي الختام الانسانية .

بيد أنه ربما كان ينبغي ايجاد مزيد من التوازن . فعلى الضد من الحيازة الضرورية ؛ والمفروضة فرضاً في عدد من الحالات ، للحداثة الغربية ، كـان ينبغي ايجاد المـزيد من عمليات الافصاح الذاتي عن النفس والحيازة ، من عمليات الاحياء وبالتالي اعادة الجريان في الماضي وفي الهوية اللذين كُسبا مجدداً . فمجرد المعرفة بذلك لن يكون وافياً بالغرض . فالمسألة ليست مسألة تكرار الصيغ القديمة للمعرفة او وضع سنة لمقتطفات ادبية مختارة . وما كانت تدعو الحاجة اليه على المستوى الاجتماعي إنما هو ما تمكن من تدبير القيام به الشخص الفرد الريحاني : إحياء وتوضيح هذا الماضي لكي يكون ذا صلة بنفسه وبحياته ، واقتناصه بشكل مادي ملموس هنالك في الصحارى العربية ، وروحانياً في الكتب الكلاسيكية القديمة ، وذلك لجعله جزءاً من حاضره بالذات .

ويمكن كذلك رؤية الفارق باعتباره مسألة اتجاه . إن الريحاني في حالته الخاصة جاء ، وكأنه اجنبي ، من الخارج ، من العالم المطبوع بمذهب الغرب والمسمى بالعالم

الحديث ، فأراد ان يعود الى جذوره . اما المجتمعات العربية مجتمعة ، وبشكل جماعي ، من قبله ومن بعده ، فقد جاءت من جذورها ثم انصرفت عنها ، وكان عليها ان تنصرف ، وقد ألجأتها يد التاريخ الجافية ، نحو الحداثة . والريحاني يظهر من وجهة النظر هذه بمظهر الرومانسي ، غير بعيد الشبه برحّالة الصحارى الاوروبيين الذين يذكر هو كتبهم بعميق الاهتمام في مقدمته (بركارت Burckhardt ، برتون Burton ، بالغريف Palgrave ، دوتي Doughty . . . الخ) . وهو يكاد يتصرف وكأنه مستشرق ، والمرء يعلم التحفظات الدفينة ضد هذا النوع من المواقف والتي يتفوه بها عدد كبير من العرب .

على ان قليلاً من الرومانسية قد يكون شيئاً حسناً . بل لعل ذلك يأتي في المستقبل . والكويتيون الآن يعودون الى الصحراء ، الى الخيم ، وإن كان ذلك لمحض قضاء العطلات السنوية او الاسبوعية وسياراتهم قريبة وفي متناولهم .

ولكن تحديث المجتمع حتى الآن قد افرغ مسبقاً أغلب الطاقات المتوفرة . ولم يجر الا القليل من اجل البحث عن الذات . . . وهو الامر الذي تزداد اهميته عند تحول المجتمعات من طور الى طور . . . وما جرى في هذا الباب لا يتجاوز تفوّهات طقوسية ، مشبوبة ، نشطة ، مشعوذة ، تصدر عن تلك الدعوة القومية الخاصة بتحقيق الذات والتي سيطرت في السنين الاخيرة على الفكر السياسي الى درجة بعيدة جداً .

الفصل التاسع

الشيخ احمد عارف الزين ومجلة العرفان

طريف الخالدي (*)

- ١ -

لو أننا تدبّرنا لحظةً من الوقت امر دائرتين متحدتي المركز تقريباً إحداهما اصغر في العيان من الاخرى؛ ولو أننا تصورنا ان خطوط كفافها الخارجية او محيطيها متشابهان اقرب الشبه ؛ ولو أننا تدبرنا كرةً اخرى في الدائرة الصغرى باعتبارها عالماً مصغراً [إنساناً] في داخل الدائرة الكبرى ، العالم الاكبر [الكون] ؛ ولو أننا تذكرنا أن الدائرة الصغرى لا تعكس الدائرة الكبرى فحسب ، بل تعمل بنشاط في تكييف مناخها الفكري كذلك ، لو أننا وضعنا كل هذه الاخيلة امام ناظرنا فسنتوصل الى صورة متعددة الابعاد للعلاقة بين جبل عامل ومجلة العرفان . ففي جبل عامل كانت اي مجلة تسمى ببساطة « العرفان »[1] . كان الامر كما لو ان اسم العلم قد امسى مرادفاً لاسم الجنس ، وكان الحال كذلك على الاخص في الفترة بين ١٩٠٩ و١٩٣٩ . فالعرفان لم تكن محض مرآة صادقة لمكانها وزمانها . إنها كانت ايضاً اداة ووسيطاً مباشرين للتحوّل الفكري . وقد كان للدائرتين المتحدتي المركز، معاً ، من الاثر المشترك ما تجاوز بعيداً حدود جبل عامل الجغرافية .

(*) اقدم شكري بادىء ذي بدء لزميلي د. مروان بحيري الذي كان اول من اقترح علي هذا الموضوع . اسجل كذلك خالص امتناني الى الذين زودوني بالمعلومات وهم صاحبا المعالي كاظم الخليل وعادل عسيران والسادة محمد قرة علي وموسى الزين شرارة . وآمل ان تكون الصورة التي رسمتها لجبل عامل قريبة من تلك التي في اذهانهم مع العلم ان جميع من ذكرت في حل من المسؤولية تجاه الآراء الواردة في هذا البحث . والدراسة مهداة لسماحة الامام السيد موسى الصدر الذي ادين اليه باهتمامي بجبل عامل .

(١) مقابلة مع السيد موسى الزين شرارة في ٢٣ / ٥ / ١٩٧٩ . انظر ايضاً : **العرفان** ، العدد ٤٩ ، ص ٥١٥ .

لذا ، فبتحليل العرفان وموقعها في الحياة الفكرية في المشرق العربي خلال هذه الفترة ، سيكون الامر في النهاية سيّان سواء بدأ التحليل التاريخي من الدائرة الخارجية وانتقل الى الدائرة الداخلية او العكس بالعكس . وعلى هذا فسأبدأ بتحليل موجز لطبيعة الشبه بين العرفان ومجتمعها الأم ولدرجته . ثم أمضي لفحص بعض الموضوعات (الثيمات) الرئيسية التي كوّنتها العرفان والمجتمع الذي أفرزها ، او تلك التي انعكس فيها . وأنتهي الى تقويم مؤقت لأهمية العرفان في مجتمعها المباشر . وقد يبدو كما لو ان التحليل ينتقل من الحيّز الداخلي الى الخارجي ولكن هذا هو مجرد وسيلة شكلية لتسهيل الامر او وسيلة في الاسلوب لا مقولة فلسفية رصينة بشأن العلاقة بين الافكار والمجتمع في التاريخ . وسيجري التأكيد ، في كل نقطة من نقاط هذا التحليل ، على الطبيعة الفذة لهذه العلاقة ، وعلى تلك الموضوعات والاحداث التي أضافت اليها العرفان شيئاً من ميزاتها الخاصة او ألقت عليها شيئاً من ضيائها الخاص بعينه .

ولو وقفنا على تخوم الدائرة الداخلية ، اي تخوم « العرفان » ، لبدت المجلة مفتقرة الى اي خط مذهبي واضح او الى اي التزام حزبي كان . ولعل هذا الافتقار لمذهبية التحرير هو ابرز مزايا المجلة لأن المحرر لا يمارس في حقيقة الامر رقابة ايديولوجية على المساهمين في التحرير . والرقابة الوحيدة التي مارسها كانت ذات طبيعة لغوية ، رقابة تطبق بأناقة وذلك بايلاج علامة تعجب بين حين وحين توضع بين قوسين جنب سقطة ما . ولا يعني هذا ان المحرر يفتقر الى المبادىء . بل انه كان يعتنق مبادىء قوية وكان هو نفسه ينتصر سياسياً [لبعض الآراء] بين حين وحين . بيد ان مبادئه تتسم بانفتاحها وبثباتها . وأعني بالانفتاح القيمة المثلى التي يوليها المحرر لحرية الكتابة ، التي ولدتها بلا ريب الفورة النشطة للأزمة العثمانية لسنة ١٩٠٨ . وأعني بالثبات ان تمسّك المحرر بالحرية وبقلة اخرى من المبادىء الاخلاقية الحيوية كالتعليم والوطنية لم يطرأ عليه اي تغيير تقريباً ، من بداية المرحلة قيد الدرس (١٩٠٩) الى نهايتها (١٩٣٩) ، وحتى ابعد من ذلك[٢] . إن هذا التمسك الجامد بالحرية قد مكّن المجلة ان تعمل كمنبر لآراء من مختلف الألوان . وما تفتقر اليه المجلة من إثارة فكرية إنما تعوضه بتحسسها للقضايا الخاصة بالمراحل التاريخية المتلاحقة .

- ٢ -

انتقل بعد ذلك الى تخوم الدائرة الخارجية، دائرة جبل عامل . حيث ازمع ان

(٢) انظر : افتتاحيات : **العرفان** ، الاعداد ١ ، ص ١ـ ٢ و٨ ؛ ١٠ ، ص ٢١٥ ؛ ١٤ ، ص ١ وما بعدها ؛ ١٧ ، ص ٢٨١ ، و٢٥ ، ص ١ وما بعدها .

أتناول بالبحث موضوعات وحقائق معينة كما أتناول صورها كما ظهرت في المجلة . وهذه الموضوعات لا تبرز فقط لمحض اهميتها الاحصائية الكمية ، بل تبرز لأن عدداً منها قد تم توضيبه من ناحية كيفية بطريقة المجلة الفذة ، او غير العادية على الاقل ، لذا فإن المؤرخ وهو يقترب من مجلة كالعرفان يجد انه يتناول بالبحث ، من حيث النتيجة ، كلّاً من مؤسسة تاريخية فضلاً عن مصدر تاريخي في آن معاً . إن العرفان غالباً ما توصف بأنها مدرسة ، مدرسة صاغت عقول المثقفين لجماعة معينة من الناس في مرحلة معينة من الزمن . لكن العرفان ايضاً مصدر ادبي رئيسي لتاريخ جبل عامل خلال فترة زمنية اطول بكثير . لذا فالمجلة هي تاريخ ومؤرخ معاً ، إذ تستخرج المادة التاريخية القديمة والقيّمة ثم تصنع تلك المادة بطريقة أسهمت في التحول التاريخي .

وهذه الوظيفة المزدوجة من الاستخراج والتصنيع تقود المرء اول ما تقوده الى فحص الصورة الذاتية التاريخية الموجودة في العرفان ، اي الى فحص وضع التأريخ historiography [كما وُضع] في المجلة . والمقالات الافتتاحية تكشف عن رجل يتمتع بحس عميق ودائم بصلة التاريخ الوثيقة . على ان الاهم من ذلك إنما يتمثل بأن المجلة شجّعت بصورة فعّالة ظهور وضع تاريخ شيعي خلق ، بكليته ، صورة ذاتية تاريخية فريدة لجماعة من الناس .

- ٣ -

ما هي السمات الرئيسية لهذه الصورة الذاتية ، ولماذا خلقت وكيف ؟

إنها ، باختصار ، صورة جماعة اسلامية شيعية التي هي عربية منذ الازل والتي يقال ان مذهبها الشيعي مستمد من كون افرادها هم أتباع الصحابي الشهير ابو ذر الغفاري . وجوهر هذه الرسالة [الشيعية] انها عربية منذ البدء ومسلمة منذ البدء[٣] . إنها كذلك صورة ذاتية إسلامية شيعية ، وهي صورة تعكس حساً أكيداً بالتضامن الديني ـ الجغرافي . أنا لا اتكلم هنا عن شعور اقلية إزاء اكثرية ، لأن الاقليات والاكثريات في تاريخ الشرق الاوسط ككل موجودة غالباً في عين الناظر . ولعل الكتّاب الشيعة في جبل عامل كانوا قد شعروا بأنهم اقلية في « لبنان الكبير » Greater Lebanon . لكنهم عوّضوا عن ذلك بالادعاء بأن الشيعة داخل لبنان هم اكبر طائفة

(٣) انظر خاصة مقالات الشيخ سليمان الزاهر ومحمد جابر آل صفا المتعددة في : **العرفان** ، العددين٨ ، و٢٧ ، ص ٤٦٠ وما بعدها على التوالي . انظر ايضاً الجدال حول المثالية الشيعية في : **العرفان** ، ، العدد ٢٤ ، ص ٨١٣ ـ ٨١٤ .

منفردة[٤] . ولعلهم في الوطن العربي ككل كانوا قد شعروا بأنهم اقلية إزاء السنة . لكنهم عوضوا بالانتساب الى عالم الاسلام الاكبر حيث لا يعودون اقلية من الاقليات ، كما عوضوا بالاحساس بأنهم قد حافظوا على عقيدة اسلامية صافية **واصيلة** . والمجلة منذ اوائل أيامها قد فتحت صدرها ، كتموّجات في بركة ، **لإيران وجاوة والصين واليابان** ، وهي في زمنها قد قدمت ما يحتمل ان يكون اوسع تغطية اخبارية صحفية عن **ايران والشرق الاقصى** مما هو موجود في اي مجلة عربية .

بيد ان هذه التغطية للمشرق لم تكن ثابتة ، بل متغيرة . ففي الفترة بين **١٩٠٩** ونحو **١٩٢٤** فحصت العرفان المشرق بدقة . غير ان التغطية من اواخر العشرينات حتى **١٩٣٩** تنكمش متقلصة من الشرق الاقصى الى الشرق الاوسط ، وهو انكماش يتزامن ، كما سأناقش ذلك فيما بعد ، او ينشأ عن هجمة استعمارية فرنسية قوية وتبعث على التفرقة وذلك في جبل عامل خاصة وفي الشرق الاوسط العربي عامة . وهذا الانكماش في التغطية الجغرافية عنى تعزيزاً للجسور العربية والاسلامية . وهذا لا يعني ان الصلات العربية الاسلامية للعرفان كانت خافية في البداية . فالدفعة الاولى بالذات من القوميين الذين ألقي القبض عليهم في **١٩١٥** كانت تتألف في اكثرها من مجموعة من العامليين ولدينا سرد قيّم من شاهد عيان شيعي عن الحياة اليومية في الديوان العرفي في عاليه كان كاتبه قد استطاع ان يهرّب قلماً ومفكرة الى السجن[٥] . ولكنه يعني انه يظهر في الصحيفة ، منذ اوائل العشرينات على الاقل ، تركيز كثير على الشؤون السياسية لسورية وفلسطين والعراق ومصر على حساب جميع المناطق الاخرى . وكانت المجلة ، ضمن هذه المنطقة العربية ، مناصرة للهاشميين في سياستها العربية العامة ومناصرة للحاج امين الحسيني في فلسطين . كانت العاطفة الشيعية التاريخية في المقدمة في كلا هاتين القضيتين ، لكنّ هذه العاطفة عززت حسن التضامن السياسي - الجغرافي والاقتصادي القائم اصلاً مع شمالي فلسطين ، وخاصة مع المدينتين التوأم حيفا وصفد . وما ان تعاظم نطاق تغطية المجلة لاخبار سورية وفلسطين في اواخر العشرينات وفي الثلاثينات حتى اتضحت المقولة الخاصة بمسألة الشرق وهو بإزاء الغرب في ذهن المحرر وكذلك في ذهن عدد من كتاب المقالات في مجلته . واصبحت مقولة الشرق /

(٤) انظر خاصة : **العرفان** ، العدد ١٧ ، ص ٥٠٤ والاحصاءات السكانية المهمة في : **العرفان** ، العددين ٢٦ ، ص ٥٩٥ و٦٤٩، و٢٧ ، ص٣ .

(٥) ورد هذا في عرض محمد جابر المهم لكتاب امين سعيد : **الثورة العربية الكبرى** في : **العرفان** ، العدد ٢٥ ، ص ٧٤٣ وما بعدها . وحول نشاط عبد الكريم الخليل في صيدا عام ١٩١٥ كما ذكرها المحرر ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٨ ، ص ٤٦٨ .

الغرب ، والتي ابتدأت كأزمة اخلاقية عميقة عجّل بحدوثها الغرب في الشرق ، اصبحت في مرحلة لاحقة عبارة عن ظاهرة تاريخية تؤثر بالحضارات اكثر مما تؤثر في البلدان وجرى تقبلها كجزء من نمط تاريخي اكبر للمد والجزر في الحضارة ذاتها[٦] .

على ان العرفان إنما أسهمت اسهاماً مهماً ومثيراً للتطلع وذلك في تغطيتها لشؤون الاسلام والمذهب الشيعي في الوطن العربي . لقد ألمحت آنفاً ان المجلة فتحت صدرها بدءاً بالامتداد الى الشرق وأنها انكمشت انتهاء الى شؤون العرب والاسلام . بيد ان الاسلام بكل اشكاله قد ظل بالنسبة للعرفان مجالاً دولياً حيوياً من مجالات الاهتمام زج المجلة بمجادلات مع اليسوعيين وكذلك مع السنّة وافضى الى طرحها ما قد يطلق عليه المرء نظرية في الوحدة الطائفية الاسلامية . فالمجلة في العشرينات قامت ، وقد خاب فألها بالعلمانية الساذجة المنتشرة في ايران وافغانستان وتركيا ، قامت بتركيز اهتمامها على وحدة طائفية عربية وإسلامية باعتبارها الهدف الديني العاجل . ويمكن القول ، في واقع الامر ، ان العرفان قد أخذت المبادأة لتنظيم الحوار الديني ضمن العالم الاسلامي وأثنت في الوقت عينه على الملك حسين عاهل الحجاز عن مقولته الشهيرة وهي : « نحن عرب قبل ان نكون مسلمين »[٧] .

ولو ابتغى المرء تفسيراً فكرياً لهذا الموقف المناهض للطائفية لأمكنه القول ان المذهب الشيعي بالنسبة للعرفان قد امسى ، ولاسيما بعد الانتداب الفرنسي ، موقفاً ذهنياً اكثر مما هو التزام طائفي . إنه موقف تغذيه نهضة في **كتابة التاريخ** شجعتها المجلة باطراد . إن المقالات عن جبل عامل ، الطويلة منها والقصيرة ، العتيقة والعصرية ، الجيدة والرديئة والوسط ، موجودة في كل مجلد ، وربما في كل عدد من صحيفة كانت على العموم شهرية . هذه المقالات هي في بعض الاحيان قاموسية الى حد كبير وتتناول تفصيلات اصول المعاني لاسماء القرى[٨] . وهي في احيان اخرى تتناول المسألة الاوسع الخاصة بالحضور الشيعي في التاريخ العربي والكفاح الملحمي بين علي ومعاوية

(٦) انظر على سبيل المثال : **العرفان** ، الاعداد ١، ص٢٩؛ ١٥ ، ص ٦٠٦ ؛ ٢١ ، ص ٣٩٤ ؛ ٢٥ ، ص ٧٦٩ ، و٢٧ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ . وقد ظهرت التحذيرات الاولى من الخطر الصهيوني في فلسطين عام ١٩١٠ في مقال عُرّب عن مجلة فرنسية في : **العرفان** ، العدد ٢ ، ص ٥٥٤ .

(٧) يقال ان كلمة « طائفية » بما تعنيه اليوم كانت « جديدة » عام ١٩٣١ ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢ ، ص ١٧ . وحول تعليق الملك حسين، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٢ ، ص ٦٣١ . وقد اعتبر الجدل مع اليسوعيين دفاعاً ثقافياً عن الاسلام ضد الهجمة اليسوعية التي ابتغت اعطاء التاريخ العربي الاسلامي ، في بواكيره ، صبغة شقاقية ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٨ ، ص ٧٨ .

(٨) مثلاً ، سلسلة مقالات للشيخ سليمان الزاهر عن اسماء القرى في جبل عامل التي ظهرت ، على نحو متقطع ، اعتباراً من عام ١٩٠٩ فصاعداً .

وعقبهما . كما كشفت المجلة كذلك عن اوراق مهمة تسرد الوقائع اليومية مثل السجل الشعبي الممتع للراكوني (او الركيني) الذي عاش في اواخر القرن الثامن عشر في صور ، وهو مصدر اجتماعي ـ اقتصادي فذ عن هذه المرحلة الزمنية ويذكّر بمعاصره سجل الحكايات الدمشقية للبديري الحلاق[٩] .

إن تدقيق المجلة المفصل في تاريخ سراة القوم وعوامهم في جبل عامل إنما يرفده في صفحاتها اهتمام شديد بتاريخ العراق وايران . ولست في وضع يمكنني من تقدير قيمة المعلومات التاريخية عن هذين البلدين، وأغلبها يتعلق بالقرن العشرين . لكن المكانة التي احتفظ بها جبل عـامل تقليـدياً في النجف وايـران جعلت العرفـان ، بمعنى من المعاني ، صحيفة للتاريخ الاسلامي المقارن . إن مشكلة الطائفية الاسلامية ، تحت ظلال التاريخ ، قد اضحت مشكلة جهل لا مشكلة اضداد لا يمكن التوفيق بينهم[١٠] . إن المجلة ، وقد قدم بها العهد ، قد اكتسبت قوة دفع تبشيرية كان من ابرز سماتها اتخاذ موقف وسياسة من التفاهم الفعّال القائم على الحلول الوسط . اما المماحكات الجدلية ضد شخصيات سنية مثل رشيد رضا ومحمد كرد علي واسعاف النشاشيبي فقد نظر اليها كـــرد لاهانات يولدها الجهل . وقد دعت تلك المجادلات الى الوحدة الاسـلامية بـاعتبارهـا مثلاً اعـلى دينياً وسيـاسياً كـذلك ، بـاسم فهم تاريخي اعمق للنصوص الاسلامية[١١] . وهو موقف غير بعيد كثيراً عن موقف **مؤرخين اوائل للاسلام** كـان الكثير منهم مشايعين لعلي في عاطفتهم ، تلك العاطفة التي استخدمت التاريخ كحقل اولي للجدل . ويمكن ، في الواقع ، تعريف المذهب الشيعي بأنه لجوء الى التاريخ ، والعرفان تحوي الكثير من ذلك .

إني امر سراعاً على صور وموضوعات اخرى تظهر في المجلة ، فأختار التأكيد على تلك الجوانب فقط التي تبدو لي نموذجية بالنسبة للعرفان . وأنا احصرها في فقرة واحدة على انها مسألة المرأة ، ومسألة الاشتراكية ، ومسألة العلم ومسألة المهاجرين الى افريقيا والامريكيتين بالدرجة الاولى .

المسألة الاولى تتركز على قضية الحجاب والسفور . وباختصار ، بدأت المجلة بتبني موقف مؤ يد للحجاب بصورة واضحة ، وانتهت الى قبولها بالسفور على مضض

(٩) يبدأ سجل الركيني في : **العرفان** ، العدد ٢٧ ، ص ٣ .

(١٠) انظر مثلاً ؛ **العرفان** ، الاعداد ٧ ، ص ٣١٧ ؛ ٢٧ ، ص ٣٥٤ ، و٢٨ ، ص ٥٢ ، ٥٧٩ و ٧٦٩ .

(١١) انظر : **العرفان** ، الاعداد ١ ، ص ٣٥٠ ؛ ١١ ، ص ٢٩٢ ؛ ١٢ ، ص ٤ ؛ ١٥ ، ص ٨١٣ ؛ ١٧ ، ص ٤٠١ ؛ ٢٣ ، ص ١٤٤ ـ ١٤٨ ؛ ٢٦ ، ص ٦١٩ ، و٢٨ ، ص ٥٧٩ .

وبالتسامح مع رأي سـائد مفـاده ان القضية الحقيقيـة هي تعليم المرأة لا مـظهرهـا الخارجي . اما في مسألة الاشتراكية فقد فسحت المجلة المجال لآراء من مختلف الالوان لكنها نظرت الى المسألة اساساً بصدد ديني لا صدد اقتصادي ـ اجتماعي . والمقصود بهذا ان العدد القليل نسبياً من الكتاب عن الاشتراكية نزعوا الى ان يروا في الاشتراكية نظاماً من القيم الاخلاقية الموجودة في الاسلام اصلاً . واما اهتمام العرفان بالعلم فهو ناشىء عن اهتمام المحرر الدائم بالتعليم وبتحسين احوال الريف . والكثير من المادة العلمية يحتوي على ارشاد زراعي او طبي موجه الى القرويين صراحة ، مع وجود باب دائم آخر في المجلة بعنوان « التقدم العلمي » يشتمل بالدرجة الاولى على المخترعات الحديثة . ويتصاعد اعجاب المجلة بالتقنية الغربية بنسبة عكسية مع ارتيابها بالاخلاق الغربية . وكان الافتتان باليابان بالنسبة لعدد من الكتاب رمزاً للكيفية التي يستطيع بها المرء ان يستخلص التقنية من الغرب دون ان يثقل كاهله بنظامه الخلقي[١٢] .

وقبل الانتقال الى الجزء التالي من هذه الدراسة ، والذي يتناول بالبحث المجتمع الذي انبثقت عنه المجلة ، لا بد من توجيه النظر الى الحركة القوية الادبية والدينية التي ازدهرت في جبل عامل من اواسط والى اواخر الثلاثينات وتبلورت حول ما كان يعرف « بعصبة الادب العاملي » وهي عصبة ادبية لم تتلق بعـد ما تستحقه من تقدير في تاريخ الادب العربي الحديث وفي تاريخ النهضة على العموم . وقد تأسست هذه العصبة اولاً في النجف ، في اواخر العشرينات او اوائل الثلاثينات من قِبل جماعة يمكن تسميتها « بشيوخ العلم من الشباب الغاضب » ، وذلك كتمرد ضد فئة [مؤ سسة] العلماء[١٣] .

سأؤ جل الآن بحث تلك المؤ سسة واحاول عرض الآراء الدينية والسياسية لهذه العصبة .

كان الشيخ علي الزين هو الروح المحركة وراء العصبة ، وهو من جبشيت ، عالم شاب درس في النجف ، ومن الموهوبين المعروفين . وقد نشر في ايار / مايو ١٩٣٧ بيان

(١٢) حول المرأة ، انظر : **العرفان** ، الاعداد ١ ، ص٨٢؛ ٦ ، ص ٥٠٥ ؛ ١١ ، ص ٢٦٢ ؛ ١٣ ، ص ٦٠٣ ؛ ١٤ ، ص ٤ ؛ ١٥ ، ص ٨٤١ ، و١٩ ، ص ٣٢٢ . حول الاشتراكية والبلشفية ، ما لهما وما عليهما، انظر : **العرفان** ، الاعداد ٦ ، ص ٩٥ ؛ ١١ ، ص ٤٥٨ ؛ ١٥ ، ص ٦٢٢ ؛ ٢٥ ، ص ٥٩٤ ، و ٢٨ ص ١٢ وما بعدها. حول العلم والتكنولوجيا ، انظر : **العرفان** ، العددين ١ ، ص ٤٦ ـ ٥٧ و ٥٢٠ ، و١٧ ، ص ٣٠٧ . حول اليابان ، انظر: **العرفان** ، الاعداد ، ١ ، ص ٢٩١ ؛ ٧ ، ص ١١٣ ، و١٧ ، ص ١٢١ .

(١٣) حول منشأ العصبة ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٧ ، ص ٢٤٣ . وقد أفادني السيد موسى الزين شرارة في مقابلة شخصيـة بتاريـخ **١٩٧٩/٥/٢٣** بمنشئها النجفي . حول الفجـوة بين الاجيـال ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٧ ، ص ١٢٤ .

العصبة في العرفان حدد فيه المبادىء الاساسية لجماعته . ويبدو ان الشيخ وهو يَسِمّ مناخ زمانه بأنه « اقطاعي » و«رجعي » و« غير ديمقراطي » (وهذا استعمال مبكر للكلمة العربية « رجعي » واحياء لكلمة « ديمقراطي ») يبدو وكأنه يعلن الحرب على عدة جبهات في الوقت عينه[14] . وقد طُرحت نظرية في الشعر والنقد الادبي لأن الادب ، بنظر عصبته ، قد غدا الاداة الاساسية للكفاح السياسي ضد « العلماء » ، واصحاب الاراضي الحاكمين والانتداب[15] . ويحدد الشعر الذي توافق عليه العصبة بأنه بسيط في اسلوبه وصادق مع واقع الحياة اليومية . لذا فقد شن عبداللطيف شرارة ، عضو العصبة ، هجوماً لاذعاً على ادباء جبل عامل ، وسفّههم لوصفهم اوروبا كما تُرى « من مقاهي النبطية » وقال ان « قوة العاطفة » هي جوهرية للكمال الادبي[16] . وجرت محاسبة الشعراء لأنهم لا يولون عناية كافية لوحدة القصيدة ، ولأنهم ينظمون قصائدهم بيتاً بيتاً على وجه الاستقلال . كما جرى انتقاد الشعراء ايضاً لتناولهم مواضيع نظرية يحسن بحثها بمقالات ، او لتناولهم مواضيع بالية محاكاة لاسلوب ابو تمام او السيد الحميري[17] .

وقد صُبّ الشعر الذي أطلقه الشيخ علي وعصبته في قالب فلسفي معين يمكن وصفه بأنه متحرر ومشكّك . وقد أخفى هذا كفاحاً سياسياً أعمق ضد التسلط الاجنبي والطائفية والتعمية الدينية ، وهذه الاخيرة تستحق الملاحظة على الخصوص وذلك لأغراضنا في هذا البحث . وقد جرى الهجوم على « العلماء » وهو جزء من **هجمة عامة** على جميع رجال الدين ، باسم المبادىء العليا لذلك الدين ذاته[18] . وقد خلع الكثير من الشيوخ اعضاء العصبة ارديتهم التقليدية [كالجبة والعمامة] الواحد تلو الآخر مدعين بقاءهم من المسلمين الاتقياء ، فأحدثوا ضجة في **اوساط** « العلماء » . وجرى تسخيف مبدأ الاجتهاد ذاته الذي هو فخر الشرع الشيعي وفقهه لأنه امسى شعاراً فارغاً ، ومشوشاً وبالياً . إن الاسلام الاصيل يجب ان يكون مفتوحاً باستمرار للمعرفة وللطوائف الاسلامية الاخرى[19] .

---

(١٤) حول البيان ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٧ ، ص ٢٤٣ .

(١٥) انظر مثلاً : **العرفان** ، العدد ٢٧ ، ص ٢٠ و ٢٥ وقد اكد السيد موسى الزين شرارة هذا الامر في المقابلة معه بتاريخ ٢٣ / ٥ / ٧٩ .

(١٦) حول هجوم شرارة ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٧ ، ص ٣٢٨ .

(١٧) حول هذه المواضيع وما اليها ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٧ ، ص ٣٢٨ و ٣٩٧ .

(١٨) انظر مثلاً : **العرفان** ، العدد ٢٦ ، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٨ . وقد اكد السيد موسى الزين شرارة هذا الامر .

(١٩) من المشايخ الذين تخلوا عن الزي الديني ، الحوماني ، حسين مروة ، محمد شرارة ، هاشم الامين ، =

وقد قيل إن العصبة قد تلقت بعض تصوراتها عن النقد الادبي من النوادي الادبية العربية في [المهجر] في امريكا الشمالية والجنوبية . على ان البيئة الخانقة للنجف يجب ان تعتبر سبباً بالاهمية نفسها[20] . فضلاً عن ذلك فإن احوال جبل عامل قد اوحت بأسلوب واداء شعريين قائمين بذاتها . واضفى ادخال الفاظ عامية معينة متداولة في جبل عامل في الشعر الكثير من البساطة والجمال والقدرة على التردداد . وقد أثار التهجم المضحك من قبل احد الشعراء على **الكهنوتية** غضب احد العلماء مما حدا به الى اصدار فتوى تحلل قتله عن الكفر[21] . إن العصبة قد نقلت الراديكالية الى طبقة العلماء .

- ٤ -

انتقل الآن الى القسم الاخير من هذه الدراسة التي تروم أساساً الى الاجابة عن السؤال او الاسئلة المطروحة سابقاً : كيف ولماذا ظهرت هذه الصورة بغينها في العرفان؟ وعلى وجه التحديد ايّ نمط من المجتمع اخرجت العرفان؟ ولا توجد بالطبع طريقة يمكن المرء بواسطتها أن يمسح الاقليم بأسره . إن **البحوث الثانوية** الشاملة لهذا العصر التاريخي (١٩٠٩ ـ ١٩٣٩) نادرة وذات نوعية مجهولة . والمشكلة الاخيرة هي اعقد الجميع ، الا وهي انسجام العلاقة ، او تصادفيتها ، او حتى عرضيّتها بين هذا العالم القلق من الافكار المبينة آنفاً وبين المجتمع القلق لجبل عامل . لذا فإني اطرح انطباعاتي عن هذا التاريخ بكثير من التردد[22] . على انه يمكن تقديم بضع ملاحظات تاريخية عامة ، ويعود الفضل في ذلك الى مجلة العرفان من جهة والى المقابلات مع شهود العيان من جهة اخرى .

إن مجلة العرفان نفسها تقول للقارىء ان هناك مفتاحين مهمين للفهم التاريخي للبنية الاقتصادية ـ الاجتماعية لجبل عامل . المفتاح الاول هو التقسيم الرباعي

= صدر الدين شرف الدين وجعفر همدر (المقابلة مع السيد محمد قرة علي بتاريخ ٢٤ / ٥ / ١٩٧٩ والسيد موسى الزين شرارة) . الهجوم على الاجتهاد في : **العرفان** ، العدد ٢٨ ، ص ٧٢ وما بعدها . وعقيدة الاسلام « المفتوح » في : **العرفان** ، العدد ٢٨ ، ص ١٦٥ وما بعدها .

(٢٠) التأثير الادبي العربي ـ الامريكي ، اشار الي به د. وضاح شرارة (٢٤ / ٥ / ١٩٧٩) . وقد اكتسب المهاجرون اهمية اقتصادية وادبية متزايدة في الثلاثينات ، انظر : **العرفان** ، الاعداد ٢٥ ، ص ٦٣٧ ؛ ٢٨ ، ص ١ وما بعدها ، و٢٩ ، ص ٥٩٩ .

(٢١) ثمة الكثير من الشعر المناهض لرجال الدين في الاعداد ٢٦ ؛ ٢٧ ،و٢٨ من **العرفان** . وقد قرأ لي السيد موسى الزين شرارة عدداً كبيراً من ابيات ذلك الشعر كما اطلعني على قصة العالم الغاضب .

(٢٢) اخبرني د. وضاح شرارة ان هناك ٤ او ٥ رسائل جامعية حول التاريخ الحديث لجبل عامل قدمت الى الجامعة اللبنانية في السنوات الاخيرة . ويشير د. شرارة في : **النهار** ، ٢٥ / ٥ / ١٩٧٩ ، ص ٧ ، الى مقال لاحمد بيضون عن احداث بنت جبيل عام ١٩٣٦ نشر في **دراسات عربية** عام ١٩٦٨ .

للطبقات الى « زعماء » و« علماء » و« وجهاء » و« عامة » من الفلاحين (سأبحث الاخيرين معاً) . والمفتاح الثاني هو نظام ضريبة الارض والتغييرات التي طرأت على الاقتصاد الريفي بمختلف القوانين الخاصة بضريبة الارض و[باجراءات] تسوية الاراضي[٢٣] . والمرء قد يغريه احياناً أن يعتبر المفتاح الثاني هو العامل الحاسم لولا أن « العلماء » و« الوجهاء » هم ايضاً من الطبقات القلقة ومناوئون للتغيير .

ومهما كان الحل لهذا اللغز الخاص بمفاتيح الفهم فسأحاول اولاً تعريف هذه الطبقات . فالزعيم لهذه المرحلة (وربما ينبغي الرجوع الى ثمانينات القرن التاسع عشر) كان ينظر اليه باعتباره الملاّك الزراعي الذي يحتفظ بوعي منه ببعض صفات شيخ العشيرة . واولى هذه الصفات التي حدّدها جميع الذين حادثتهم هي وجود بيت يوفر المأكل والمسكن مجاناً لكل من هبّ ودب ، حتى ولو لم يكن الزعيم موجوداً فيه لاستقبال ضيوفه . والزعيم يُرجع نسبه بفخر الى عشيرة عربية صحراوية . وكان له حتى اواسط او اواخر القرن التاسع عشر سلطة الحياة والموت على سكان اقطاعه . وهو في العادة ملتزم الضريبة الوحيد في مناطق شاسعة ، تعاونه شبكة من الوكلاء الاقطاعيين منتشرة في ارجاء الجبل . والزعيم يظهر وشيجة خاصة مع العامة من أتباعه . وفي مستهل القرن الحالي كانت العائلتان او العشيرتان اللتان تتوفر فيهما صفات الزعامة هما آل الاسعد وآل الفضل[٢٤] .

اما طبقة « العلماء » في هذه الفترة نفسها فهي اكثر تعقيداً لأنها احسن توثيقاً بكثير . وأسر العلماء تنتمي الى جميع الفئات في المجتمع فيما يختص بالمكانة الاجتماعية وروابط الزواج . ومما يعزز من هذه المكانة ، وهي في اوجها ، ان العلماء كانوا يمارسون قدراً كبيراً من السلطة القضائية الذاتية ضمن الامبراطورية العثمانية . وقد حكموا في عدد كبير جداً من القضايا المدنية لأن أغلبية المدعين الشيعة يفضلون الفصل في قضاياهم وفق المذهب الجعفري دون المذهب الحنفي **التابع للدولة** . **ويقف في قمة الترتيب الهرمي للمراتب العلمية** المجتهدون ، ويندر ان يكون عددهم اكثر من اثنين او ثلاثة . يليهم العلماء والشيوخ من مختلف درجات العلم والمكانة الاجتماعية . والمنظومة مفتوحة لأن بامكان اي واحد من اي طبقة اجتماعية الانضمام الى طبقة العلماء

(٢٣) حول هذا التقسيم الاجتماعي ، انظر : **العرفان** ، العددين ٢٥ ، ص ٦٣٧ ، و ٢٧ ، ص ٢٤٣ . حول النظام الضريبي في جبل عامل في اواخر القرن التاسع عشر ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٧ ، ص ٣٨٥ . هذا التقسيم الرباعي اكده كل من صاحبي المعالي عادل عسيران في مقابلة بتاريخ ٢٢ / ٥ / ١٩٧٩ و كاظم الخليل في مقابلتين بتاريخ ٢٤ / ٥ و٢٦ / ٥ / ١٩٧٩ والسادة محمد قرة علي وموسى الزين شرارة .

(٢٤) المعلومات تفضل بها السادة محمد قرة علي وموسى الزين شرارة .

والصعود الى القمة اذا كان ينعم بالاقتدار **الفقهي** . وينزع العلماء الى خلق سلالات (مثل اسر الامين ، شرف الدين ، شمس الدين وهكذا) لكن الدخلاء يجري **التغاضي عنهم دائماً** . وكانت كليات النجف أعرض معاهد الشيعة العلمية صيتاً ولذا كان ينظر الى العالم النجفي ، على الاقل حتى **١٩٣٥** ، باحترام خاص . ولم يكن من غير المألوف بالنسبة للفلاحين الاميين ان يبيعوا اراضيهم وماشيتهم لكي يرسلوا ابناءهم الى النجف[٢٥] .

وكان علماء هذه الفترة المعنيين مباشرة بالقانون ، يعتمدون لغرض تنفيذ احكامهم على السلطة التنفيذية لزعيم منطقتهم . لذا تنبثق محالفات سياسية مفككة بين عالم او اكثر وبين زعيم معين ، ولكن ، وبقدر ما استطعت تبيّنه ، لم يستقطب في هذه الفترة اي عالم مجموعة من علماء آخرين لغرض عمل سياسي منظم على الاطلاق . ومن بين مئات المقالات المكتوبة في العرفان بقلم علماء عن مواضيع شتى لا يوجد سوى مثل واحد لعالم طرح النظرية السياسية الشيعية عن « ولاية الفقيه » التي تقول بأن « العلماء » هم افضل من يقود المسلمين في غياب المهدي[٢٦] . اما بصدد النشاط السياسي فثمة تناقض ملموس بين علماء الشيعة العامليين والايرانيين . ففي اواخر العشرينات وفي الثلاثينات اتخذ علماء الجبل مواقف على طرفي الخط السياسي ، لكن هذا الخط كان قد رسمه سلفاً آخرون . كان العلماء عبارة عن جماعة مفككة اكثر مما هم طبقة اقتصادية ـ اجتماعية محددة بوضوح .

كان العلماء يسيطرون كذلك على التعليم والوعظ بالاضافة الى الشرع . وهذه السيطرة موثقة كل التوثيق اعتباراً من القرن الرابع عشر . وقد افلح علماء جبل عامل في القرن السادس عشر ، ثم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، في تأسيس مركز مهم للفقه الشيعي (ومركز حيوي بقدر تعلق الامر بايران) . ولم أستخرج عيّنات من جملة الفكر الشيعي بالتوسع الذي كان يجدر بي ، لكن انطباعي العام ، من وجهة النظر المستندة الى مناهج التدريس ، هو ان الاهتمام كان منصباً على العلوم الدنيوية بدرجة اكبر مما هو في مناهج التدريس السنية لتلك الفترة نفسها . إن اغلب المدارس التي أسسها العلماء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تدم بعد وفاة مؤسسها الاصلي .

(٢٥) المعلومات حول العلماء تفضل بها صاحبا المعالي كاظم الخليل وعادل عسيران والسيد محمد قرة علي . حول كليات النجف الاشرف ، انظر :
M.F. Jamali, «The Theological Colleges of Najaf,» in: R. al-Droubie, ed., *Arabic and Islamic Garland: The Tibawi Festschrift* (London: The Islamic Cultural Centre, 1397 / 1977), pp. 135-140.

(٢٦) انظر : **العرفان** ، العدد ٢١ ، ص ٥٥٢ .

لكنهم عوّضوا عن الافتقار في الاستمرارية الزمانية والمكانية بتوزيع جغرافي في ارجاء الجبل . وعلى اي حال كان العالم في كل الاوقات اهم من مكان التعليم[٢٧] .

اما بشأن مصدر دخل العلماء فإن قلة منهم فقط كانت تملك الاراضي في حين يعيش أغلبهم على الصدقات والمعونة الخيرية . وعلماء القرى الصغيرة يعيشون كلياً على كرم القرويين الذين يزودونهم بالسكن والحاجيات الضرورية الاساسية ويقدمون لهم العطايا في مختلف المناسبات الاجتماعية والدينية . وكان الخِمس ، وهو ضريبة دينية قديمة ، مساهمة طوعية كلياً في هذه الفترة ، ويدفع من ابناء الجماعة الاتقياء والاثرياء الى كبار العلماء من السادة من سلالة اهل البيت . ولم يكن الخمس يدفع بانتظام كما كان مقداره خاضعاً للمساومة . وفي اوقات الاستقطاب السياسي الشديد يجتذب زعيم ما جماعة من العلماء الى جانبه وذلك بدفعه رواتب سنوية منتظمة لهم . وكان جل علماء النجف والذين كانوا في مركز سيطرة حتى مستهل القرن الحالي ، يميلون الى الوقوف سياسياً بجانب المجتهد الاكبر في النجف لأن اغلبهم كان يعيش إبّان التلمذة على مكرمته[٢٨] . وعلى العموم فإن طبقة العلماء كانت اقل الطبقات تأثيراً بالتغيّر الاقتصادي . لقد كان العلماء ، ومن جميع النواحي العملية ، يعيشون على الصدقة .

والمجموعة الثالثة هي مجموعة « الوجهاء » التي ظهرت اول ما ظهرت على الصعيد السياسي في جبل عامل في اواخر القرن التاسع عشر حينما انطلقت ثلاث او اربع اسر في صيدا وصور والنبطية وبنت جبيل فرفعت نفسها الى طبقة الزعماء وذلك باكتسابها لملكية الارض او لصيرورة افرادها من الملتزمين . ان صعود هذه المجموعة الصغيرة من تجار المدن الى طبقة الزعماء وثيق الصلة بتاريخ ضرائب الارض وتسوية الاراضي العثمانية ، كما طبقت في جبل عامل . ثمة معلومات عن هذا الموضوع وعن هذه الفترة في العرفان وإن كانت المعلومات الاكثر تفصيلاً لا يزال بالوسع الحصول عليها من مصادر شفوية[٢٩] . وهكذا فإن ظهور مجموعة الزعماء المحدثين هذه كانت امارة من امارات التغييرات الاقتصادية المهمة والباقية .

---

(٢٧) ثمة سلسلة مهمة من المقالات حول علماء ومدارس جبل عامل بقلم محمد جابر في : **العرفان** ، الاعداد ٢٧ ، ص ٤٦٠ وما بعدها ؛ ٢٧ ، ص ٦٣٠ وما بعدها ، و٢٨ ، ص ٢٢ وما بعدها و ٢٢٦ وما بعدها .

(٢٨) المعلومات حول احوال العلماء المعيشية تفضل بها صاحب المعالي كاظم الخليل والسيد محمد قرة علي .

(٢٩) حول النظام الضريبي في الفترة العثمانية الاخيرة وآثاره الاجتماعية ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٧ ، ص ٣٨٥ ـ ٣٩٠ . والكثير من المعلومات المفصلة حول نظام الضريبة والوجهاء تفضل بها صاحب المعالي كاظم الخليل .

وقد بدأت طبقة الوجهاء ككل تحتل **الصدارة** السياسية وتمتاز عن بقية السكان باعتبار افرادها من الوجهاء وذلك عقب قانون الاراضي العثماني لسنة **١٨٥٨** . ولم يوضع هذا القانون موضع التنفيذ مباشرة بل جرى سريانه تدريجياً في مختلف مناطق الامبراطورية بمختلف الاوقات . وبدأ تأثيره بالظهور في جبل عامل في سبعينات وثمانينات القرن الماضي . إن تسوية الاراضي ، على بدائيتها وعدم دقتها ، قد نظمت ضرائب الارض وجعلت من جبل عامل ، الى جانب ذلك ، **وحدة اقتصادية اكثر رشاداً** فغدت الزراعة اجزى دخلاً من ذي قبل . واخيراً ، خلق قانون الضريبة وتسوية الاراضي جيشاً صغيراً من الموظفين الماليين والقضائيين كان أغلبهم على درجة كبيرة من ضعف المرتب بحيث انهم سرعان ما توصلوا الى تفاهم مع وجهاء المدن ، فأخذ النظام الضريبي يعمل لمنفعة الطرفين معاً . وامسى الوجهاء انفسهم من موظفي الدولة في كثير من الحالات . وفي هذه الطبقة من الوجهاء وُجدت في صور تسعينات القرن الماضي جمعية واحدة على الاقل من الجمعيات الادبية والسياسية **الجنينية** التي هويت الاشتغال بأمور من المعروف جيداً انها محرمة من قبل الدولة العثمانية[٣٠] .

إن مناقشتي تقتصر حتى الآن على القول بأن الوجهاء هم في الاصل مجموعة من تجار الحبوب في جبل عامل في الفترة من اواسط الى اواخر القرن التاسع عشر ، استغل عدد صغير منها القوانين العثمانية الجديدة لشق طريقهم الى طبقة الزعماء المجزية والاعرض صيتاً ، وذلك عن طريق صيرورتهم ملاكين للارض وملتزمين للضرائب وموظفين في الدولة . وأبرز ثلاث عوائل أمكنها تحقيق شق طريقها هي آل عسيران وآل الخليل وآل الزين . فبمستهل القرن دخل كل هؤلاء الثلاثة ، بطريقة او باخرى ، في طبقة الزعماء . في هذه الاثناء لم يبق من طبقة الزعماء العشائرية القديمة سوى عشيرة الاسعد . وبذا اقتسمت هذه الاسر الاربع فيما بينها عملياً التزام الضرائب والكثير من السلطة السياسية في جبل عامل . اما القوى المحركة لعلاقاتها المتشابكة فهي موضوع معقد . والمنازعات بينها غالباً ما كانت منازعات بشأن الحاجة التي تمليها الحدود الاقليمية : حدود التزامهم للضرائب . وقد زودهم استخدامهم **الموفق** لنظام الضريبة كما زودهم سلطانهم على موظفي الدولة الماليين بثقة بالنفس وبشعور بالاستقلال تمخض عنها اعتناق نوع او آخر من انواع القومية . واختار الزعماء على العموم من بين القوميتين المتوفرتين وهما الاسلامية والعربية / السورية ، فاختاروا الثانية . وإن احد الاسباب التي مكنت الشيخ احمدعارف الزين من اصدار العرفان لذلك الامد الطويل هو تمتعه

---

(٣٠) حول هذه الجمعيات الادبية والسياسية « الجنين » ، انظر : **العرفان** ، العدد ٢٤ ، ص ٧٠٤ وما بعدها . والفترة موضوع البحث هي تسعينات القرن الماضي .

بالدعم السياسي الثابت لاسرة الزين ، والتي لم تفرض عليه ، مع ذلك ، مذهباً صارماً بعينه .

وحين اندلعت الحرب العالمية الاولى كان قد مر على قوانين الارض العثمانية الجديدة في جبل عامل نحو ثلاثين او اربعين سنة . ومع تقدم الحرب كان من الواضح ان جبل عامل آخذ بالرخاء . وقد عاد تولي العسكريين للادارة على الملتزمين والفلاحين بأرباح طائلة . وبنيت شبكة من مستودعات الجيش التي كانت تصرِّف ، في كل يوم ، كميات هائلة من الحبوب .

واخذ الجيش العثماني والدولة يطلبان الآن ضرائب الارض عيناً بدلاً من طلبها نقداً من الملتزمين كما في الفترة السابقة . فكان المخمنون المكلفون بهذا الواجب يصلون بسرعة الى اتفاق مع الملتزمين يتم بموجبه تخمين حاصل الارض في جبل عامل بأقل من حقيقته وتكون النتيجة زيادة نصيب الفلاحين والملتزمين والمخمنين جميعاً من حصتهم المقررة من وارد الضريبة على حساب الدولة العسكرية الادارة[٣١] . ومن هنا فإن قلاقل جبل عامل في اوائل العشرينات وفي الثلاثينات مثل كلاسيكي للانتفاضات التي تحدث لأن الامور كانت تتحسن ثم تتوقف بغتة .

كان الانتداب الفرنسي في جبل عامل مثيراً للحنق بشكل خاص لأنه انهى فجأة ازمان الحرب « السعيدة » واعاد نظام الضريبة العثماني لما قبل الحرب ، وهي حالة استمرت نحو ١٢ سنة الى ان أجرى الفرنسيون اولاً تسوية الاراضي في اوائل الثلاثينات ثم الغوا بعدئذٍ جميع ضرائب الارض . وقد أحكم الانتداب الفرنسي في العشرينات قبضته الاقتصادية على لبنان الكبير واقتطع لحسابه مبالغ طائلة من الذهب من سورية ، او قيل انه فعل ذلك ، لربط العملة السورية بالفرنك الفرنسي المتأرجح .

وتفاقم على صفحات العرفان جدل اقتصادي عنيف مثير للاهتمام . وتغدو مناهضة الطائفية مسألة من المسائل حينما ادرك كثيرون ان وحدة العمل الاقتصادي ضد الانتداب هي هدف جدير بالاعتبار[٣٢]. واصبحت بيروت عاصمة مزدهرة على عجل ، فتبدو وكأنها بابل العصرية لمحرر العرفان المندهل . والجبل تفرض عليه الضرائب الباهظة ويجري تجاهله باطراد من قبل الفرنسيين . وتعكس افتتاحيات العرفان في العشرينات بين حين وحين خيبة الامل العميقة في الانتداب ، فيبرز منها

(٣١) الكثير من المعلومات حول اقتصاد جبل عامل خلال الحرب الكبرى تفضل بها صاحب المعالي كاظم الخليل .

(٣٢) انظر مثلاً : **العرفان** ، الاعداد ٩ ، مواضع متفرقة ؛ ١٤ ، ص ٣٦١ ، و٢٥ ، ص ٧٧٦ . حول خروج الذهب من سورية ، انظر : **العرفان** ، العدد ١٦ ، ص ١ وما بعدها .

الرأي القائل بأن الانتداب ليس افضل من الحقبة العثمانية بل ربما كان أسوأ منها بكثير .

انطلق العنف في جبل عامل على مرحلتين رئيسيتين . المرحلة الاولى هي تمرد ادهم خنجر وصادق حمزة ، والثانية هي حادث سنة ١٩٣٦ في بنت جبيل . في الحالة الاولى كان التمرد عبارة عن تمرد فلاحي عفوي تصادف مع فجاءة التغييرات الضريبية . وفي الثانية كان الامر هو ان ادارة انحصار التبغ التابعة للدولة فرضت اجراءات اقتصادية قاسية انتقاماً من الزعماء الراديكاليين والوجهاء الجدد الذين يقودون مزارعي التبغ المتذمرين . وبذا تكون طبقة الفلاحين متورطة مباشرة في الازمتين السياسيتين الكبريين لجبل عامل خلال الانتداب الفرنسي[٣٣] .

- ٥ -

لم تستطع العرفان تسجيل هذين الحدثين بالدرجة نفسها من الحرية التي سجلت بها الحقبة العثمانية الطويلة . فالمجلة ، شأنها شأن طبقة العلماء التي ينتسب اليها المحرر ، حملت عن الامور نظرة اخلاقية متشددة ، وكانت بمعزل عن السياسة اليومية ، وإن لم تكن منفصلة عن الموضوعات السياسية النظرية . وكان الانفصال السياسي انعكاساً لسياسة الحذر التي تنهمك بها طبقة العلماء . فعلماء جبل عامل ينحدرون من « لا وعي جماعي » علّمهم الوقوف على مسافة امينة من الامبراطوريات كما علمهم معاملتها بحذر . والشيخ احمد عارف الزين قد اوجد مجلة حصيفة سياسياً في روحيتها والتي تتيح لنا ان نلاحظ كيف رأى العلماء بخاصة دنيا جبل عامل . والمدارس المؤسسة في اواخر القرن التاسع عشر علمت العامليين تفهّماً أدق من الناحيتين التاريخية واللغوية للنصوص الاسلامية الشيعية . وغرست هذه المدارس في طبقة الوجهاء خاصة تفهماً اكثر تهذيباً للتحول السياسي والاقتصادي . وكان العلماء ، حتى قبل ان يصطرع الزعماء القدامى والجدد مع العثمانيين والفرنسيين ، كانوا مندفعين وحدهم ضد الهيمنة الفكرية للنجف . مع هذا ، ومع ان العلماء كانوا هم اوائل حَمَلَة التغيير العقائدي في هذه الفترة فإنهم كانوا آخر المجموعات الاربع في انضمامها للكفاح السياسي ، عقب اضطرابات ١٩٣٦ .

إن العرفان ، مجلة « العلماء » ، تعطينا نظرة شاملة وهادئة عن هذه التحولات التاريخية . إن نهضة جبل عامل كما تعكسها المجلة موضوع جدير بالتقويم الشامل . وينبغي القيام بذلك عاجلاً ، حين يكون لا يزال بوسع الباحث مقابلة الاحياء من ذلك الجيل الفائت .

(٣٣) المعلومات حول هاتين الانتفاضتين تفضل بها صاحبا المعالي عادل عسيران وكاظم الخليل والسيد موسى الزين شرارة .

القِسم الثّالث

دمَشق، بغدَاد، صَنعَاء

الفصل العاشر

الحياة الفكرية الدمشقية في مستهل القرن العشرين: محمد كرد علي ومجلة المقتبس

سمير صيقلي

- ١ -

لقد ركّز المؤرخون ، العرب والاجانب معاً ، اهتمامهم ، عند تدوينهم تاريخ الحياة الفكرية العربية وتجدّدها وتطورها في مستهل القرن الحالي ، تركيزاً بارزاً على القاهرة وأسسوا تحليلهم على نتاج المثقفين الذين سكنوا تلك الحاضرة العظيمة او عملوا فيها . وهذه الظاهرة الشائعة مفهومة جيداً، بل كانت موضع التعليق بين حين وحين . فالقاهرة ، من بين جميع العواصم العربية ، كانت في ذلك الوقت قد أفلتت من النير العثماني ، كما أنها تمتعت ، تحت السيطرة البريطانية ، بدرجة من الحرية أتاحت حياة فكرية ناشطة لا تزال اشكالها ومظاهرها المختلفة الاجناس باقية وفي متناول اليد للمؤرخين المعاصرين من اجل الدراسة والتقويم[١] .

ومع ان انهماك الاذهان بمدينة القاهرة والدور الاعظم الذي لعبه مثقفوها قد أثمر سجلاً تاريخياً هو في بعض اقسامه ذو كفاءة ومعرفة ونضج ، لكن هذا السجل نفسه ، بصورته الكلية ، قد رسم من الناحية الفعلية مسار النشوء الفكري العربي بشكل منحرف[٢] . والافتراض الذي تقوم عليه معظم الدراسات التاريخية الفكرية ،

---

(١) طالما اشار كرد علي نفسه الى الحرية النسبية التي تمتعت بها مصر فعلياً تحت الحكم البريطاني ، انظر مثلاً : محمد كرد علي ، « غرائب الغرب ، » المقتبس ، السنة ٤ ، العدد ٩ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) ، ص ٥٢٢ .

(٢) تمثل الدراستان :

Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1938,* and Abdallah Laroui, *L'Ideologie arabe contemporaine: Essai critique,*

نمطاً متفوقاً من النتاج التاريخي حول التطور الفكري العربي . لكنهما تقيمان تحليلهما على مفكرين نشطوا في مدينة القاهرة . وباستثناء الدراستين : فهمي جدعان ، **اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث** =

والنتيجة التي توحي بها ضمناً ، هما ، وإن كانا لا يعرضان بصراحة دائماً ، ان العقل العربي كان في القاهرة وحدها هو العقل الحي والناشط ، في حين كان على النقيض من ذلك في جميع المدن العربية الاخرى - مع احتمال استثناء بيروت - حيث كان في حالة من الجهل المطبق والفاقة الثقافية التي تكاد تكون مطلقة .

إن هذا التخصيص للتطور الفكري العربي ، على ما فيه من قصور فعلي ، هو تخصيص غير مقبول من الناحيتين التاريخية والموضوعية . وقد اخذ الاستقصاء التجريبي المفصل يظهر ، في حقيقة الامر ، رأياً معاكساً بعض الشيء [للرأي الاول] . ففي بيروت بالتأكيد ، وكذلك في دمشق وطرابلس والقدس وحيفا كان ثمة الكثير من الجَيَشان الفكري والنشاط الثقافي الملموس ، المعكوس مباشرة في ظهور الجرائد والمجلات وفي انتشارها الواسع ، فضلاً عن الاعمال الفردية الكثيرة عن مختلف المواضيع الادبية واللاهوتية والعلمية . ولغرض توثيق وعرض حالة من حالات النشاط الفكري المتواصل خارج حدود مدينة القاهرة، ولغرض المساعدة في تصحيح الرأي السائد عن مسار النمو الفكري العربي وطبيعته في مستهل القرن العشرين نقدم هذه الدراسة المختصرة عن محمد كرد علي وصحيفته « المقتبس » .

- ٢ -

إن نشر « المقتبس » في دمشق لم يتوافق في الحقيقة مع تاريخ صدورها . فقد كانت الصحيفة تظهر بانتظام في القاهرة وذلك منذ ١٩٠٦ (محرّم ١٣٢٤هـ) اي قبل ثلاث سنوات كاملة من نقل كرد علي لها الى عاصمة ولاية سوريا[٣] . لكن القاهرة ، التي لم تكن تثقل كاهلها قيود الرقابة ، كانت مجرد موطن ملائم ومؤقت . و« المقتبس » كصحيفة في القاهرة كانت فائضة عن الحاجة ؛ فالمدينة كانت تعج بمطبوعات مماثلة .

=(بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩) ، ونازك سابا يارد ، **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة** (بيروت : مؤسسة نوفل ، ١٩٧٩) ، اللتين تشيران عرضاً الى كرد علي ، فإن معظم الكتابات العامة حول التاريخ الفكري العربي والاجنبي في عصر النهضة ، يركز كلياً على القاهرة ومثقفيها . ويكشف : اسكندر لوقا ، **الحركة الادبية في دمشق** ، ١٨٠٠ - ١٩١٨ (دمشق : مطابع الف باء الاديب ، ١٩٧٦) عما تستحقه دمشق من اهتمام باعتبارها مركزاً للعلم والذي لم تحظ به بعد كاملاً .

(٣) لم تظهر **المقتبس** بانتظام وعند بداية كل شهر عربي الا عندما كانت تنشر في القاهرة ، اي بين محرم ١٣٢٤ هـ، شباط / فبراير ١٩٠٦م وذي الحجة ١٣٢٦ هـ، كانون الثاني / يناير ١٩٠٩ . وحينما انتقلت الى دمشق اخذت تظهر بصورة غير منتظمة وعشوائية بعض الشيء بسبب المضايقة الرسمية المتكررة . وعلى الرغم من ان كل مجلد بعد عام ١٩٠٩ ، كان يحوي اثني عشر عدداً ، كما الحال قبل العام المذكور ، الا ان الاعداد لم تكن تنشر بالضرورة في بداية كل شهر في التقويم الاسلامي . وآخر عدد حمل اسم شهر كان عدد رمضان ١٣٢٧هـ ، ايلول / سبتمبر ١٩٠٩ . وبعدها اقتصر كرد علي في ترقيم دوريته على ذكر السنة والمجلد والعدد . من هنا فإن الاشارة الى **المقتبس** في هذا البحث ستتبع طريقة الترقيم الاخيرة التي وضعها صاحب المطبوعة .

كما ان خدمات الصحيفة لم تكن مطلوبة ، فهي لا تستطيع شحذ الاصلاح ولا الدعوة له بصورة هادفة ، ذلك الاصلاح الذي كان اصلاً يتقدم للأمام كما أنه واضح للعيان في كل مكان . وفي ١٩٠٩ ، وعلى اثر خلاص سوريا من قبضة سوء الحكم الحميدي ، نقل كرد علي « المقتبس » الى [مسقط رأسه] دمشق ، وهي برأيه المحل الطبيعي لمجلته والموضع اللائق لاداء الخدمة التي تروم الصحيفة ان تؤديها[٤] . وقد كرر كرد علي بلا كلل ، وباخلاص يتجاهل تجاهلاً متفائلاً محاذير التكرار الرتيب ، وفي كل عدد تقريباً - رسالة المقتبس - وهي كذلك مبرر [وجودها] ومفادها : تثقيف قرائها لتبصيرهم بواقع الانحطاط العربي ، وبالتالي لتعريفهم بالحاجة الماسة للاصلاح وللتجديد وبالدرب المؤدي اليهما[٥] .

ويبدو من النظرة الاولى للمقتبس ان شكلها وأسلوبها وكذلك محتوياتها هي على النقيض فعلاً من غرضها التعليمي . فشكل الصحيفة بالنسبة للقراء الحاليين - وربما بالنسبة لمعاصريها من باب اولى - ليس شكلاً جذاباً من جميع النواحي : إن صحائفها ، على نقيض المقتطف والهلال مثلاً ، خالية من الزينة خلواً شديداً ، ولا تزينها الرسوم ولا الصور . ولم يكن هذا الاغفال ناجماً عن تحفظات صوفية من جانب كرد علي ، الذي كان في هذا الصدد يقدر كل التقدير دور الفنون الجميلة في توسيع مدى الوجود الانساني وإثرائه ، وإنما كان بالاحرى نتيجة ضائقات مالية حقيقية[٦] . ولكن ، وفي حين كان جمهور الصحيفة مسامحاً بشكل كريم بشأن هذا النقص البسيط ، فإن كرد علي قد وُبِّخ على عجل بشأن ما في اسلوبه وتعابيره من صفات معينة . إذ سخر شكيب ارسلان ، رداً على الاعداد الاولى ، بصورة ودية لكنها قوية نوعاً ما من استعمال كرد علي للسجع ، ذلك الاسلوب من ادب المحاكاة العقيمة

(٤) حول الانتقال الى دمشق ، انظر افتتاحية : **المقتبس** ، السنة ٤ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) . وكرد علي يقدر بالطبع كل التقدير اهمية المدينة . فهي بالنسبة له عاصمة سورية وقلبها الجغرافي ، ومركز حكومتها والبوابة المؤدية الى الاضرحة الاسلامية المقدسة . **المقتبس** ، السنة ٥ ، العدد ٤ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م) ، ص ٢٣٥ .

(٥) حول آراء كرد علي القوية والصريحة بشأن دعوته ودعوة مطبوعته الاصلاحية ، انظر افتتاحية : **المقتبس** ، السنة ٣ (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م) ؛ السنة ٤ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) ، والسنة ٦ (١٣٢٩هـ/١٩١١م) بالاضافة الى خاتمة مجلد السنة ٤ .

(٦) نشر وجيه كوثراني في كتابه : **بلاد الشام : السكان ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين - قراءة في الوثائق** (بيروت : معهد الانماء العربي ، ١٩٨٠) ، ترجمة لرسالة من القنصل الفرنسي في دمشق يزعم فيها ان كرد علي مدين كثيراً في بداية حياته المهنية ، الى الممثلين القنصليين الفرنسيين في المدينة بالاعانة . وتشير الرسالة على وجه التعيين الى صحيفة **المقتبس** اليومية (لا المجلة) ولا تقيم اي برهان قاطع على تلقي كرد علي معونات فرنسية في اي وقت من الاوقات . ويبدو من مذكرات كرد علي (محمد كرد علي ، **المذكرات** ، ٣ج (دمشق : مطبعة الترقي ، ١٩٤٨ - ١٩٤٩) ، ج ١ ، ص ٥٦ - ٦٣) ومن **المقتبس** ، السنة ٣ ، العدد ١ (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م) ص ٥ و ٦ ان الاخير كان يموّل صحيفته بصعوبة من ريع ارض له ومن مبيع الصحيفة وعائدات الاشتراكات فيها .

الذي يُعنى بمعارضته[٧] . فسارع كرد علي ، وهو من الفتوة بحيث لا يقنع برضائه عن نفسه ومن الحنكة بحيث لا يطرح جانباً نقدات خبير ، سارع الى تصحيح ما في لغته من نقائص وطوّر لنفسه مع الزمن اسلوباً واضحاً ومباشراً فكان الوسيلة المناسبة للدعوة لمفاهيم اجنبية ولغرس معتقدات غير مألوفة في الاذهان .

اما بصدد المحتوى فقد كانت المقتبس في البداية ضحية طموح صاحبها المغالى فيه . كان كرد علي يذكّر قراءه ، على صفحة الغلاف من كل مجلد ، بهوية المقتبس وطابعها ومجالها :

« مجلة شهرية تصدر في دمشق الشام . وهي تعليمية ، اجتماعية ، اقتصادية ، سياسية ، ادبية ، وتهتم بعلوم طبقات الارض واللغات والشؤون التربوية والصحة والفهارس ، وبالحضارةالعربية والغربية »[٨] .

وفي واقع الامر ، ومن حسن الطالع [كذلك] ان الصحيفة ، كما أثبتت ، لم تصل كلياً قط الى مزعوماتها الموسوعية . ومع ان كرد علي كان يترجم بين حين وحين ، ويوجز بانتظام مقالات اجنبية تتعلق بمعارف تكوّن ، من ناحية المبدأ على الاقل ، المجال المعلن للصحيفة ، فإن « المقتبس » ركزت بصورة متزايدة ، وعلى مرّ السنين ، على القضية الجوهرية الخاصة بالعلاقة بين « الحضارتين العربية والغربية » . وكان التحوّل في التوكيد وفي المنظور تحولاً خطير الاهمية ، حقاً : لقد أطلق « المقتبس » من عقال العموميات التافهة والاقتطافية [الاقتباسية] الجارية على غير هدى ، وأتاح لها اثناء ذلك ، ان تبرز وتحافظ على مركزها باعتبارها أجرأ صحيفة مناصرة للاصلاح والحداثة في سوريا قبل الحرب العالمية الاولى واكثرها تماسكاً واتساقاً والتزاماً في ذلك المضمار[٩] .

- ٣ -

كانت جذور كرد علي الاكاديمية وتكوينه الثقافي من الامور الفريدة للغاية ،

(٧) وردت انتقادات شكيب ارسلان في رسالة نشرت اقسام منها في : **المقتبس** ، السنة ١ ، العدد ٣ (١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) ، ص ١٦٨ .

(٨) انظر مثلاً صفحة غلاف : **المقتبس** ، السنة ٦ (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) ، والسنة ٧ (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) .

(٩) الجدير بالذكر ان كرد علي اخطأ في مذكراته بشأن العدد الصحيح لمجلدات المقتبس وسنوات صدورها . فهو يذكر (كرد علي ، **المذكرات** ، ج١ ، ص ٦٢ و ٣٠٨) انه صدر منها ثمانية مجلدات وعددان منفصلان قبل نشوب الحرب التي انهت حياة مطبوعته . الا ان المجموعتين المنفصلتين المستخدمتين في هذه الدراسة تبينان ان ثمانية مجلدات صدرت بالفعل الا ان الاعداد ٧ - ١٢ من المجلد الثامن ظهرت عام ١٩١٦بعد سنتي انقطاع من جرّاء الحرب . انظر على الاخص : **المقتبس** ، السنة ٨ ، العدد ٧ (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) ، ص ٤٨١ .

وذلك من بين الجماعة المتنوعة من المثقفين العرب الداعين للاصلاح . فعلى نقيض محمد عبده وطاهر الجزائري ، وهما معاً قدوته ومصدر الايحاء له ، لم يكن كرد علي من الذين تلقنوا الدرس الديني النظامي او المقرر رسمياً[١٠] . وعلى خلاف يعقوب صرّوف وشبلي شميّل ، المفكرين الحائزين على اعجاب كرد علي ، لكن شططهما في الحجة احياناً يوغر نفاد صبره ، لم يتجاوز تعليم كرد علي العلماني مستوى المدرسة الثانوية[١١] . كان اداؤه في مدرسة رشدية حكومية بدمشق اداء عدم الاكتراث ، كما أقر صراحة في مذكراته ؛ وكان ما اكتسبه بالدرجة الاولى بعد سنين كثيرة من الدرس هو معرفة مرضية بأسس اللغة التركية !وفي تلك المدرسة نفسها ابتدأ بدراسة اللغة الفرنسية ، لكنه إنما حذق استعمالها وتعرف على أحسن آدابها اثر سنتين من دراسة تكميلية في مدرسة الازارية في دمشق[١٢] . ولكن في حالة كرد علي ، كان علمه اكبر بكثير من تعليمه المدرسي . ذلك انه بفضل الاتصال الجاري بين حين وحين مع كبراء علماء الدين في دمشق ، وتحت إرشادهم الدائب[١٣] ، ونتيجة للدراسة الشخصية الوثيقة للمفكرين الفرنسيين الرئيسيين[١٤] ، كان كرد علي يعتبر اصلاً - حين باشر باصدار « المقتبس » في الثلاثين من عمره - قديراً في اسلوبه ومفكراً ذا معرفة ، محيطاً بالعلوم الاسلامية الكلاسيكية فضلاً عن المواضيع العلمانية العصرية[١٥] . ومع هذا

(١٠) حول دور محمد عبده وطاهر الجزائري وتأثيرهما في تكوين تطلعات كرد علي الفكرية وتشربه بنزعة الاصلاح ، انظر : كرد علي ، **المذكرات** ، ج١ ، ص ٢٧ - ٢٨ و٢٥١ - ٢٥٨ بالاضافة الى النبذة الذاتية في : محمد كرد علي ، **خطط الشام** ، ٦ ج (دمشق : المطبعة الحديثة ، ١٩٢٥ - ١٩٢٨) ، ج ٦ ، ص ٤١١ - ٤٢٥ .

(١١) حول تقويم كرد علي **للمقتطف** ويعقوب صروف مفكراً انظر : « مجلة المقتطف ، » **المقتبس** ، السنة ١ ، العدد ٤ (١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) ، ص ١٧٢ - ١٧٧ . وفي عرض لمنشورات شبلي شميل ، يطري كرد علي تعاليم الاخير العلمية والفلسفية والاجتماعية . وفي حين انه لا ينتقده لدعوته لنظرية داروين (التي كانت بنظر كرد علي صحيحة علمياً ولا تتناقض والدين) ؛ الا انه لا يوافقه على اتجاهه واسلوبه الدعائي الجارح . للمزيد من التفصيل انظر : « مؤلفات الدكتور شميل ، » **المقتبس** ، السنة ٧ ، العدد ٨ (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) ، ص ٦٣٢ - ٦٣٣ .

(١٢) بالاضافة الى سيرته الذاتية في **المذكرات** و**خطط الشام** ، هناك المزيد حول حياة كرد علي المهنية باسرها في : جمال الدين الالوسي ، **محمد كرد علي** (بغداد : دار الجمهورية ، ١٩٦٦) ؛ سامي الدهان ، **محمد كرد علي : حياته وآثاره** (دمشق : المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٥) ، وشكيب الجابري ، **محاضرات عن محمد كرد علي** (القاهرة : ١٩٥٧) ، بالاضافة الى المجلد الذي صدر في ذكرى ولادته المئوية : **محمد كرد علي : مؤسس المجمع العلمي العربي** ، كتاب مهرجان ذكرى مرور مئة عام على ولادة الاستاذ الرئيس الذي اقيم بدمشق خلال اسبوع العلم السادس عشر سنة ١٩٧٦ (دمشق : مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٧) .

(١٣) ومن اهمهم في هذا الصدد : طاهر الجزائري ، محمد مبارك وسليم البخاري، انظر : كرد علي ، **خطط الشام** ، ج٦ ، ص ٤١٢ .

(١٤) من المؤلفين الفرنسيين الذين قرأ لهم بلغتهم ، وبالتسلسل : فولتير ، روسو ، ومنتسكيو ، تين ، رينان ، سان سيمون ، هانوتو ولوبون ، انظر : المصدر نفسه ، ص ٤١٣ .

(١٥) بالاضافة الى مساهمته في الكتابة والتحرير في بعض ابرز الصحف المصرية **كاللواء والمؤيد** ، ساهم كرد علي بكتابة مقالات **للمقتطف** قبل ان يبدأ باصدار صحيفته ، انظر مجلدات ما قبل الحرب لمجلة المقتبس .

فإن تعليمه غير الاصولي قد حبا فكره بانعطافاته الفريدة ونقاط توكيده المتميزة .

وقد ادرك كرد علي كل الادراك ، كغيره من المصلحين العرب الناشطين في مطلع القرن ، وافصح بصورة قاطعة عن الطبيعة الاساسية لعصره ومجتمعه : الانحطاط المشرف على الركود والزوال المطلق . كان الانحطاط بالنسبة له ، وذلك ضمن الامة الاسلامية وكذلك ضمن البلاد (الامة) العربية ، وعلى الاخص في سوريا ، وعلى جميع مستويات الوجود الانساني ، كان الانحطاط اظهر من ان يُمارى او أن يُخفى ، واخطر ، بذاته وبنتائجه ، من ان يطاق او ان يعذر . كان محمد عبده من قبله قد أبان في كتاباته أسباب علة الانحطاط وذلك بصورة دائبة وكذلك مقنعة لقرائه . أما كرد علي ، فلأنه كان أشد اهتماماً بالعلاج منه بالمرض ، وبعبارة اخرى لأنه كان معنياً بدرجة اكبر بقلب ظاهرة التردي على اعقابها لا معنياً بمجرد تفسيرها ، فقد ارتضى في مقالاته ان يكرر تحليل استاذه وسلفه . إن المعرفة في الامة الاسلامية ، تحت تأثير الملوك والسلاطين الجهلة الذين خربوا الديانة والعلم لكي يصبغوا ارتقاءهم غير الشرعي لسدة الحكم بصبغة الشرعية والدوام ، إن المعرفة تلك قد فقدت حيويتها وأصالتها . فكان العلماء ، وهم اهل المعرفة ، يعظون ، امتثالاً لأوامر اسيادهم السياسيين ، بتسليم الناس امورهم للسلطان ، ويحرّمون استعمال العقل استعمالاً حراً ، فضلاً عن تعمدهم تقييد مهمتهم بالدعوة للتقليد الاعمى لا غير ، وبالتوسع بطراً ، في مسائل الفروع ، والتي هي مجردة من العقل والحكمة والمنفعة على حد سواء[16] .

إن بداية الانحطاط الاسلامي العام يمكن تحديدها تاريخياً على وجه يقارب الدقة ، برأي كرد علي ، بنهاية القرن السابع الهجري . اما بالنسبة للعرب على الاخص ، فإن بداية عصر الجهالة المظلم ، [بداية] اجيال الانحطاط الثقافي فضلاً عن الاجتماعي - الاقتصادي ، إنما تزامنت مع ضم العرب الى الامبراطورية العثمانية . ولئن ساور كرد علي الظن في بعض الاحيان بأن الانحطاط العربي ربما كان نتيجة لا مفر منها من جراء الدخول في نظام سياسي هو في جوهره عسكري النزعة لأنه «دولة سيف وسنان » ، وهو بالضرورة على هذه الشاكلة اذا أخذنا بنظر الاعتبار الغارات الاوروبية التي لا تنقطع ، فإن اعتقاد كرد علي الحقيقي ، مع هذا ، هو ان العثمانيين كانوا وعلى نحو موروث عاجزين عن التعقل كما كانوا يعارضون كل شكل من اشكال الحضارة . وهو يرى ان الامبراطورية العثمانية هي تترية من حيث الاساس ، فهي

(١٦) في مقاله « اعداء الاصلاح ، » المقتبس ، السنة ٦ ، العدد ١٢ (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) ، ص ٧٣٧ - ٧٤٢ ، شن كرد علي احد اعنف هجوم بالعربية على « العلماء » الجهلة الذين يقفون عامدين بوجه اي اصلاح .

بهذه المثابة لا تولي اهتماماً للعلم ولا للثقافة ؛ إنها في الحقيقة تقيس ، وبشكل فظ ، قوتها بحجم جيوشها ، ومعرفتها بقدرة أسلحتها ، وعظمتها بمزاولة جبروتها ومجدها بسعة فتوحاتها[17] . والبرهان على هذا الإمحال الثقافي ، وكذلك الخزي الاكبر بالنسبة له لهذا الامحال ، إنما يتجلى في القصور الاساسي للغة التركية . فالتركية ، على النقيض من العربية ، ليست لغة تحص ديناً كونياً او معرفة علمية عمومية . فضلاً عن ذلك فإنها لا تنتسب لا الى ثقافة قديمة ولا الى حضارة معروفة ومعترف بها[18] .

ومع الزمن اكتشف كرد علي كلفة تقويمه الواطىء للمنجزات الثقافية التركية . لقد نجا مرتين من القاء القبض عليه ، الأولى في اواخر سنة ١٩٠٩ (رمضان ١٣٢٧هـ) ، والثانية سنة ١٩١٢ (١٣٣٠هـ) ، وذلك [بأن سبق الاحداث] بهروب عاجل الى مصر . على ان صحيفته عانت اسوأ من ذلك بكثير : فبسبب المضايقة الرسمية صار صدور « المقتبس » على نحو غير مستمر وعلى فترات فاصلة غير منتظمة خلال ١٩٠٩[19] ، اما في ١٩١٢ فعلى اثر مصادرة المطبعة الخاصة لمالكها كرد علي ثم بيعها قسراً ، عانت الصحيفة انقطاعاً شديداً واصيبت بضرر لا يمكن تعويضه . ففي فترة سنتين (١٣٣٠ - ١٣٣١هـ / ١٩١٢ - ١٩١٣م) لم تصدر سوى ستة اعداد ، إثنان منها على ما يظهر في القاهرة حيث التجأ اليها كرد علي[20] . وعند عودته الثانية الى دمشق امتنع في الواقع من الحط علناً من شأن المنجزات الثقافية العثمانية . ومع هذا ففي كتاباته ، كما في نظرته بأسرها ، تحولت اسطنبول ، عاصمة الامبراطورية ، الى رمز لشرق بأسره متخلف ، اتكالي ، لا يعرف التقدم ، ذي ابهة ومهابة في الظاهر ، لكنه في واقع الامر يحيا حالة من الجهل واللامبالاة الخاملة[21] .

(١٧) ظهر هذا في مقال « القديم والحديث ، » المقتبس ، السنة ٤ ، العدد ١ (١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩م) ، ص ٣٠ - ٣٤ . هذا المقال وغيره في المقتبس بالاضافة الى كتابات اخرى متفرقة جمعها كرد علي في كتاب : القديم والحديث (القاهرة : [د . ن .]، ١٩٢٥) .

(١٨) « العربية والتركية ، » المقتبس، السنة ٤ ، العدد ٢ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م)، ص ١٠٩ - ١١٢ .

(١٩) حول المحن التي تعرض لها المؤلف والمضايقات التي تعرضت لها المجلة انظر خاتمة : المقتبس ، السنة ٤ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) ، ص ٧٩٩ - ٨٠٠ .

(٢٠) حول تفاصيل هذه المرحلة القلقة والمرتبكة انظر خاتمة : المقتبس ، السنة ٧(١٣٣٠هـ / ١٩١٢م)، ص ٩٥٩ - ٩٦٠ (والتي كتبت على ما يبدو في نهاية عام ١٩١٢) .

(٢١) عند نهاية سفرته الاولى الى اوروبا سنة ١٩٠٩ اقام كرد علي في اسطنبول بعض الوقت . وانطباعاته عن تلك المدينة في : « غرائب الغرب ، » المقتبس ، السنة ٥ ، العدد ١ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م) ، ص ٥٤ - ٦٨ . بالاضافة الى مقاليه « القديم والحديث، » ، و« العربية والتركية ، » يمكن ان نستشف تقويم كرد علي الحقيقي للحضارة التركية في : « حكومة الشورى في المملكة العثمانية ، » المقتبس ، السنة ٤ ، العدد ١٢ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) ، ص ٧٦٨ - ٧٧٤ ، « ظلامات عصر الظلمات ، » المقتبس ، السنة ٥ ، العدد ٨ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م) ، ص ٤٨٩ - ٤٩٦ ، و« مدن العرب ، » المقتبس ، السنة ٧ ، العدد ٦ (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) ، ص ٤٠١ - ٤٠٩ .

ولغرض تفسير المأزق المحيّر الناشىء عن سرعتين غير متساويتين [في الاندفاع] والتباين بين حضارة غربية تتصاعد نحو الايفاء المادي والانساني وبين حضارة شرقية مقيدة بما فيها من جمود ، وربما ايضاً لغرض الخروج من ذلك المأزق ، ادلى المثقفون المسلمون قبل كرد علي بحجة مفادها ان الاسلام ، وهو الشكل الخارجي والجوهر للحضارة الشرقية ، لا هو سبب الجمود ولا هو مظهره . وكانت حجة محمد عبده أن المجتمع الاسلامي والحضارة الاسلامية إنما اصابها الانحطاط تحت تأثير ظروف تاريخية دخيلة لكنها عابرة، وكذلك لابتعاد المسلمين أنفسهم عن الفهم الصحيح للعقيدة الاسلامية وعن التطبيق الصحيح لها . ورأى محمد عبده ان التجديد سيصاحب وضعاً تاريخياً جرى تحوّله ، لكن قوة دفع التجديد الى الامام ومساره يعتمدان على ادراك سليم لتعليمات الاسلام وتطبيق صحيح لها . وباتباع محمد عبده لمنهجية ارتدادية في طبيعتها فإنه أبان ان الرجوع الى لب الاسلام سيكشف ان صفات الحضارة الحديثة سابقة الوجود في ذلك الدين وأنه يحتوي عليها فإحياؤ ها سيعيد للحضارة الاسلامية حيويتها وقدرتها الخلاقة وبصيرتها .

وقد تبنى كرد علي بصراحة ، وذلك عن عقيدة ، وكذلك لاعتباره الجدل العقائدي مضيعة للوقت والجهد ، تبنى منظومة محمد عبده الوفاقية على اعتبارها صحيحة تاريخياً وضرورية عملياً. فأخذ يؤكد ، وهو يعكس آراء سلفه العظيم ، وكذلك آراء جمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكبي ، الموقف المتفق عليه والذي يفيد بأن الانحطاط لم يسببه الاسلام بذاته بل إنه نشأ كنتيجة للادراك الناقص والتطبيق المعيب لسننه المقدسة(٢٢) . لكن الاسلام ، كما أفاد كرد علي في مقال له عن « الاسلام والحضارة » ما أن يتحرر من الخرافة الدخيلة والهرطقة الوافدة ، وبعبارة اخرى ما أن يستعيد ذاته نقية من الشوائب ، حتى ينكشف ديناً لا يناقض روح الحداثة بل ويتفق فعلياً معها . فالاسلام ابعد شيء عن كونه عقبة في سبيل العلم ، وهو في جوهره واصوله دين يحث على التقدم ويأمر بنشر العلم [المعرفة] ورعاية الآداب والفلسفة والعلوم(٢٣) .

إن حجة كرد علي لإثبات توافق الاسلام مع الحضارة الغربية ، بالصيغة المذكورة ، هي حجة مستعارة من الغير وكثيرة الحشو ، كما أقر هو نفسه . لكنه ، وكما تشهد بذلك مقالاته في المقتبس ، وبعد ان اكد الإرث [الفكري] لسابقيه ، أخذ يعدّل

(٢٢) عبر عن هذه الآراء مقال يبرر تأسيس معهد ديني عال في القدس زمن الحرب ، انظر : « الكلية الصلاحية ، » المقتبس ، السنة ٨ ، العدد ٨ (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) ، ص ٥٦١ - ٥٦٩ .

(٢٣) « الاسلام والمدنية ، » المقتبس ، السنة ٤ ، العدد ١٢ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) ، ص ٧٤٢ - ٧٤٨ .

ويحوّر بشكل مهم وعميق في روح المنظومة التي ابتناها المصلحون الاسلاميون السابقون ، وكذلك في بعض منطلقاتها واستنتاجاتها الاساسية .

ففي حين يشكل الاسلام ، برأي سابقيه ، نظاماً شاملاً وموحداً ، رسم كرد علي بشكل ظاهر للعيان - وكنقطة الانطلاق لتحليله - حداً فاصلاً بين مجالين هما الديني والدنيوي . وبالقياس الى هذا ، وعلى المستوى الفكري ، ثمة طبقتان منفصلتان من العلم هما علم الابدان وعلم الاديان ، وبعبارة اخرى مختصرة ثمة شكلان من العلم [المعرفة]، علم دنيوي وعلم ديني . وكما وضع كرد علي العلم الدنيوي مقدماً على الديني ، ومن جرّاء ذلك ، فإنه أفاد أيضاً انهما في مجاليهما غير متكافئين ، وكذلك الامر في مبادئها التنظيمية التي تدعمها . إن العلم الديني ، قائماً على التسليم لله ومسنداً بذلك ، هو في آفاقه ووظيفته النهائية علم بيّن الحدود كل البيان : إنه يأمر بالسلوك المستقيم وبتطهير الروح تمهيداً ليوم الحساب واستعداداً للحياة الآخرة [وهذه حدود ضيقة جداً] . أما العلم الدنيوي فهو على النقيض من ذلك ، علم اوسع بشكل ملحوظ وألصق صلةً . فالعلم الدنيوي ، الغائر الجذور بالبرهان العقلي والناشىء عن طريقه ، ينظم الوجود الانساني في الحياة ويبتدع الطرق لتقدم البشر ورفاههم وسعادتهم(٢٤) . ويعتقد كرد علي أنه لا يوجد تناقض ضروري بين هذين النمطين من العلم وليس من المحتم ظهور النزاع بينهما . ولكن ، وفي حالة جدلية افتراضية ينطوي فيها الايمان الديني على روح الحضارة الحديثة وعلمها ، يجب اعطاء الاولوية بداية للعقل كمقياس للحقيقة ووسيطها النهائي(٢٥) . على انه ، وبرأي كرد علي ، ليس [للجانب] النظري سوى شأن قليل ؛ وقد تمسك على الدوام بالرأي القائل بوجود مجالين منفصلين قائمين بذاتها ، اولهما محدود بالايمان الديني ولا يذهب الى ابعد من ذلك ، والآخر يتيح للعقل ممارسة حرة وكاملة ، بل هو ثمرتها ، وبدونه لا يمكن لأي حضارة ، بما في ذلك اكثر الحضارات تديناً ، ان تزدهر او تدوم(٢٦) .

إن الاسلام برأي كرد علي ، هو كامل وتام [نهائي]، شأنه كالوحي والايمان والدوغمة dogma . وعلى عكس ذلك فالحضارة المعاصرة الاسلامية والعربية الدنيوية هي حضارة قاحلة وخاملة . وكان العلاج بالنسبة للمصلحين السابقين باطنياً : [ألا وهو] إعادة اكتشاف الاسلام الاصلي الصحيح الذي سيترتب عليه تجديد فوري في كل

(٢٤) انظر : « العلم الصحيح ، » المقتبس ، السنة ١ ، العدد ١٠ (١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) ، ص ٤٩٢ - ٤٩٨ .

(٢٥) « القديم والحديث، » و« الاسلام والمدنية ، » .

(٢٦) انظر : « العلم الصحيح ، » ص ٧٤ .

مناحي الحياة الاسلامية. ولكن عملية التجديد برأي كرد علي لا بد لها من ان تستحث خارجياً: فالحضارة الراكدة، حقيقة وعلى وجه التحديد، غير قادرة على إحداث التحريك لنفسها. لكن من الممكن للمسلمين عامة وللعرب خاصة ايجاد نظام ثقافي متجدد الحيوية وذلك بشرط اقرارهم واعترافهم بحتمية الاستعارة من الغرب، وعلى حد تعبير كرد علي البالغ القوة: « ... لا قيام لأمرنا بغير الاخذ من مدنيّة اوروبا »[٢٧].

ومع ان كرد علي يبجّل إرث التمدن الماضي الباهر للمسلمين والعرب معاً، وطالما رجع اليه في مقالاته، فإنه رغم هذا يرى ان حضارته الموروثة تواجه، في عصره، ضدها الحضاري الغربي وذلك من موقع تدن واضح، واتكال، بل من موقع « أسرٍ وتبعية ». بيد انه في حين ينحي باللائمة على الاعتماد الكلي على الغرب ويرجو حدوث تحرر تاريخي، فهو مع هذا لم يوارب قط في الحقيقة المركزية لتفوق التمدن الغربي او يمارِ فيه[٢٨]. فالحضارة الغربية بنظره هي مفهوم معقد، وثيق الصلة ودائب النشوء، وعدد ما فيه من المعاني والاصوات الرنانة هو بقدر ما فيه من اسطح وظواهر. لكن قاعدة تلك الحضارة، برأيه، هي قاعدة ثابتة وغير متغيرة على خلاف بنيتها الفوقية. ويقوم العقل في صميم الحضارة الغربية وهو الذي يديمها ويحركها ويغذيها. والعقل في الغرب، كالحضارة المقامة عليه، هو في طبيعته ومبتدعاته، غزير، لكنه متناقض في الظاهر. وهو يعمل، برأي كرد علي، بدون عوائق وبلا حدود، ومع هذا احدث مجتمعاً ثقافياً يقدّر قيمة النظام والتنظيم والتناسب، وكذلك حافظ عليه. والعقل، كذلك حيوي وجريء بالاساس، وإن كان احياناً متغطرساً وطائشاً، لكنه مع ذلك يولّد المجتمعات ويحفظها، تلك المجتمعات المتجانسة والمنضبطة والمستقرة. بيد ان العقل في حالة واحدة، و« في تطبيق العلم على العمل » هو جليٌّ ومذهل معاً وفي الوقت ذاته. والعلم، باعتباره تجسيداً للعقل وشكله

(٢٧) الرأي ان الاحياء العربي يعتمد على الاخذ الحضاري الواسع من الغرب كان ثيمة تكررت في عدد من مقالات المقتبس. وهذه العبارة بعينها مأخوذة من: « القديم والحديث، » ص ٣٣.

(٢٨) زار كرد علي اوروبا مرتين قبل الحرب العالمية الاولى. المرة الاولى عام ١٩٠٩ والثانية عام ١٩١٣. وقد سجل انطباعاته الاوروبية الاولية في سلسلة مقالات نشرت تحت عنوان « غرائب الغرب » في الاعداد الاخيرة من: المقتبس، السنة ٤ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) والاعداد الاولى من السنة ٥ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م). اما رحلته الثانية فقد كتب عنها في الاعداد الاولى القليلة من: المقتبس، السنة ٨ (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) تحت عنوان « في ديار الغرب ». وهناك اشارة في: المقتبس، السنة ٥، العدد ٤ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م)، ص ٢٨٢ الى ان مقالات « غرائب الغرب » نشرت عملاً كاملاً في دمشق عام ١٩١٠ بالعنوان نفسه. ونشرت الطبعة الثانية منه في القاهرة عام ١٩٢٣ وفيها تفاصيل رحلته الثالثة الى اوروبا (محمد كرد علي، غرائب الغرب: كتاب اجتماعي، تاريخي، اقتصادي، ادبي، ٢ج (دمشق: ١٩١٠)؛ ط ٢ (القاهرة: المكتبة الاهلية، ١٩٢٣). إلا ان تحليل هذا البحث لتصور كرد علي للحضارة الاوروبية يعتمد كلياً على ما كتبه في المقتبس.

الابرز، قد حبا الغرب بقوة كاسحة وسلطان جامح. وبواسطة البخار والكهرباء وهما « صفوة العلم الاوروبي » - حول الحضارة الغربية نفسها من طور الى طور وهي تحول بقية الانسانية على شاكلتها. وأفاض كرد علي في حماسته يقول إنه بفضل التطبيق المزدوج لهما (البخار والكهرباء) اختصرت المسافات وزُرعت البراري وسُكنت الاراضي الموات[٢٩]. وبينما يصاعد الغرب بعناد نحو الكمال بفضل زخمهما المشترك يتلكأ المجتمع العربي في الخلف، وإن تقدم - إذا تقدم على الاطلاق - فبسرعة أذل المخلوقات من ذوات الاربع واسخفها: البغل[٣٠].

ومع ان اوروبا تشهد بأجمعها على تقدمها، إنما هي مدينة باريس التي جرى فيها الكشف عن تمام التمدن الغربي. ولا يستبعد ان التصوير المثالي للمدينة على صفحات المقتبس لا يمثل سوى شبه بسيط بالعاصمة الفرنسية في العقد الاول من القرن العشرين. غير ان هذه الملاحظة لا تطعن بصدق كرد علي: فقصده لم يكن في الواقع رسم تخطيط دقيق لحاضرة اوروبية رئيسية. إنه بدلاً من ذلك كان ينحت بصورة هادفة رمزاً له معناه فيحتوي بذاته، وينير وينظم الاشكال المعقدة والظواهر المتناقضة للتقدم والحضارة الاوروبيتين، ويفضح إشعاعه، في الوقت عينه، فاقة التمدن العربي. وهكذا مثلت باريس، على صفحات المقتبس، الحضارة الغربية في جوهرها وفي ارقى مراتبها: حرية الانسان وفكره وكلامه؛ إخضاع الطبيعة للعلم والانتفاع من قواها المحررة لفائدة البشر؛ والتنظيم العقلاني للمجتمع خدمة لشأن افراده المادي ورفاههم المادي وايفائهم ما للعقل من حق[٣١].

والذي يستوجب استنتاج كرد علي الصريح، بأن تجديد التمدن العربي يعتمد على اقتباس مقصود وشامل من الغرب، إنما هو إحساس مسيطر بالتعجل وواقعية جريئة - وإن كانت ليست موضوعية - لكن التزكية النهائية لرسالته تتأتى بالنسبة له مما هو الطبيعة العامة لكل نشوء تمدني وانتقال تمدني. كانت حجته أنه ما من حضارة طورت ابداً صفاتها الاساسية او عبرت عن عبقريتها المخصوصة بصورة منفصلة او بعزلة رهبانية. فالحضارات لم تقم ولم توجد لتعارض إحداها الاخرى، وإنما شاركت، وقد أقيمت لبناتها بالتعاقب الواحدة فوق الاخرى، فاقتسمت من بعضها البعض بفعلٍ تبادلي من الإثراء المتقابل بحيث ان كل حضارة منها شكلت كياناً فريداً

(٢٩) انظر خاتمة: المقتبس، السنة ٣، العدد ٧ (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م).

(٣٠) « في ديار الغرب، » المقتبس، السنة ٨، العدد ٧ (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م)، ص ٤٩٤ - ٥٠٩.

(٣١) ومع ان كرد علي زار بلاداً اوروبية اخرى فإن « غرائب الغرب، » يتناول فرنسا بالدرجة الاولى وعاصمتها باريس، انظر: المقتبس، السنة ٤، الاعداد ٩ - ١٢ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م)، والسنة ٥، العددان ١ و٢ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م).

ومميزاً في كل متواصل ، متداخل الفعل ، او مرقّش الالوان . وهكذا ففي سلسلة غير منقطعة من الحضارات استعار الفرس في الشرق العلم الهندي وصقلوه ، بينما استحصل الرومان في الغرب على الكثير من تمدنهم من الإغريق الذين اقتبسوا ، في الوقت نفسه ، من المصريين القدماء ما اقتبسوا فورّثوه العرب . والحضارة العربية ، وهي بدورها تبني على التمدن اليوناني والفارسي وتصقله وتحوله ، غدت مصدراً خصباً اخذ منه الغرب بحرية . فالعرب ، باستعارتهم حالياً من الغرب المتصاعد ، لا يكررون نمطاً تاريخياً فحسب ، بل هم في اعتقاد كرد علي يستعيدون كذلك اكتشاف الجوهر والسر في ميراث مدنيتهم العظمى : إن الحضارة الاسلامية ، والعربية بحكم الامتداد ، قد نشأت وبلغت أوجها لأنها اولاً وقبل كل شيء قامت بعملية الفعل المتداخل مع المدنيات الاخرى واستوعبتها وحولتها[32] .

لقد اقتبس المصلحون المسلمون ، اسلاف كرد علي ، من الغرب بصورة انتقائية وذلك لغرض إقامة حواجز ، في النهاية ، ضد الغرب ذاته . وعلى العكس من ذلك كان كرد علي يزيح الجدران لإدخال المدنية الغربية التي هي ، كما بيّن ، متغلغلة اصلاً والتي ستسود في النهاية على كل حال . ولكنه باعترافه بتصاعد الغرب وإنجازاته السامية لم يكن يرغب لا بالتبرؤ من ميراث مدنيته ولا يجعلها من قبيل الآثار القديمة . لقد رأى وهو يفكر ـ دون ان يدري ـ وفق اتجاه جدلي ـ أن المواجهة بين الحضارتين الشرقية والغربية لا يترتب عليها بالنسبة للاولى ـ او للثانية ـ نفي حتمي . فالتعارض هو ، على النقيض من ذلك ، في صالح خلق نظام حضاري اسمى مركب هو شرقي وغربي في الوقت عينه ، او بكلماته حرفياً خلق « حضارة عربية غربية »[33] . وقد لخّص كرد علي المساهمة المتعددة الجوانب للتمدن الغربي في هذا الكل المتكافل بكلمة واحدة هي « الحداثة » . وأقرّ صراحة ان ما يزوّده العرب [في هذا المجال]، وإن لم يجد بصورة واضحة او كاملة قط، سيكون نزراً يسيراً ، ويتخذ أساساً كترياق يمنع الاذى : [وذلك] لكي يضمن العرب أنهم في بنائهم لواجهة تمدنهم الجديدة سيلتزمون بجزء من ماضيهم فيتجنبون بذلك المادية الصلفة وينجون من الاغتراب الثقافي والوجود الذي لا يقوم على جذور .

(٣٢) انظر في هذا الصدد المقال المهم : « النقل والنقلة ،» المقتبس ، السنة ١ ، العدد ١٢ (١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) ، ص ٦١٦ - ٦٢٤ ، واضافة لذلك : « اللغات الافرنجية ،» المقتبس ، السنة ٢ ، العدد ١٢ (١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م) ، ص ٦٣٩ ـ ٦٤٤ .

(٣٣) هذه الفكرة تتكرر عنده ، لكن التشكل الدرامي في : « الامة تحبو،» المقتبس ، السنة ٦ ، العدد ١ (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) ، ص ٤٩ ـ ٥٤ .

واعتقد كرد علي أن التمدن المركّب الجديد هو اصلاً في طور عملية التكوين وإن لم يكن بعد كائناً بصورة كلية . كانت الولادة العسيرة تجري في الوقت عينه في مكانين مختلفين من البسيطة : في اليابان النائية ، وفي مصر وعاصمتها القاهرة وهي المكان الاكثر اهمية من ذاك . واليابان التي استحقت إلماحات متكررة لكنها مختصرة في مقالاته كانت مع ذلك ذات مغزى فائق كشعار . ذلك انها مثلت إمكانية نجاح مزاوجة انتقائية بين الشرق والغرب ، يتم فيها دمج التالد والطريف ، والكلاسيكي والتقليدي في كلٍّ تمدني عضوي[34] . وكانت هناك ثمة تجربة فريدة مشابهة تجري في مصر ، على ضفاف النيل ، حيث رأت « المقتبس » النور لاول مرة . لقد احتكت مصر بالحضارة الغربية الاجنبية قبل جميع الاقطار العربية الاخرى في المنطقة وبخطى اسرع . لكن مصر اقتبست من الغرب باتزان وعن طريق واسطتها الخاصة وهي اللغة العربية . إنها ، وشأنها في ذلك شأن اليابان ، قد أرخت عنانها للتأثير الغربي لكنها لم تستسلم كل الاستسلام : إنها أخذت ما تدعو اليه الحاجة وامسكت على نفسها ما لديها من جوهريات . وهكذا احتفظت مصر ، مع انها بلد عصري ، فهو الى هذا الحد بلد غربي ، احتفظت بدينها وقوميتها ، كما تمكن المصريون من الابقاء على لغتهم واخلاقياتهم وتقاليدهم الاصلية[35] . كانت القاهرة ، بالنسبة لكرد علي ، وهي تقع في منتصف الطريق ، بالمعنى الجغرافي والثقافي ، بين اسطنبول التابعة وباريس الطالعة ، لا هي بالهجين الثقافي الشاذ ولا هي بالمدينة الخليعة . على العكس من ذلك كانت القاهرة رمزاً للاندماج الظافر بين مدنيات مختلفة وتغيّرها الحياتي نحو مدنية اسمى التي هي في الحين الذي تتيح فيه المجال للخصوصيات فإنها في الحقيقة مدنية مكرسة للتقدم والرقيّ ولبلوغ المراتب الانسانية لجميع البشر أينما كانوا .

إن وراء رؤية كرد علي في تصور مدنية عالمية ، وهي رؤية جديرة بالثناء وإن كانت ساذجة بعض الشيء ، ثمة شيئاً واضحاً ، على الاقل بصورة سطحية ، من الافتتان بالتمدن الغربي والالتزام الكلي به ، الامر الذي يعتبره العرب اليوم ، وقد ذاقوا شطط الغرب السياسي ، شيئاً لا يمكن الدفاع عنه ومحرجاً بصورة سافرة[36] .

(٣٤) ادرك كرد علي تمام الادراك تنامي قوة اليابان وعلق عليه ولكنه عزا عبقريتها الى قدرتها على التحديث (وهو ما يجعلها بالتالي قوية) والاحتفاظ بميزاتها الاساس في آن . انظر على التوالي : « اليابان الحديثة ،» المقتبس ، السنة ٦ ، العدد ٣ (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) ، ص ٢٢٦ و« التعليم الادبي في اليابان ،» المقتبس ، السنة ٦ ، العدد ٩ (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) ، ص ٥٩٥ ـ ٥٩٨ .

(٣٥) من بين مجموعة من المقالات ذات العلاقة بمصر مباشرة او غير مباشرة ، انظر : « الامة تحبو ،» ؛ « ملكة العربية ،» المقتبس ، السنة ١ ، العدد ٩ (١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣٨ ، و« حالتنا العلمية والاجتماعية ،» المقتبس ، السنة ٢ ، العدد ١٢ (١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م) ، ص ٦١٧ ـ ٦٢٣ .

(٣٦) انظر دراستي : الالوسي ، محمد كرد علي ، ص ٦٥ ـ ١٢٤ والجابري ، محاضرات عن محمد كرد علي ، ص ٨٠ ـ ٨٩ اللتين تنظران بتحفظ وعدم ارتياح لتعلق كرد علي بالحضارة الغربية .

ولكن ، وبصرف النظر عن طبيعة هذا الحكم القائمة على مفارقة تاريخية ، [تجاوزها الزمن] فإن الحكم ليس له ما يبرره من بعض النواحي . ذلك ان كرد علي ، مع انه على الرغم من عزيمته لم يوفق كلياً في مقاومة مفاتن الغواية (داء الاستحسان) للتمدن الغربي ، فهو مع هذا قد حرص ان لا يضفي على الدول الغربية نبلاً في المقصد او إيثاراً للغير في العمل .

إن التمدن الغربي طالما ضحّى بالانسان إبّان خدمته . كذلك تفعل الدول الغربية : إنها بما تتمتع به من حداثة ، ذلك التجسيد الصلد للعقل ، غالباً ما سارت بنفسها سيرة مغايرة للعقل . وكان مظهر هذا الجنون على الصعيد العملي هو الاستعمار : « جنون الاستعمار »[٣٧] . إن كرد علي لمّا لم يستطع ، او لم يرد ، ان يربط التوسع الاقتصادي بالسيطرة السياسية الغربية ، فإنه بطبيعة الحال لم يعارض الاستثمارات المالية الغربية في الخارج كما انه لم يعترض على تحويل بلدان بأسرها من الكرة الارضية الى اسواق لاستهلاك السلع الغربية . كان مثل هذا التطور بالنسبة له محتماً ولا يمكن رده حالياً ، عند الاخذ بنظر الاعتبار لصعود الغرب المالي والصناعي . لكنّ الذي حيّر كرد علي واحزنه ، الى جانب رفض الغرب للامتيازات الاقتصادية وحدها ، إنما هو الاصرار العنيد لدول الغرب على بسط نفوذها وممارسة السيطرة السياسية في مناطق لم تكن غربية لكنها ، ومن مغبّة الاستعمار ، لم تعد ما كانت عليه فيما مضى . وكنتيجة للهيمنة الاستعمارية « فآسيا لم تعد للآسيويين كما لم تعد افريقيا للافريقيين »[٣٨] .

كان الاستعمار بالنسبة لكرد علي ، في الحالة الخاصة بالذات بالامبراطورية العثمانية ، شيئاً رجوعياً بالاساس : [اي انه] الامتداد والاستمرار في الزمان ، ولكن بلبوس مختلف ، لنزاع ديني تاريخي بين الاسلام والنصرانية . إن الصراع الذي كان قد بدأ في اسبانيا بانتصارات اسلامية مدوّية ، قد انذر ببلوغ تقسيم الامبراطورية العثمانية في النهاية ؛ وهي الدولة الاسلامية الاخيرة المستقلة والقادرة على الحياة ، وحصنها الحصين[٣٩] .

لقد فهم كرد علي جيداً ان الاستعمار ، كظاهرة غربية تشمل العالم بأسره ، له

---

(٣٧) كان هذا هو العنوان الوصفي لمقال بأكمله ، انظر : « جنون الاستعمار ،» المقتبس ، السنة ٧ ، العدد ١ (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) ، ص ٦٠ - ٦٥ .

(٣٨) انظر : « نحن واوروبا ،» المقتبس ، السنة ٧ ، العدد ١٠ (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) ، ص ٧٢٩ .

(٣٩) حول تحليله المطول للمخططات الاوروبية ضد الامبراطورية العثمانية ، انظر : المصدر نفسه ، ص ٧٢٨ - ٧٤٧ .

قصده الباطني غير المباشر . فالدول الاوروبية ، وهي تنساق الى الخارج بعناد وذلك من جراء تراكم الثروة والقوة بالدرجة الاولى ، إنما تتورط تواً في تسابق مأفون لاقتسام العالم لغرض إعلاء سمعتها وتحديد متطلباتها الاستراتيجية وزيادة الثروة والقوة اللتين هما اصلاً في حوزتها . ولكن ومع ان للاستعمار قصده الباطني فإنه على هذا الاساس غير معقول وغير مقبول . فبالنسبة لكرد علي كان من علامات « جنون » الغرب بالدرجة الاولى ان يكتسب شيئاً لقاء ثمنٍ وهو في الواقع شيء متاح مجاناً . بعبارة اخرى ، إن السيطرة السياسية ليست شرطاً للتوسع الاقتصادي والربح . لذا فإن الاقدام على الاولى طلباً للثاني ليس هو فقط غير ضروري وغير حكيم ، بل إنه لمن الاسراف الاحمق تبديد ما هو أساسي للاعمار في الوطن على فتوحات خارجية . وتلك كانت بالضبط هي الحماقة الكبرى التي ارتكبتها ايطاليا حينما باشرت بغزو طرابلس الغرب فحرمت إبّان ذلك مواطنيها المحتاجين من ثروة اضاعتها ، وبالمعنى الحرفي للكلمة ، في الصحراء . وبذا اخفى انتصارها النهائي علامة فشل : فإيطاليا لم تخسر خلقياً فحسب لأنها انتهكت سيادة الامبراطورية العثمانية بل إنها فضلاً عن ذلك أفقرت نفسها باستسلامها « لجنون » الاستعمار[٤٠] .

وكان الاستعمار شاذاً كذلك من ناحية اخرى . ذلك لأنه ، برأي كرد علي ، كان على الصعيد القومي عملاً من اعمال العبث؛ كما ثبت من التجربة الفرنسية في الجزائر . فأكثر الجهود الفرنسية تعنتاً لكبت الهوية القومية الجزائرية بعد احتلال البلاد قد باء بالفشل ، او في احسن الاحوال لم يُصب إلا نجاحاً هزيلاً . وحرمت فرنسا الجزائريين من حرية التعليم ، او ان اكثر ما فعلته هو تزويدهم بتعليم على النمط الفرنسي وباللغة الفرنسية . ومع هذا ، وعلى الرغم من البلبلة الثقافية التي نجمت ، فقد ظل الجزائريون ملتزمين بدينهم وعلى صلة - ولو من بعيد - بإرثهم الثقافي العربي . لكن الجزائر بالنسبة لكرد علي لم تكن فريدة في هذا الباب : إنها تمثل معاً المحاولة الغربية المسرفة والعديمة الجدوى لفرض السيطرة السياسية والانتفاع منها ، وكذلك الانتفاضة الحتمية ضد الاستعمار دفاعاً عن المعتقدات الدينية واللغة والتقاليد القومية[٤١] .

إن تحليل كرد علي للاستعمار لا يرقى بوضوح الى مرتبة الفهم النظري التام لتلك الظاهرة ، ولا تترتب عليه ادانة شاملة للسلوك السياسي الغربي . لكنه اولاً

---

(٤٠) عن ارائه حول الاستعمار عموماً وتورط ايطاليا في طرابلس الغرب ، انظر المقال المهم : « جنون الاستعمار ،» .

(٤١) عن ملاحظاته العميقة، وان تك متناثرة ، حول التطورات في الجزائر ، انظر : « الامة تحبو ،» و« حالتنا العلمية والاجتماعية ،» .

يبرىء ساحته من تهمة الانخداع الساذج ؛ ثم انه، وهو الاهم ، يكشف عن ادراكه التام بأن وراء الاستعراض الرائق لمدنية تقدمية ومعقدة ثمة تعطشاً للسلطة والتسلط السياسي ، مما يلوث ، بل يمكن أن ينسف ، كل ما تكشف عنه المدنية الغربية من مثل عليا وقيم ومستويات ، وبصورة علنية ، لكنها ليست دائماً مخلصة .

- ٤ -

إن التهمة المعتادة التي طالما وجهت لمثقف عصر النهضة النموذجي هي : انه ينتمي الى طبقات الامتيازات وأنه يقطن [برجاً عاجياً] من عالم الافكار ، وهذان الامران معاً يفصلانه عن مجتمعه ويحرفان إحساسه وإدراكه للاوضاع المادية الحقيقية لهذا المجتمع ولحاجته المباشرة الحقيقية . والتهمة لا تنطبق على كرد علي ، وإن انطبقت فجزئياً .

ففيما يتعلق بالطبقات لم يكن كرد علي يحتل مكاناً في المستويات العليا من السلم الاجتماعي - الاقتصادي ، كما لم يكن في الحقيقة قريباً بأي وجه من القمة وذلك عند اندلاع الحرب . والواقع انه في البداية لم ينتسب الى نبل المحتد او بحبوحة الثروة او شرف العلم . وكما يشير اسمه كان كرد علي سليل اسرة ليست عربية الاصل . وهو يذكر في مذكراته ، للهزل اكثر مما هو للجد ، أنه كابن لأب كردي وام شركسية فهو عنصرياً من رس آري . على انه مهما كانت طبيعة نسبه فهو قد ولد سنة ١٨٧٦ لاسرة اقامت في دمشق لأمد طويل لكنها لم تبلغ اي شكل من اشكال المكانة البارزة . لقد بدأ ابوه مهنته بداية متواضعة كخياط اعتيادي لكنه مع الوقت انتقل للتجارة وافلح في النهاية ، على الرغم من تقلب الاحوال، بشراء مزرعة صغيرة في الغوطة ، الواحة الخصبة جنوب دمشق . وورث كرد علي حصة من المزرعة عند وفاة والده فاستخدم واردها الضئيل لرفد دخله كصحفي وللمساعدة في تغطية جزء من كلفة نشره لصحيفته . ومع ان والده كان امياً فقد اعان ابنه مع ذلك على تحصيل تعليم ابتدائي وثانوي الامر الذي اتُخذ درباً لوصوله في المستقبل الى مكانته الثقافية البارزة . وبنهاية حياة كرد علي المهنية كان الرجل قد تقدم كثيراً متجاوزاً مكانه الاجتماعي - الاقتصادي الاصلي ، وحقق كمفكر صيتاً لم يكن متوقعاً من تعليمه في ايامه الاولى . مع ذلك لا بد من الاشارة الى ان كرد علي، ما بين ظهور « المقتبس » الاول وزوالها النهائي ، لم يفقد الصلة بجذوره وكان يحتل مكانة بين الطبقات الوسطى ، على نحو متقلقل بعض الشيء ، فتمكن بهذه الصفة - وإن ليس دائماً بلا تحيز او بلا سوء تصور - ان يفهم جيداً حال الفئات الادنى او الطبقات الاعلى[٤٢] . بيد ان الاوضاع والاعتبارات

(٤٢) حول فترة شباب كرد علي ، انظر : كرد علي ، **المذكرات** ، ج١ ، **وخطط الشام** ، ج٦ .

المادية ، وكذلك العلاقات الاجتماعية التي تنبع منها ، لم تكن تتخذ الاسبقية في تفكير كرد علي .

إن التصادم الاولي الهادف ، وإن لم يكن الوحيد ، بينه وبين بلاده سورية كان - وربما ليس خلافاً للطبيعة - على الصعيد الثقافي . واي بلاد كان يتأمل فيها فهو إنما يلحظ بادىء ذي بدء المدارس ومعاهد التعليم العالي ومستويات التعليم . اما في سورية التي كانت بنظره تتخبط في حالة تشبه الامية التامة ، فإنه وجد قلة من المدارس التي تقدم المعرفة النافعة ، وعدداً اقل من المؤسسات المتقدمة التي هي مكرسة بإخلاص لخدمة المنطقة التي تعمل فيها . ومع ان كرد علي كان نزّاعاً ، لغرض احداث الصدمة ، الى المبالغة في تصوير درك الجهل الذي سقط فيه المجتمع السوري عامة ، فقد أقرّ مع ذلك بأن إصلاح التعليم في بعض الاقسام من بلاده كان في تقدم فعلاً . وقد تزامن بدء الاصلاح في سوريا من الناحية التاريخية ، كما في حال مصر الاسبق ، مع التغلغل الغربي في المنطقة ، كما ان ذلك الاصلاح كان مسبباً بهذا التغلغل . كان الغرب في مصر قد عبّر عن نفسه في الابتداء عسكرياً ، وذلك على هيئة جيش فرنسي غازٍ . وعلى عكس ذلك في سوريا ، فالغرب منذ ١٨٦٠ فصاعداً جعل وجوده ملموساً عن طريق المدارس التي أسسها .

وربما لم تكن مواقع امكنة المدارس الاجنبية في الابتداء نتيجة خطة مسبقة الوضع . اما في بداية القرن العشرين فيعتقد كرد علي ان نمطاً جغرافياً قد اخذ بالظهور اصلاً . كان في اقصى الجنوب من سوريا ، بالمقارنة مع شمالها، رجحان اكبر في المدارس الاجنبية الابتدائية والثانوية . اما المدن الغربية المطلة على البحر الابيض المتوسط ، فتحوي ، على نقيض المناطق النائية ، اعلى نسبة من التركيز في معاهد العلم الاجنبية ، فكونت لهذا السبب العمود الفقري للنظام بأسره . ولئن أشهدت القدس بمدارسها على الانتشار الواسع للتعليم الغربي في القسم الجنوبي من سورية الجغرافية فإن بيروت ، في الغرب ، مثلت قاعدة الجهد التعليمي الغربي ، ومركز اشعاعه والبرهان المنظور على نجاحه[٤٣] .

كتب كرد علي في « المقتبس » بعد نصف قرن من تدشين نظام المدارس الاجنبية وتطورها التام، فعبّر عن الرأي الذي مفاده انه نظام دمغه - ولوّثه - حد فاصل تاريخي وذلك حين تحولت منفعته الى ضرر . إن هذا التحول ، على الصعيد الاكاديمي

(٤٣) حول التوزيع الجغرافي للمدارس الاجنبية في سورية وتصدّر بيروت مركزاً للعلم ، انظر : « الامة تحبو ، » و« النهضة الفكرية في سورية ، » **المقتبس** ، السنة ٧ ، العدد ١ (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) ، ص ٣٠ - ٣٥ .

الصرف ، قد تم واختتم حين ألغت عامدة الكلية الامريكية (كما يسمي كرد علي الكلية البروتستانية السورية) اللغة العربية كأداة للتدريس وأحلت محلها الانكليزية باعتبارها اللغة الوحيدة للتعليم العالي . وهذا القرار الامريكي ، يضاف اليه الرفض الابتدائي والاساسي للكلية اليسوعية (جامعة القديس يوسف) لاستخدام غير الفرنسية [في التدريس]، مثل لكرد علي خيانة من ارسالية كانت بالاساس نبيلة ونافعة ، كما مثلت له تنصلها النهائي [من مسؤولياتها](٤٤) . ذلك ان المدارس الاجنبية في بواكيرها الاولى قد حققت من الخدمة ما هو خيريّ وبنّاء ومستنير . لقد قدمت ، بدون تفرقة وبكلفة زهيدة ، تعليماً للطلاب المحليين الذين كانوا بدونه سيظلون اميين ، كما أنها بتدريسها بالعربية قد أظهرت كفاية تلك اللغة الاساسية ولياقتها لنقل المعرفة الحديثة . إن المدارس الاجنبية ، ودون التهجم على المدنية العربية ، بل بتحريك الحياة والحيوية فيها ، كانت في الابتداء قد انهمكت بالايقاظ الفردي لعقول السوريين ، وليس هذا فحسب بل إنها كانت كذلك ترسم الدرب للمجتمع السوري بأسره والمؤدي الى حياة متجددة وعصرية(٤٥) .

وعلى مدى السنين تضاعف عدد المدارس الاجنبية وتعاظم أثرها لكن صفاء النية والاخلاص للخدمة قد انحطا بنظر كرد علي الى درجة مخيفة . ومع ان احد المساهمين في النشر بصحيفة كرد علي شبّه بمقال له المدارس الاجنبية بقواعد الاستعمار الاوروبي الامامية(٤٦) ، لكن كرد علي شخصياً قصر انتقاده على عدم قدرة مثل تلك المدارس على البقاء وفيّة لمقصدها المعلن . فالمدارس الاجنبية ، لحد ذلك التاريخ ، بدلاً من نشرها التعليم ، على نحو عام ومتساو ، فإنها قد تراجعت الى اهتمام محدود [الأفق] بتدريس مذاهبها الدينية . فضلاً عن ذلك ، فإن معاهد العلم الاجنبية ، بدلاً من غرز معرفة تكون ناجعة اجتماعياً ، فإنها فقّهت تلامذتها في مواضيع هدفت الى تسهيل الاكتساب السريع للثروة الفردية ، ومن هنا التأكيد الصارخ على تدريس اللغات الاوروبية ومبادىء التجارة . وبالتالي فالذين ينشأون في مدارس اجنبية لا يكونون مواطنين صالحين بل أناساً مزودين بروحية الاعمال بدرجة حادة(٤٧) . لكن الفشل

(٤٤) حول محدودية التعليم الاجنبي ممثلاً بما وصفه بالكلية الاميركية واليسوعية على التوالي ، انظر : « بعض معاهد بيروت ، » المقتبس ، السنة ٨ ، العدد ١ (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) ، ص ٥٤ - ٥٦ .

(٤٥) حول الدور المبكر البناء للمدارس الاجنبية ومساهمتها في احياء اللغة العربية ومصادر الادب العربي القديم ، انظر : « نهضة العربية الاخيرة ، » المقتبس ، السنة ٤ ، العدد ٨ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) ، ص ٥٠٧ - ٥٠٩ .

(٤٦) انظر : « اوروبا في سورية ، » المقتبس ، السنة ٧ ، العدد ٣ (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) ، ص ١٥٩ - ١٦٨ .

(٤٧) انظر على سبيل المثال ملاحظاته في : « النهضة الفكرية في سورية ، » .

الرئيسي بنظر كرد علي قد اتضح على المستوى الثقافي الاوسع ، والذي هو جوهري بدرجة اكبر . فالمدارس الاجنبية التي كانت حيناً من الزمن وسائط للتوثيق الثقافي قد امست، بنبذها استعمال العربية ، وسائل للاغتراب الثقافي . وبهذه الطريقة قللت تلك المدارس من قيمة الارث الثقافي العربي وفي الوقت عينه شبّعت تلامذتها بثقافة غربية نأت بهم عن ماضيهم وعن حاجات مجتمعهم الحاضرة . إن التعليم والاستعمار هما ، بنظر كرد علي ، متضادان ، من ناحية المبدأ على الاقل ، لكنهما في أسوأ اشكالهما يشتركان في خاصية السلب المشتركة . فالاستعمار يسلب الثروة ، والتعليم الاجنبي في سورية ينهب لباب الطلاب : إنهم وقد تجردوا من العاطفة الوطنية ، وغدوا ساخرين من ميراث مدنيتهم وغير مكترثين بحاجات مجتمعهم ، فقد تهيّأوا لنكران وطنهم لمصلحة الغرب الذي ارتبطوا به سلفاً من الناحيتين العاطفية والروحية(٤٨) . ويمكن ، برأي كرد علي ، تفسير الحركة الواسعة من الهجرة السورية الى الغرب بموجب هذه الاسس ، من بعض النواحي على الاقل .

ولا يستبعد ان يكون كرد علي قد تعمّد ان يضفي التسامي على الاصول والمنجزات القيّمة للمدارس الاجنبية لكي يبرز مثالبها في العقد الاول من القرن العشرين . ولعله في هذا لم يبلغ الانصاف . ولكن لا جدال في شيء واحد ، بالطبع : كان كرد علي مقتنعاً أن التعليم الاجنبي لا يفي بما تحتاجه سورية ، على كونه ضرورياً ؛ وأنه ينبغي ان يكمَّل ابتداء - ويستبدل انتهاءً - بنظام قومي للتدريس الذي من شأنه أن يوطد التلميذ في لغته وثقافته وهويته ، والذي يوفر له في الوقت عينه ارقى اشكال التعليم وأحدثها . فهنا يكمن الحل لتحقيق نظام اجتماعي تجددت فتوته لكنه متماثل الاجزاء(٤٩) .

إن اصرار كرد علي على الحاجة الى نمط من التعليم ذي صلة بالمجتمع كان سيصير اقل إقناعاً لو ان المجتمع في نظره لم يكن الا عبارة عن صنف مجرد ، لا حياة فيه . ففي حقيقة الامر تكشف مقالاته في « المقتبس » ، دون ادنى شك ، عن ان إحساسه الاجتماعي لا هو بالمستورد ولا هو بالمستعار لكنه ينبع من معرفة وثيقة بالاحوال الاكيدة لبلاده ومن فهم عميق - ولو انه ليس بالضرورة شاملاً او صحيحاً

(٤٨) حول الاستلاب الثقافي الناشىء عن التعليم الاجنبي ، انظر مقاليه المهمين : « التعليم الوطني ، » المقتبس ، السنة ٥ ، العدد ٤ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م) ، ص ٢٣٧ - ٢٤١ ، و« نهضة سورية ، » المقتبس ، السنة ٥ ، العدد ٨ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م) ، ص ٥١١ - ٥١٥ .

(٤٩) حول ارائه بشأن الحاجة الماسة لمنهج وطني للتعليم ، انظر : المصدرين نفسيهما ، و« بعض معاهد بيروت ، » .

بصورة متسقة ـ للعوامل الاجتماعية ـ الاقتصادية التي تخضع لها تلك الاحوال والتي بدورها تحدد شكلها .

إن توالد الثروة الضروري لدوام المجتمع الحديث واستقراره ، بصفته مجتمعاً ، إنما هو نتيجة لثلاثة اشكال مختلفة من النشاط الاقتصادي ، مجتمعة او منفردة : الصناعة والتجارة والزراعة[٥٠] . ومع ان كرد علي اتفق على ان الصنّاع والفلاحين يكوّنون بالتساوي « مادة حياة الوطن » ولذا فهم يستحقون « الاعتبار والإكرام » ، بيد ان الصناعة ، باعتبارها موضوعاً للبحث وكذلك باعتبارها حاجة اقتصادية ملحة ، لم تأخذ مكان الصدارة في مقال المقتبس . مع هذا كان كرد علي يفهم جيداً ان الصناعات الوطنية ، ويعني بها في الواقع الصناعات اليدوية المحلية ، هي في الدرك الاسفل من الانحطاط . وعلة الصناعة بنظر كرد علي هي جزء لا يتجزأ من ركود اوسع في التمدن وانعكاس له . فإلى جانب عدم اكتراث الصناع المحليين بعملهم تعاني الصناعة المحلية في الوقت نفسه من الاسراف من استخدام المصادر القائمة فضلاً عن الندرة المزمنة في استثمار رأس المال والمواد الاولية الضرورية[٥١] . على ان المثلبة الاساسية ـ والتي تمثل تهديداً مباشراً بدرجة قصوى ـ هي عدم قدرة الصناعة المحلية على المنافسة ، بل زيادتها الفائضة عن الحاجة . فالصناعات اليدوية الوطنية ، وبدون حماية جمركية ، لا يمكنها منافسة السلع الغربية التي تغرق الاسواق السورية . بل ان المنتجات الغربية الجاهزة والزهيدة الثمن والاكثر متانة اصبحت موجودة في كل مكان بدرجة تهدد معها النشاط الصناعي السوري بالخراب والفناء النهائيين[٥٢] .

وعلى العكس من الحالة الهزيلة للصناعات المحلية فإن التجارة ، في بعض انحاء سورية ، مزدهرة نوعاً ما . لكنّ كرد علي ، في الوقت الذي يربط بصورة صحيحة الاضطراب الجاري في الاولى بإدخال سورية الى نظام اقتصادي عالمي اوسع ، فإنه يغفل ان يربط بصراحة التنشيط الجاري في التجارة بنفس العملية العامة . إنه في مقالاته إما يسجّل واقع هذا التنشيط ونتائجه الاجتماعية ، وإما يفسره على انه ناشىء عن تطور واحد منفرد، ألا وهو السكة الحديد . إن الفعل الانشائي بذاته ، كما في مد الخط الواصل بين دمشق والمدينة المنورة ، قد أثمر باستمرار مكسباً اقتصادياً مباشراً . وهكذا ، وبالتغيير الذي أجراه خط سكة حديد الحجاز في دمشق ، مثلاً ، فإن ثروتها

---

(٥٠) ترد هذه الصيغة في : « الحركة العلمية في البلاد العربية العثمانية ،» **المقتبس** ، السنة ٨ ، العدد ٣ (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) ، ص ٢٠٦ .

(٥١) ترد هذه المفاهيم الاقتصادية في « بعض معاهد بيروت ،» ص ٥٧ .

(٥٢) حول المصير الذي ينتظر الصناعات المحلية ، انظر : « الاتكال الشرقي ،» **المقتبس** ، السنة ٥ ، العدد ٣ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م) ، ص ٢٠٢ .

قد تضاعفت بعدد محدود من السنين . إن البناء الفعلي للخط ، الذي انطوى على إنفاق مبالغ كبيرة من النقد ، قد خلق اعمالاً للعاطلين في ذلك الحين من عمال الطابوق والحدادين والنجارين والناقلين . لكن الأثر الباقي ، على الصعيد التجاري ، كان في تحويل دمشق المنعزلة فيما مضى الى مركز سياحي وفي ظهورها كمركز أساسي لاستقبال الحاصلات الزراعية من انحاء سورية الاخرى ونقلها الى الموانىء النائية لتصديرها بالنتيجة الى الخارج[٥٣] . كان هذا في نهاية المطاف هو المغزى الاقتصادي الحقيقي للسكة الحديد في سورية ، كما انه التفسير للازدهار الملحوظ في دمشق وبيروت وحيفا ويافا[٥٤] . وهذه المدن الثلاث الاخيرة هي موانىء رئيسية فربطتها السكك الحديد بمناطقها الزراعية الداخلية كما ربطتها صادراتها الزراعية بالانحاء الاخرى من السوق العالمية . لكن الموانىء قد قلبت كذلك مجرى العملية : إنها كانت نقاط الدخول للسلع الاستهلاكية الغربية التي كانت توزع بواسطة السكك الحديد فتباع في اي مكان يصله الخط وغالباً ما يصل بعيداً جداً .

وكما نفع التعليم الاجنبي ، في البداية الاقليات الدينية ، فكذلك كان المنتفعون الرئيسيون من رفع سوريا من حالة اقتصاد الكفاف الى اقتصاد قائم على التصدير إنما هم من اقليات الجماعات المسيحية المحلية . فبسبب تعليمهم العصري وطموحهم واقدامهم سيطروا على الجزء التجاري من الاقتصاد إبان تطوره . وهكذا اصبحوا ، في هذه الاثناء ، ممثلين تجاريين لمؤسسات اجنبية ، ووسطاء وموزعين بالجملة والمفرد واحياناً صيرفيين . فضلاً عن ذلك فإن المسيحيين المحليين ، وقد رأوا فرص ومتطلبات التوسع الحضري الجديد الذي نشأ عن توسع التجارة ، فقد انتقلوا جماعات الى قطاع الخدمات ، وصاروا كذلك اهم وابرز العاملين في المهن الحرة والعلمية . إن المسيحيين المحليين بمثابرتهم وانكبابهم على العمل قد قلبوا الفقر الى غنى والتدني الاجتماعي الى مكانة بارزة . لقد أُعجب كرد علي بانجازهم المادي ولم يماحكه . بيد ان امله كان بأن ينبذ اخوته بالدين الخدمة الحكومية الذليلة المتمسّحة بالاذيال وينضمّون عوضاً عن ذلك بالاشتراك مع زملائهم المواطنين الى شكل من اشكال النشاط الاقتصادي الذي هو اقل مذلة واكثر اقداماً لكنه اكثر مردوداً بكثير[٥٥] .

---

(٥٣) حول التحوّل الاقتصادي في دمشق خاصة ، انظر : « اغنياؤنا ،» **المقتبس** ، السنة ٥ ، العدد ٤ (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م) ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٧ .

(٥٤) حول الاثر على اقتصاد انشاء سكك الحديد وخط الحجاز منها خاصة ، انظر : « رحلة الى المدينة المنورة ،» **المقتبس** ، السنة ٧ ، العددين ٧ و١٠ (١٣٣٠هـ /١٩١٢م)، ص ٥٠٥ ـ ٥٢٥ و ٧٥٧ ـ ٧٦٤ على التوالي .

(٥٥) طالما علق كرد علي على فطنة المسيحيين التجارية ونجاحهم ، انظر : المصدر نفسه ؛ «اغنياؤنا ،» ، و« الاتكال الشرقي ،» .

وحتى عند جمع الصناعة المحلية والتجارة فإنهما لا يؤلفان كما قال كرد علي اكثر من مجرد عنصر ضئيل في كامل الاقتصاد السوري . وتعتمد سورية في وجودها على الزراعة بدرجة لا تقل عنهما[٥٦] . مع هذا فإن الانتاج الزراعي في العقد الاول من القرن كان بنظره على النقيض من مكنته الحقيقية بصورة صارخة وبائسة . إن حالة الزراعة السورية على العموم تشهد على الاهمال الفظيع لاجزاء كبيرة من الاراضي الخصبة ، وعلى التبديد المفرط في المياه والمصادر البشرية ، وعلى سوء التطبيق الاخرق لطرق الاصلاح الزراعي الصحيحة[٥٧] . ولكن ثمة في بعض انحاء سورية على الاقل ، نماذج من التطبيق الزراعي السليم والمتقدم والمزدهر ، فكأنها الواحات في الصحراء القاحلة ، او اذا استخدمنا تشبيه كرد علي الآخر ، كأنها المدارس تقوم وسط حال من الجهل المطبق ؛ تلك النماذج هي في مناطق وادي البقاع وحول الغوطة وفي صيدا وحوران .

لقد عزا كرد علي ، في صعيد واحد متوقع لكنه سطحي جداً ، تدهور الزراعة السورية الى الجهل الواسع الانتشار . وربط ، في صعيد آخر اقرب لواقع الحال ، ربط الانحطاط الزراعي الذي يكاد يكون متشابهاً بالتغيير العميق في الوضع الاجتماعي - الاقتصادي : انتقال ملكية الارض من اولئك العاملين عليها الى اولئك المضاربين فيها . والواقع ان بعض مقالات كرد علي تؤلف شهادة معاصرة على تجريد الفلاحين السوريين الذائب من اراضيهم . فهم ، وقد مُنحوا كعاملين على الارض (في ١٨٥٨) حق تسجيلها كملكية عائدة لهم ، كانوا في حقيقة الامر غداة الحرب صفر اليدين ، لا يملكون ارضاً . كانت هذه الحالة المفجعة بنظر كرد علي هي جزئياً من مسؤولية الفلاحين انفسهم الذين حاولوا عمداً التهرب من الضرائب الفادحة في المستقبل بتسجيل املاكهم باسم مواطنيهم الاقوى نفوذاً . لكن تلك الحالة نشأت كذلك من جراء الاخلاق الازدواجية لذوي النفوذ والغنى انفسهم : لقد استغلوا جهل الفلاحين وبساطتهم فقاموا ، من ناحية ، بغصب الكثير من الاراضي وذلك بتسجيلها بصورة غير شرعية كأملاك تعود لهم . ثم إنهم [من ناحية اخرى] استثمروا حاجة الفلاح وعوزه بتقديم تسهيلات ربوية مع علمهم المسبق بأن الارض المرهونة ستؤول بالنتيجة اليهم عن طريق الرهن[٥٨] . كانت نتيجة تركيز ملكية الارض لدى القلة

(٥٦) غالباً ما الح الى الاهمية الكبرى للزراعة في المجلة . هذه الفقرة وردت في : « بضعة ايام في الجليل ،» المقتبس ، السنة ٧ ، العدد ٥ (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) ، ص ٣٧٣ .

(٥٧) هذا التقويم للحالة العامة للزراعة السورية يستند الى : « بين الفيحاء والشهباء ،» المقتبس ، السنة ٦ ، الاعداد ١٠، ١١ و١٢ (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) ، ص ٦٢٦ - ٦٥١ ؛ ٦٨١ - ٧٢٧ ، و٧٤٣ - ٧٦٥ على التوالي .

(٥٨) حول الاساليب المستخدمة لتجريد الفلاحين من اراضيهم ، انظر : « اغنياؤ نا ،» ، و« في ارض الجليل ،» المقتبس ، السنة ٦ ، العدد ٢ (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) ، ص ١٧٧ - ١٨٢ .

شيئاً مفزعاً بنظر كرد علي : إن ذلك يولد نظاماً اجتماعياً ممزقاً ، منقسماً الى طبقتين متنافرتين ومتجمدتين ، احداهما تكد دون انقطاع لكنها تتوطد في فاقتها ، والاخرى تزدهر بلا تأنيب من ضمير على حاصلات ارض لم تعمل عليها بل كانت قد اغتصبتها[٥٩] . ولئن ظل الشقاق بين الطبقات دون التئام فقد أنذر كرد علي ان حل المشكلة كما تقترح « الاشتراكية المتطرفة » او « الفوضوية الضارة » قد لا يبقى بالنسبة لسورية امراً غير وارد او غير جذاب[٦٠] .

إن اثر تركيز ملكية الارض على الاقتصاد عموماً وعلى الزراعة خصوصاً كان أكثر ضرراً ، فيبلغ ما لا يقل عن خلق وضع في القطاع الزراعي دعاه كرد علي بأنه وضع شاذ . ذلك ان الطبيعة والعقل يقضيان بأن ملكية الارض يجب ان تعود الى زارعيها ، لا كما هو الحال في سورية الى ملاكين متنائين ومتغيبين عنها ، لا يولون إلا قليلاً من التحسين لارض يملكونها اسمياً ولا يرعون الا بدرجة هي حتماً اقل من ذلك ، الفلاحين الذين يخدمونها[٦١] . إن قلب الوضع الطبيعي يشكل بنظر كرد علي مأزق الزراعة السورية : فمن جهة ثمة طبقة من الفلاحين المضطهدين الذين يكدّون بلا انقطاع وبعدم اكتراث عاملين على ارض يغرَّبون عنها - من ناحية الملكية - يومياً ؛ ومن جهة اخرى طبقة خاصة بذاتها من الاعيان الذين يملكون ارضاً لا يرتبطون بها ولا يقدرون قيمتها إلا لأنهم يستطيعون المضاربة فيها . وعلى هذه الشاكلة امسى الملاك وسيطاً : إنه يحتفظ بالارض مؤقتاً ثم يتخلص منها عند اول زيادة في قيمتها يواتيه بها الحظ السعيد . وهنا بنظر كرد علي يكمن السبب الحقيقي لإهمال الزراعة في سورية وانحطاطها . اما في سورية الجنوبية خاصة ، اي فلسطين ، فالحالة تحمل بذور الكارثة . فعلى عكس الامر في باقي انحاء البلاد تكون الارض العربية المباعة في فلسطين ، والتي تحصل عليها بالنتيجة المنظمات الصهيونية ، خسارة لا تسترد . ذلك ان المنظمات الصهيونية ، خلافاً للعرب الجاهلين ، لم تكن منهمكة بصفقات اراض بسيطة . إنها كانت تشتري الارض فتضع بذلك الاسس لإقامة كيان سياسي منفصل في النهاية ، كيان كانت حلته الخارجية واضحة للعيان اصلاً بشكل مؤسسات عمالية ومؤسسات مالية ومنظمات شبه عسكرية ومدارس خصوصية تقدم العلم للطلاب اليهود باللسان العبري[٦٢] . لقد خفيت الطبيعة الاقتنائية للصهيونية

(٥٩) حول التباين بين الطبقات في سورية والحاجة الى اقامة علاقات ودية اوثق بينها ، انظر : « الخاصة والعامة ،» المقتبس ، السنة ٣ ، العدد ١ (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م) ، ص ١٥ - ٢٠ .

(٦٠) ترد اشارته الى الاشتراكية والفوضوية في : « بضعة ايام في الجليل ،» ص ٣٧٥ .

(٦١) حول الملاكين المتغيبين ، انظر : « في ارض الجليل ،» ص ١٢٠ .

(٦٢) ترد اشارات عديدة للعبريين في المقتبس . والمقالات الرئيسة التي تتناول الصهيونية وتغلغلها في فلسطين : هي « بضعة ايام في الجليل ،» ؛ « في ارض الجليل ،» ، و« النهضة الفكرية في سورية ، » .

على مثقفين عرب آخرين وعُمِّيت عليهم بوجود مستعمرات اقامتها الصهيونية وكانت تقدمية في ظاهرها . اما بالنسبة لكرد علي فقد كانت تلك المستعمرات ، على النقيض من الزراعة العربية ، مستعمرات عصرية وناجحة صورياً لسبب وحيد هو المعونة المالية الاجنبية ، الاستثنائية والهائلة الحجم . وعلى اي حال ، وبينما كانت المستعمرات اليهودية ربما قد حققت استخداماً أكفأ للارض باستعمالها طرقاً زراعية متقدمة ، فإنها لا تستطيع ان تخلق لنفسها على هذا الاساس كياناً سياسياً منفصلاً في منطقة هي عثمانية قانوناً وعربية من حيث الوجود .

كان التعليم بنظر كرد علي هو مفتاح الحل للمعضلة الزراعية التي تعانيها سورية ، كما كان التعليم بنظره مفتاح الكثير من الامور الاخرى . وهو بتوصيته بهذا العلاج إنما يكشف عن بساطة غير معتادة وعن فشل في معرفة كون التعليم إنما يعكس صورة انظمة اجتماعية بأسرها ولا يغيرها بسهولة من حال الى حال . ولكن مهما كانت محدودات كرد علي فإنه يكشف في « المقتبس » عن حساسية وادراك عميق للتغييرات في البنية الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تمر بها سورية في العقد الاول من القرن العشرين .

- ٥ -

لقد ذكر كرد علي في تقديمه صحيفته لجمهور القراء ، وذلك بصورة صريحة وقطعية ، ان « المقتبس » تنوي ان تحجم عن معالجة مواضيع تخص السياسة ، وتهدف بدلاً من ذلك الى تكريس نفسها للدعوة للاصلاح على مقياس اجتماعي اعم . ولكن ، وفي حين لم يلتزم كرد علي دائماً بهذا القيد الذي فرضه على نفسه التزاماً دقيقاً ومتواصلاً ، فمن الصحيح القول ان « المقتبس » لم تقدم عرضاً مفصلاً ولا مهماً في مغزاه عن الاوضاع والاتجاهات والتطورات السياسية في سورية الجغرافية . مع ذلك فإن السياسة والاعتبارات السياسية كانت في الغالب ، ضمناً على الاقل ، صلب الكثير من المقالات التي نشرتها صحيفته ، وطالما انعكست فيها .

والاستنتاج الطبيعي ، والسهل نوعاً ما ، من تشويه كرد علي المتعمد والمتكرر لسمعة المدنية التركية هو انه استنتاج يمثل ، بالتحايل ، تنديداً سياسياً محسوباً واستنكاراً ضمنياً للامبراطورية العثمانية . والحال في حقيقة الامر هو عكس ذلك . فمع انه ، ولو بعد حدوث الاحداث وذلك اتباعاً للحكمة ، قد لعن مظالم الحكم الفردي الحميدي[٦٣] ، ومع انه غالباً ما انتقد النقائص البيروقراطية واعمال الشطط النزقة « للحكومات

(٦٣) حول آرائه بشأن عهد عبد الحميد ، انظر : « حكومة الشورى في المملكة العثمانية ، » و« السلطان عبد الحميد المخلوع ، » **المقتبس** ، السنة ٤ ، العدد ٣ (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) ، ص ١٤٠ - ١٥٠ .

الدستورية » اللاحقة ، فإنه ألحّ دائماً ، سواء بصورة مباشرة او تلميحاً ، على الضرورة الماسة لبقاء الامبراطورية العثمانية باعتبارها نظاماً سياسياً مستقراً وقابلاً للحياة[٦٤] .

وكما رأينا سلفاً اظهر كرد علي في المقتبس احساساً مرهفاً بقدرات الامبراطورية المحدودة وبمكنتها المحدودة كذلك وعلى حد سواء ، ومع ذلك فقد كانت الضرورة الماسة تقضي بأن تواصل الامبراطورية اشتمالها على سورية الجغرافية ضمن حدودها المتناقصة بشكل دائب . كانت سورية الجغرافية مهمة بذاتها لأنها تحدّ قلب الاناضول ، ومهمة كذلك - بالمعنى الاستراتيجي والسياسي - لأنها الحارس الرئيسي للاسلام وللمدن الاسلامية المقدسة الثلاث ، بيت المقدس ومكة والمدينة . فأكد كرد علي بأنه لغرض الدفاع عن هذه المدن ، بل كذلك لغرض الحفاظ على طابعها الاسلامي - العربي ، فإن سورية بحاجة للبقاء على ما كانت عليه لقرون ، جزءاً لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية وجزءاً مركزياً فيها . والبديل الوحيد - وهو بالنسبة له غير مقبول وغير متصور - والمفتوح امام سورية هو ضمها من قبل دولة او اخرى من الدول الاستعمارية الاوروبية النهمة[٦٥] .

ولم يغفل كرد علي في المقتبس ، كما انه لم يتستر على التوترات التي تعرضت لها احياناً العلاقات العربية - التركية في مطلع القرن العشرين . كانت سياسة التتريك تكمن في صلب المشكلة ، إلّا انها ليست مستعصية على الفهم كلياً . ذلك ان جماعة تركيا الفتاة ، وهم في حربهم ضد اعداء في الخارج وانفصاليين في الداخل ، كانوا بحاجة لاسناد البنية المتهاوية للامبراطورية وذلك بأن يفرضوا على مكوِّناتها تماثل اللغة التركية . ولكن مع ان سياسة التتريك كان لها ما يبررها سياسياً فإنها كانت سياسة طائشة وشاذة معاً .

لقد كانت سياسة متعجلة في افتراضها أن التماثل في النطق والتعبير سيؤتي بالضرورة ولاء سياسياً . بل ان هذا التماثل ، برأي كرد علي ، والقائم تحت المظهر الخادع للولاء ، سيولد نفوراً كما سيفاقم الانقسامات القائمة . ذلك ان اللغة هي ليست اداة سياسية خاضعة لسيطرة الحكومة وتلاعبها ؛ بل هي بالاحرى توكيد للهوية الثقافية لا يمكن اهماله ، وهو التوكيد الذي لن يؤدي الضغط السياسي سوى لإذكائه ، الامر الذي سيؤول بدوره الى ابراز الفروق والنزاعات السياسية .

كانت سياسة التتريك بالنسبة لكرد علي ، بصرف النظر عن خطلها السياسي ، تمثل التخلي عن الطابع الاساسي والتاريخي للامبراطورية ككل وبالنتيجة نفي هذا الطابع

(٦٤) حول تقويم عام ، وان يك قصيراً، لطبيعة الحكم في الفترة بعد عبد الحميد في سورية ، انظر : « بين بلاد الاراميين والفينيقيين ، » **المقتبس** ، السنة ٦ ، العدد ٦ (١٣٢٩هـ / ١٩١١م)، ص ٤٢٢ - ٤٢٦ .

(٦٥) حول اهمية سورية الاستراتيجية وحاجتها للبقاء جزءاً لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية ، انظر ، على التوالي : « في ارض الجليل ، » و« نحن واوروبا ، » .

عنها . وفي حين كوّنت الامبراطورية ، من الناحية السياسية ، وذلك في الماضي والحاضر وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم ، فإنها كانت ، على الصعيد الثقافي (الحضاري) ، وينبغي لها ان تظل ، متغايرة العناصر ، فتبيح البقاء جنباً الى جنب لثقافات (حضارات) متنوعة ومتعددة . إن سكان سورية الجغرافية العثمانيين سياسياً هم بالدرجة الاولى ومن حيث الوجود عرب ، يُعرفون بمدنية اسبق ، بأصلها وتفتحها الكامل ، من تأسيس الامبراطورية وابقى على الدهر رغم التقلبات والمحن . والصلة التي لا تنفصم والتي تربط العرب بميراث مدنيتهم التاريخي وكيانهم الحضاري الحالي هي اللغة العربية . فمحاولة فرض لسان غريب على العرب وفصلهم بذلك عن لغتهم، وهي اداة مدنيتهم وتجسيد ثقافتهم ، ليست فقط مناقضة لتقاليد الامبراطورية الثابتة والنيّرة ، بل هي كذلك غير قابلة للتحقيق . وكأن كرد علي مقتنع أن مدنية العرب ولغتهم ستصبران على البدع السياسية الضالة والهزيلة كما صبرتا على بلاء الزمن فكتب لهما البقاء . وقدّم للجنة الاتحاد والترقي نصيحة علنية ومخلصة : عليكم بالتخلي عن سياسة التتريك ، ليس لأنها تهدد مدنية العرب ولغتهم - إذ لم تهددهما - بل لأنها تخلق نزاعاً سياسياً ضاراً ولا مسوّغ له بين العرب والاتراك ولأنها تنشىء تناقضاً زائفاً بين المدنية العربية التي يرتبط بها العرب بشكل لا فكاك منه ، وبين [مفهوم] « العثمانية » الذي يلتزم به العرب كذلك باخلاص باعتباره مفهوماً سياسياً وحقيقة تاريخية[٦٦] .

وليس من المستغرب ابداً ، في ضوء اصرار كرد علي على الحاجة للحفاظ على الرابطة التاريخية بين العرب والاتراك ، ألا تشير المقتبس ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، الى الهياج القومي العربي المحلي الذي يفترض ، وباتفاق الجميع ، ان سورية قد شهدته في ذلك الوقت . ومع هذا فنحن في « المقتبس » امام فكرة قومية متقدمة ، ومتبلورة كل التبلور : ألا وهي ان العرب يشكلون ، بصورة جماعية « امة » قائمة بذاتها . وفي المرحلة التي كان فيها المثقفون العرب يجدّون في بحث المسألة المتعلقة بما يكوّن العربي وما يكوّن الامة العربية ، كانت المشكلة في المقتبس وبالنسبة لكرد علي محسومة اصلاً . فالامة العربية تمتد ، جغرافياً ، من شواطىء بحر الظلمات (اي المحيط الاطلنطي) الى شواطىء المحيط الهندي . وضمن هذه الكتلة الواسعة من الارض يقع ما يصفه كرد علي بالبلاد العربية : مراكش ، الجزائر ، تونس ، اقليم برقة وولاية طرابلس الغرب ، مصر وجيرانها : السودان ، زنجبار ، اليمن ، جزيرة العرب ، اي الحجاز ونجد ، العراق ، وسورية الجغرافية بأسرها . وفي حين ادرك كرد علي ، من الناحية الواقعية ، ان كل قطر

(٦٦) تتوزع ملاحظات كرد علي حول سياسة التتريك في عدد من المقالات . والتحليل اعلاه يستند الى مقالي : « العربية والتركية ،» ، و« قوميتنا ولغتنا ،» **المقتبس** ، السنة ٨ ، العدد ٣(١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) ، ص ١٩٨ - ٢٠٣ .

يمتلك طابعه المميز وصفاته الخاصة وتلهمه فلسفته الروحية الخاصة به ، مع هذا فإن رابطة اللغة والدين الباقية على الدهر تسمو على الفوارق الخارجية وهي اهم منها . إن « الامة » على صفحات المقتبس إنما هي موجودة ، كما هو الحال ، من حيث الامكانية . لكن كرد علي كان يؤمن بأن « الامة » وقد ارتبطت حالياً برابطة اللغة والثقافة والدين ، ستظهر في النهاية ، ومع الوقت ، وبحدوث التبادل في المنافع الاقتصادية ، ستظهر ككيان سياسي قومي كبير ومتميز[٦٧] .

ولعل محك الزمن القارص قد برهن على خلاف ما تكهن به كرد علي من توقع سياسي متفائل . بيد انه [اي المحك] لا ينفي الحقيقة التي مفادها انه قد عاش في دمشق رجل أمعن النظر بعمق وذكاء في القضايا التي أثقلت كاهل جيله ، وان صحيفته « المقتبس » ، هي شهادة باقية على مجهود عقل عربي اراد فهم عالم هو في تحوّل مستمر ، كما اراد - على الصعيد الفكري على الاقل - ان يتعلم العيش مع هذا العالم ويكون جزءاً منه .

(٦٧) حول مفهومه للامة العربية وتكوينها الجغرافي ، انظر : « حالتنا العلمية والاجتماعية ،» ؛ « الحركة العلمية في البلاد العربية العثمانية ،» ، و« الامة تحبو ،» .

الفصل الحادي عشر

قراءة اخرى في مفهوم ساطع الحصري عن القومية العربية (*)

وليد قزيها

يعرف ساطع الحصري في التاريخ الفكري الحديث للمشرق العربي باعتباره واحداً من الشخصيات الرئيسية ، التي أفصحت عن مفهوم القومية العربية ، ودعت على الدوام الى قضية الوحدة العربية . وقد عُرف الحصري لعدد كبير من القوميين والمثقفين العرب بصفته «أبا القومية العربية» . إن اعماله قد قُرئت ونوقشت على نطاق واسع ، وأقرت سمعته كمرب ومثقف ثبت على معتقداته بحزم . وقد تنامى الاهتمام في الوقت الحاضر بأعماله في اوساط الباحثين الغربيين والعرب . فالطبعة السادسة من كتابه « العروبة اولاً » والذي ظهر اولاً سنة ١٩٥٥ قد اعيد طبعه قبل أقل من عام ، كما ان الجزأين الاول والثاني من أعماله المختارة قد نشرا سنة ١٩٧٤ و١٩٧٥ على التوالي .

ولعل من السابق لأوانه الآن إيجاد تفسير - مرضٍ - لتجدد الاهتمام بالحصري . على ان من الممكن احتمال قيام بعض طلاب البحث في الشؤون العربية باشباع فضولنا الاكاديمي في بحر عشر سنوات . وحتى ذلك الحين نكتفي بالنظر في بعض النتائج التي جرى التوصل اليها إبّان إعادة التقويم لاعمال الحصري ، وقد نبيح لانفسنا مساهمة متواضعة في هذا الاتجاه .

يرى احد الآراء في الحصري مجدِّداً تأثر لحد كبير بالأعمال الرئيسية للمفكرين

(*) بدأت اضافة الحصري الجوهرية الى مفهوم القومية العربية في العشرينات والثلاثينات بشكل مقالات نشرت في بعض الدوريات العربية الواسعة الانتشار في ذلك الوقت ، مثل **مجلة التربية والتعليم** الي كان يحررها في بغداد **والرسالة** القاهرية. اضف الى ذلك انه خلال الفترة ذاتها القى الحصري عدداً من المحاضرات للعامة حول الموضوع في نادي المثنى ببغداد وفي مؤسسات تربوية وثقافية اخرى في البلدان العربية . حول هذه المقالات والمحاضرات انظر : ساطع الحصري ، **ابحاث مختارة في القومية العربية** ، التي كتبها ونشرها المؤلف في تواريخ مختلفة من ١٩٢٣ - ١٩٦٣ .

القوميين الاوروبيين في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وسعى لتسليط ذلك الاتجاه من التفكير الاوروبي على الوضع العربي . ففي احدى الدراسات البارزة عن الحصري يتفق المؤلف مع وجهة نظر قديمة لسلفيا حاييم Sylvia Haim « بأن فكر الحصري نادراً ما هو اصيل . فهو لم يكن منشئاً لنظام سياسي او ثقافي ، ومفاهيمه مستمدة أساساً من مفكري القرن التاسع عشر الاوربيين . . . على ان افكاره عن القومية تنبع في الاكثر من [مصدر] القوميين الرومانسيين الالمان »[(١)] .

اما بعض المثقفين العرب الذين كانوا على صلة وثيقة بظهور الحركة الحديثة للقومية العربية في اوائل الاربعينات فينظرون الى افكار الحصري وافكار جيله من القوميين العرب على أنها حشو وقد قدم عليها الزمن . فمثلاً يبدو عفلق محاذراً مما يعتبره الطبيعة غير المجدية لمجهوداتهم الثقافية ، إذ كتب سنة **١٩٤١** يقول : « إنه لمن العقيم لهم ان يبتغوا قوميتهم بتحليلها سطحياً الى عناصرها ، ومن ثم إعادة تركيبها بصورة مصطنعة استمداداً من الكتب والتفكير المجرد والقدوات المأخوذة من امم اخرى . إنهم سوف لن يجدوا القومية الا في ذواتهم ، وقد انصهرت عضوياً في الواقع »[(٢)] .

ويفيد : « ان القومية العربية بالنسبة للبعث هي حقيقة واقعة تؤكد نفسها . إنها لا تتطلب اي بحث او نضال ، وإن كان محتواها يخضع للنقاش والنضال . لذلك فنحن لا نحتاج الى النظر فيما اذا كنا عرباً ام لا ، بل إن ما يجب علينا ان نختاره ونحدده هو محتوى العروبة في المرحلة الراهنة »[(٣)] .

وبظهور اليسار الجديد في المشرق العربي ـ المنبثق اساساً من صفوف حزب البعث ، والجماعات والحركات الناصرية ، والشيوعيين العرب في اوائل الستينات ـ فقد ساد على ما يبدو موقف اكثر تشككاً نحو الحصري ونحو الدعاة الاول للقومية العربية . فمن وجهة نظر الجيل الجديد للراديكاليين العرب ، الذين ابتغوا تركيباً عقائدياً يجمع بين القومية العربية وشكلاً من اشكال الاشتراكية ، أُخذ الحصري مأخذ مفكرٍ تقليدي ومحافظٍ بل حتى رجعي .

إن أغلب هذه التفسيرات تبدو غير مرضية . فالزعم ، من جهة ، ان الحصري قد استعار الكثير من افكاره من اوروبا يعتوره نوعان من القصور : اولهما أن مثل هذا التأويل لا يلقي اي ضوء على سبب اختيار الحصري للاستعارة من تيار واحد من الفكر الاوروبي ، الا وهو تيار القومية دون التيارات الاخرى التي كانت في متناوله في حينه، والثاني ان التأويل المذكور ينحو الى تجاهل بعض العوامل الجوهرية، غير العوامل العقائدية،

(١) William L. Cleveland, *The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati al-Husri* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1971), p. 85.

(٢) ميشيل عفلق ، في سبيل البعث ، ط ٢٠ (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٨) ، ص ١٢١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ .

التي تقرر ليس فقط اختيار الافكار الاوروبية ، بل اختيار الافكار مطلقاً . ومن جهة اخرى فإن القول بأن فكر الحصري عبارة عن حشو زائد او محافظ بطبيعته لهو ببساطة طريقة لا تغتفر في إغفال المنظور التاريخي لعمله .

وربما يمكن تحقيق فهم افضل لفكر الحصري بإرجاعه الى مجموعة الاحوال الاجتماعية والسياسية ذات العلاقة والتي سادت في المشرق العربي خلال فترة ما بين الحربين . فقد تميّز العقدان اللذان أعقبا الحرب العالمية الاولى بالتطور التدريجي للترتيب الودي والوثيق بين طبقة الوجهاء[(*)] في المشرق العربي وسلطات الانتداب . وقد جُسّدت هذه العلاقة في عدد من الاتفاقيات والمعاهدات التي وقعتها الزعامة المحلية وسلطات الاحتلال . وبهذا تنازل الوجهاء لسلطات الانتداب عن بعض المزايا السياسية التي كانوا يصبون الى كسبها لأنفسهم خلال الحرب ؛ بيد انهم في المقابل استطاعوا ترسيخ موقعهم الاجتماعي ـ الاقتصادي في المنطقة .

فمالكو الاراضي الكبار انتفعوا ، تحت الانتداب ، من الاجراءات السياسية والاقتصادية التي اتخذتها السلطات الاستعمارية . إن فرنسا وانكلترا ، في سعيهما لتنشيط الزراعة والتجارة في مستعمراتهما ، قد شجعتا على استيطان البدو ، وحسنتا شبكات المواصلات ، ووجهتا جزءاً كبيراً من مصروفات الحكومة نحو مشاريع تخص إحياء الاراضي وتطوير نظام الري . إن السلطات الجديدة قد نظمت كذلك عمل الادارة وأدخلت نظاماً حسن الترتيب للضريبة مما شجع بعض الاستثمار في القطاع التجاري .

إن تقوية الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي لوجهاء المشرق العربي تحت هيمنة السلطات الاستعمارية كانت لها نتائج سياسية مهمة جداً . ويلاحظ ألبرت حوراني في دراسة له مثيرة للاهتمام أن المشرق العربي تحت الحكم العثماني قد خبر ما يدعوه « بسياسة الوجهاء » ، حيث لعب الوجهاء المحليون دور الوسيط بين السكان المحليين في الاقاليم العربية وبين الادارة المركزية[(٤)] . والوجهاء ، حسب رأي الحوراني ، ينتمون الى ثلاث مجموعات محلية رئيسية : طبقة العلماء ، والعسكريين ، واولئك الافراد او الاسر التي تسيطر على الانتاج الزراعي من خلال ملكيات كبيرة او توليات للوقف . وكانت وظيفتهم الرئيسية هي العمل كصلة وصل بين الاهالي والدولة، بطريقة تضمن جباية الضرائب ، وتحافظ في الوقت ذاته على سطوة الحكومة المركزية السياسية والعسكرية والعقائدية على السكان المحليين .

(*) استخدمت كلمة « الوجهاء » هنا بدل « الاعيان » بحسب ما هو دارج في العراق لأن الاعيان كانوا ايضاً اعضاء مجلس الاعيان . (المترجم)

(٤) Albert Hourani, «Ottoman Reform and the Politics of Notables,» in: William Roe Polk and R.L. Chambers, eds., *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1968), pp. 41-68.

على ان هذا لم يمنع الوجهاء من الإفصاح عن مختلف المصالح لفئات مختلفة من المجتمع وتمثيلها . بل إن طبقة الوجهاء ، كما يعرّفها حوراني ، قد لعبت دوراً ضرورياً وفعّالاً ، وأضحت احد الاعمدة التي يقوم عليها نظام الحكومة العثماني في الاقاليم العربية .

والسؤال الذي يهمنا أن نسأله هو : الى اي مدى جرى الحفاظ على هذا الترتيب تحت الانتداب؟ او ، الى اي مدى جرى تعديله ؟ والجواب المختصر على السؤال هو ان الوجهاء على العموم احتفظوا بدور الوسيط السياسي تحت الاحتلالين الانكليزي والفرنسي للمشرق العربي دون المهمات الاخرى التي كانوا يقومون بها في الماضي .

والتغيير ناجم عن تنصيب ادارة استعمارية نحت الى تجريد الزعامة العسكرية المحلية من سلطاتها السابقة وايداع تلك السلطات الى جيوش الاحتلال . فأغلب الضباط العرب الذين خدموا في الجيش العثماني حتى ١٩١٤ وقاتلوا بجانب الحلفاء إبان الحرب العالمية الاولى قد أبدلوا بضباط فرنسيين وانكليز بعد الحرب . في الوقت عينه فإن المكانة الاجتماعية والثقافية للعلماء قد تردت أكثر فأكثر بتوسيع نطاق التعليم العلماني ونظام المحاكم الحديث تحت الانتداب . وكانت الاصلاحات العثمانية ، قبل بضعة عقود ، قد زعزعت أصلاً وضع العلماء وأوهنت الاساس المستقل لمصدر عونهم الاقتصادي والمالي وذلك بوضع جزء كبير من الاراضي الموقوفة تحت سيطرة الحكومة والملكيات الخاصة .

وهكذا فإن طبيعة الدور الذي كان يلعبه الوجهاء قد اصابه تغيير ، وانحصر تحت الانتداب بمجموعة واحدة من الوجهاء ألا وهم التجار: الملاكون للاراضي . من جهة اخرى فإن اغلبية ضباط الجيش العرب والعلماء إما اندمجوا بطبقة التجار: الملاكين للاراضي ، او فقدوا نفوذهم السابق كلياً. إن الاوضاع السياسية والاقتصادية التي سادت بعد الحرب العالمية الاولى ادخلت مفهوماً معدلاً « لسياسة الوجهاء » . وأدى الامتصاص النهائي لاقتصاديات المشرق العربي في إطار السوق الدولية الى توسيع التجارة الخارجية العربية مع اوروبا . وقد بلغت في بعض البلاد حوالى ٣٠ بالمائة من الناتج القومي الاجمالي ، وارتفع مقدار التجارة العراقية في اواخر الثلاثينات الى ٥٠ بالمائة من ناتجه القومي الاجمالي. ففتح مثل هذا التطور سلسلة واسعة من الفرص امام مالكي الاراضي الكبار لتوظيف جزء من رؤوس اموالهم في الفعاليات التجارية . وبحلول الثلاثينات كانت بعض الاسر الثرية في المشرق العربي تستثمر في الصناعة .

إن التطورات الجديدة جنحت الى تقوية المركز الاجتماعي والسياسي للوجهاء . إضافة الى ذلك فإنها أكدت مهمتهم باعتبارهم وسطاء سياسيين بين الحكام الجدد وبقية المجتمع . وكان الوجهاء من وجهة نظر سلطات الاحتلال وسيلة نافعة يمكن الاعتماد

عليها للسيطرة على الفئات الاجتماعية الادنى . وبوسع المرء أن يتكلم بهذا المعنى عن تأييد « سياسة الوجهاء » في العهد الجديد .

على ان العلاقة بين سلطات الانتداب والوجهاء لم تكن بغاية الصفاء . وقد نشأت احدى نقاط التوتر الرئيسية من التقسيم المصطنع للمنطقة الى منطقة نفوذ فرنسية ومنطقة نفوذ بريطانية . وتعقدت المشكلة بدرجة اكبر بإقامة خطوط حدودية داخل كل منطقة . وحدث هذا في وقت كان الوجهاء ، بفضل صلاتهم التاريخية والاجتماعية وبفضل دورهم المتوسع في التجارة ، يأملون فيه ان يجري التعامل مع المنطقة باعتبارها وحدة سياسية واقتصادية منفردة ، خالية من العقبات الادارية او السياسية او الاقتصادية . لقد كان طموحهم الاوحد ، خلال الحرب ، حينما انضموا للحلفاء ، أن يكون جزاءهم عن خدماتهم دولة عربية مستقلة . بيد انه حينما لم يتحقق حلمهم استمر الحلم باقياً في ضميرهم السياسي .

وكانت نقطة التوتر الرئيسية الثانية التي شغلت اهتمام الوجهاء هي قضية الاستقلال السياسي . فإنهم لم يشعروا بالحاجة لوضع قوات اجنبية في المنطقة ، كما أنهم لم يجدوا داعياً لوجود عدد كبير من الموظفين الاستعماريين على رأس الادارة الحكومية . وطالما بينوا في مفاوضاتهم مع السلطات الاجنبية انه لا يوجد تناقض بين استقلال العرب السياسي وبين الحفاظ على المصالح السياسية والاستراتيجية للقوى الاستعمارية. وبالنتيجة امست فكرة الاستقلال السياسي جزءاً لا يتجزأ من التطلع القومي للوجهاء .

وقد تقرر الهيكل العام للعقيدة القومية التي ظهرت في فترة ما بين الحربين بواسطة الطبيعة الجدلية للعلاقة القائمة بين سلطات الانتداب والزعامة المحلية . وكان الجانب الايجابي ـ الانسجام ـ في العلاقة سائداً إبّان المرحلة موضوع البحث ، وبالتالي لم يتح لنقاط التوتر قط ان تبلغ درجة القطع . لهذا كان من الضروري ، على مستوى الافكار فضلاً عن مستوى التطبيق ، كبح اي حافز راديكالي قد يسبب اي ضرر دائم لنسيج المجتمع السياسي والاجتماعي القائم آنئذٍ . وهكذا جرى تجاهل الطبقات الاجتماعية الدنيا ، ولكن الوجهاء في ذات الوقت لم يحجموا عن الافصاح عن مطالبهم السياسية من اجل الوحدة والاستقلال ، كلما سنحت الفرصة . فمن المهم بإطار هذا المفهوم ، وحين البحث في القومية العربية كعقيدة خلال تلك الفترة ذاتها ، ان يجري التأكيد نفسه على ما تجاهلته القومية وعلى ما أكدته إيجابياً سواء بسواء . بل بوسع المرء ان يبدي ان الفكر القومي العربي في ذلك الحين كان قد استغل بطريقة من شأنها خدمة المصالح الحيوية السياسية والاجتماعية لطبقة اجتماعية معينة ألا وهي طبقة الوجهاء .

من المتفق عليه عموماً أن ساطع الحصري هو ادق من أفصح عن الدعوة للقومية

العربية في فترة ما بين الحربين . كما أنه كذلك من بين اوائل المثقفين العرب الذين أثاروا اسئلة دقيقة عن ماهية القومية وأجابوا عنها . ما هي عناصر تركيب امة عربية ؟ ما هي طبيعة العلاقة بين الدولة والقومية ؟ واين تقع القومية العربية في العلاقة مع الوحدة الاسلامية والشيوعية والتكتل الاقليمي ؟

كان الحصري اكثر من [مجرد] مثقف : لقد كان كذلك بمعنى من المعاني سياسياً . لقد انضم بعيد الحرب العالمية الاولى الى الملك فيصل الاول في العراق كأحد مساعديه ، وعمل معه بصورة وثيقة حين استقر الملك على العرش . وتولى منصب المدير العام [الدائم] [كذا] في وزارة المعارف ، وهو منصب أتاح له ان يؤثر في عقول الشباب العربي في العراق لسنين تالية . وقد استقر في ذلك المركز المعين دون المنصب الوزاري ، لأنه قدر قيمة الحاجة للاستمرارية الدائمة في السياسات التعليمية للدولة الحديثة التأسيس(٥) . وكان من المهم كذلك بالدرجة نفسها ان الحصري ينتمي الى احدى العوائل المعروفة في حلب . وقد تمتع تحت الحكم العثماني بمزايا المكانة الاجتماعية وحصل على افضل انواع التعليم المتاح لمن لهم الاصول الاجتماعية نفسها . وقد رقب عن كثب كيفية العمل لنظام حكومي يحاول الحداثة المرة تلو المرة . إضافة الى ذلك فإنه كان على صلة وثيقة بالوسط الاجتماعي والثقافي للمصلحين العثمانيين ، ويحمل مطامح سياسية مشابهة لمطامحهم . وفي الوقت ذاته فإنه كان مدركاً كل الادراك ، بصفته عربياً ، لأفكار الوجهاء العرب ومطامحهم ، وحين آن الأوان لأبناء جلدته ان ينسلخوا عن الامبراطورية ، انتقل بسهولة ويسر ليأخذ مكانه بين مواطنيه . وقد قال مرة : « إنه عربي ، وحين انفصل العرب من الامبراطورية العثمانية لم يكن له مناص سوى ان ينضم اليهم »(٦) .

لقد اهتم الحصري في المقام الاول بمسألتين رئيسيتين تحت حكم الانتداب : الا وهما، تقسيم المشرق العربي واحتلاله من قبل فرنسا وانكلترا .وفي اهتمامه هذا نظر الى المسألتين من اطار مستمد اساساً من المفهوم الغربي للقومية ، وعلى الاخص القومية الالمانية . على ان اختياره للافكار لم يكن اعتباطياً ، ولا كان اختيار مثقف تستهويه بقوة النتاجات الثقافية للمجتمع الغربي . لقد كان خياراً تقرره مصالح الزعامة السياسية والاجتماعية للمشرق العربي .

وتحكمت كيفية الاختيار بالاساس في خصوصية المطامح السياسية والاجتماعية لطبقة الوجهاء (التجار؛ مُلّاك الاراضي) ، ضمن اطار الهيمنة الاستعمارية . إن فكر

(٥) ساطع الحصري ، مذكراتي في العراق ، ١٩٢١- ١٩٤١ ، ٢ج (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨) ، ج١ ، ص ٤٦ .

(٦) Cleveland, *The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati al-Husri*, p. 45.

الحصري لم يكن محض انعكاس للتفكير القومي الغربي كما زعم البعض . إن تعريفه للقومية ، وبالاخص القومية العربية ، يتضمن بعض العناصر المناقضة للمفهوم الغربي . وليس من المبالغة القول إن فكرته عن القومية تذهب الى ابعد من ذلك ؛ انها تخضع تجارب التوحيد القومي لبعض البلاد الغربية الى خصوصيات الوضع العربي .

عرّف الحصري القومية على انها فكرة اوروبية ظهرت في اوائل القرن التاسع عشر وانتشرت بين الامم الاوروبية . وتعني الامة بالنسبة له : « وجوب تأسيس الدول على أساس القوميات . لأن كل امة من الامم تكوّن (عضوية اجتماعية طبيعية) ، ذات كيان معنوي خاص فيحق لها ان تستقل في ادارة شؤونها ، دون ان تخضع لمشيئة امة اخرى ، وان تؤسس (دولة خاصة بها) مستقلة ومنفصلة عن غيرها »(٧) . وهو يقرر ان القومية ، منذ ذلك الحين ، قد اصبحت القوة المحركة للتاريخ . وقد انتشرت لتشمل معظم ارجاء العالم ، وأطلقت سلسلة من الاحداث والتطورات السياسية . على انه يفيد ان القومية لم تكن مجرد فكرة ، بل إن لها جذورها في الواقع .

إن الانسانية ، بنظر الحصري ، قد انقسمت بشكل طبيعي الى امم ، والامة بالتالي ـ بصفة كونها وحدة حية وحقيقية ـ إنما هي في صميم فكرة القومية . ويضيف ان عناصر تركيب امة ما هي اللغة المشتركة والتاريخ . فما ان تكتسبهما امة ما حتى يؤديا الى تطوير مشاعر وآمال وآلام ووحدة ثقافية مشتركة. بيد ان الحصري ينفي ان يكون الدين المشترك ، او قيام الدولة ، او الوحدة الاقتصادية او التوافق الجغرافي هي من العناصر الضرورية على الاطلاق لوجود امة . وبإلغاء هذه العوامل يرفض الحصري في واقع الامر بعض اهم التصورات الاوروبية الخاصة بالقومية . من جهة اخرى فإنه بتأكيده على اللغة والتاريخ يبدو وكأنه يعدل مفهوم « فيخته » عن القومية ، وهو على ما يظهر يضع التأكيد الاوحد على اللغة اكثر من اي شخصٍ آخر .

وهنا ينبغي ان نسأل لِمَ اولى الحصري هذا القدر الكبير من الاهتمام للغة والتاريخ دون العوامل الاخرى ؟ إن مفهوم الحصري للقومية محدود بالوضع السياسي والاجتماعي في المنطقة ، وبالتقييدات المفروضة عليها من التحكم الاجنبي . فمن جهة لا يستطيع الحصري ادعاء التفوق لجنسه ، كما فعل بعض القوميين الالمان ، لأن الوطن العربي بأسره كان في ذلك الحين يعيش تحت ظل السيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية المفروضة عليه من مجتمعات اكثر تقدماً . ومن جهة اخرى لا يمكن ان تستند دعوته للوحدة العربية على الاسلام ، وإلا كانت الدعوة قد قسمت الامة العربية ولم توحدها . اما الاصرار على

(٧) ساطع الحصري ، محاضرات في نشوء الفكرة القومية (بيروت : ١٩٦٤) ، ص ١٠ .

حالة قيام الدولة كشرط مسبق لوجود امة عربية فإنه كان سيعني ان تلك الامة هي ابعد ما تكون عن كونها امة حقيقية . كذلك فلو انه اثار مسألة المصالح الاقتصادية المشتركة فإنها كانت ستؤدي الى التصور المتفجر للتفاضل الاجتماعي بين الطبقات وربما الى النزاع الطبقي . وعلى الشاكلة نفسها ما كان يسعه ان يهزم غرضه ذاته بتأكيد فكرة التوافق الجغرافي ، وإلا كان عليه ان يقر بوجود امم عربية بعدد ما هو موجود من الوحدات الجغرافية القائمة بذاتها في الوطن العربي .

وعلى العموم فإن الحصري حين استبعد تلك العوامل من عقيدته القومية فإنه كان في الواقع يتجنب قضايا من شأنها الاضرار بمفهوم القومية العربية ، وهو المفهوم الذي يشترك فيه مع طبقة الوجهاء . إن العاملين الوحيدين اللذين يظهر انهما يتفقان مع تطلعه السياسي ، وهما على قدر من المعقولية له ولمواطنيه ، هما اللغة والتاريخ . وحتى في هذه الحالة كان المعوّل عليه أساساً هو اللغة ، اما التاريخ فبمعنى خاص جداً فقط . لقد اعتبر اللغة العربية عموداً رئيسياً من اعمدة القومية العربية ؛ إنها الصلة الرئيسية فيما بين العرب في كل مكان . كتب الحصري يقول : « إن كل الشعوب التي تتكلم العربية - كل الشعوب الناطقة بالضاد حسب التعبير المشهور - هي عربية . . وكل فرد ينتسب الى احد هذه الشعوب هو عربي »[٨] ، « إنه عربي شاء هو او لم يشأ . . . إنه عربي . . . جاهل او غافل . . »[٩] .

اما بالنسبة للتاريخ فإن الحصري يرى ان التجربة التاريخية المشتركة للعرب قد خلقت نوعاً من التماسك المعنوي بينهم . على انه يقرر ان هذه التجربة ليست متوافقة ولا متسقة ، ولذلك تتطلب توجّهاً انتقائياً للتاريخ العربي حتى يكيّف للواقع العربي :

« فعندما نقول (وحدة التاريخ) يجب الا نفهم من ذلك (الوحدة التامة في جميع ادوار التاريخ) بل يجب ان نفهم من ذلك (الوحدة النسبية والغالبة التي تتجلى في اهم صفحات التاريخ) والتي اوجدت ثقافة الامة الاساسية . . . وإلا لما استطعنا ان نجد امة واحدة كانت (موحدة) على طول تاريخها توحيداً تاماً »[١٠] .

ويضيف : « إننا لسنا سجناء ماضينا ، اللهم الا اذا أردنا ان نكون كذلك . إن على كل امة ان تنسى جزءاً من تاريخها ، وألا تتذكر الا ما هو نافع فيه »[١١] .

وما ان أخضع الحصري تعريفه للقومية للشرطين الضروريين والكافيين الخاصين

---

(٨) ساطع الحصري ، **آراء واحاديث في القومية العربية** (بيروت : ١٩٦٤) ، ص ٦٤ .
(٩) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
(١٠) الحصري ، **ابحاث مختارة في القومية العربية** ، ج ١ ، ص ٥٤ .
(١١) كما ورد في : **الفكر العربي في عصر النهضة ، ١٧٩٨ - ١٩٣٩** ، ترجمة كريم عزقول ، ط ٣ (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧) ، ص ٣٧٤ .

بتصوره لمقومات القومية العربية حتى انتقل الى تطبيق ذلك على تجارب الامم الاخرى . فيقول ان البلغاريين لم يمتلكوا عنصري وجود الامة حتى ادركوا حالهم في اوائل القرن التاسع عشر . من جهة اخرى فإن الامريكيين والانكليز لم يكوّنوا امة واحدة بينما هم يشتركون بلغة مشتركة . لقد اكتسب الامريكيون اللغة الانكليزية لكنها لم تكن لغتهم الام الاصلية . والسويسريون والبلجيكيون لكل منهم دولة ، لكن كلاً منهم يتكلم عدداً متنوعاً من اللغات ولهذا فهم لم يكونوا امة[١٢] .

وبالافصاح عن دقائق فكرة القومية العربية حدّد الحصري الاساس العقائدي للدعوة لقضية الوحدة العربية . كانت الوحدة العربية آنئذٍ توضع بإزاء التقسيم ، وهو احدى المعضلتين اللتين يواجههما الوجهاء العرب .

كما كرّس الحصري كذلك بعض مجهوداته الثقافية لأجل فهم افضل لظاهرة الاستعمار . إن طبيعة الحكم الاستعماري ، برأيه ، طبيعة اجتماعية واقتصادية بالاساس ، وفي بعض الحالات استراتيجية . وهو يقول ان الهدف الاول للسلطة الاستعمارية هو احتكار النشاط التجاري للبلاد المحكومة . والخطوة الثانية هي الاستيلاء على مصادر الثروة الطبيعية في المستعمرات ، واتبع المستعمر في بعض الحالات سياسة توطين سكانه في المستعمرات وطرد السكان الاصليين . وفي اوقات الحرب طالما حول الاراضي المحتلة الى قواعد عسكرية .

ويفيد الحصري ان الاستعمار ادى الى خسارة الاستقلال السياسي ، واغتصاب الثروة الوطنية للبلاد المفتوحة . فضلاً عن انه يؤكد ان السياسة الاستعمارية كانت مبنية على قاعدة « فرّق تسد » التي مكنت القوى الغربية من فرض سلطانها على الامم الاخرى ، لكن الاهم انها أتاحت للقوى المذكورة وضع نظام للتعليم هدّد الى حد كبير اللغة القومية للمستعمرات . وفي التحليل النهائي فإن الاستعمار هدد اساس الوجود القومي ، وجوهر القومية ، ألا وهو اللغة .

واقترح الحصري استخدام طرق غير مباشرة لمكافحة تأثيرات الوجود الاستعماري . وحث ابناء جلدته على التركيز على تأسيس معاهد ثقافية متجددة لمواجهة تحدي القوى الاستعمارية والنهوض بالضمير القومي للشباب العرب . إن الاستقلال السياسي بهذا الاطار اضحى مشروعاً طويل الامد نوعاً ما ، ويتطلب قدراً كبيراً من الصبر والجهد المضني . وطبيعة العلاقة بين السلطات الاستعمارية والوجهاء لا تتسامح بوسائل الكفاح الوطني الذي يشمل العنف او المواجهة المباشرة . وهكذا فإن استراتيجية

---

(١٢) الحصري ، **محاضرات في نشوء الفكرة القومية** ، ص ١٠٥ - ١١٩ .

الاستقلال الوطني تميزت الى حد كبير بالاعتدال والصبر والخطط الطويلة الامد . لقد تميزت بحكمة ذلك العصر التي أُبديت وأعيدت مراراً وتكراراً والقائلة بأن افضل ما يحقق الاستقلال هو عن طريق سياسة « خذ واعط » ، و« الطرق التدرجية » و« الخطوة فخطوة » . وقد كشف الحصري النقاب انه قبل ان ينضم الى حكومة فيصل في بغداد ، اخبره الملك انه ما أن يعتلي عرش العراق حتى يحاول « تحرير شؤون الدولة من أيادي البريطانيين شيئاً فشيئاً ، حتى تكسب البلاد استقلالها ، استقلالها التام » . ورأى الحصري « إن الخطة هي سياسة حكيمة وبنّاءة ، نظراً لتقديره للوضع السياسي العالمي والمحلي »[١٣] .

وايجازاً نجد ان عقيدة الحصري في القومية تقوم على مفهوم للامة لا يبيح إرجاعها الى أيٍّ من وحداتها المقوِّمة الدينية او الاجتماعية او الاقتصادية او السياسية . إن الامة ينظر اليها كوحدة عضوية واحدة ، كتلة خرسانية تمسكها روابط اللغة المعززة بالتاريخ . إنه مفهوم غيّب فكرة الفرد وعلاقته بالمجتمع . والفرد العربي بالنسبة للحصري هو فرد قوي وناجح ، وكل ما يحتاجه هو ان يكتسب إحساساً بالجماعة والتزاماً بالواجب الوطني بحيث يكون « متعاوناً ، ومطيعاً ، ومضحّياً . . . » . كذلك تجنّب الحصري اي بحث في الطبيعة السياسية للدولة العربية في المستقبل ، ودعا بوضوح الى سيادة الكيان الجماعي للامة على الفرد . ونتيجة لذلك لم يول اهتماماً لمسألة الحكومة الديمقراطية .

فضلاً عن ذلك فإن هذا المفهوم ذاته طرح جانباً أي بحث يخص مسائل ناشئة عن التفاوت الاجتماعي والاقتصادي . إن ابداء اهتمام اكثر مما ينبغي للعلل الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي كان ينظر اليه بصفته خطوة مفرِّقة [شقاقية] تسبب خراب الامة . لهذا السبب بقي الفكر القومي العربي لبعض الوقت بلا اي محتوى اجتماعي او اقتصادي .

ولعل الحصري لم يتقصد اقصاء مثل هذه الاهتمامات الحيوية من تطلعه ، غير انه يبدو ان المجال في فهمه لفكرة القومية محدود فلا يتسع لاحتواء تلك الاهتمامات بأي نحو منطقي . واذا تذكرنا الحالة السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك الحين فإن الوجهاء لم يكونوا بأي شكل مهتمين بالدعوة لحقوق الفرد ، ولا هم كانوا على الاطلاق راغبين بالدفاع عن قضية الفقراء .

وبالنتيجة لم تكن عقيدة الحصري في القومية العربية لا شكلاً من التقليد الثقافي الصرف ولا صيغة عقائدية أعدت لتلائم اهداف واغراض الراديكاليين والثوريين العرب في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . إنها على وجه ادق ثمرة جهود مفكر عربي افصح عن

---

(١٣) الحصري ، مذكراتي في العراق ، ١٩٢١-١٩٤١ ، ج ١ ، ص ١٣ .

آراء واهتمامات مجموعة اجتماعية معينة في المجتمع العربي خلال فترة معينة من الزمن . إن البحث في فكر الحصري خارج حدود حالته الاجتماعية والسياسية سيشوّه معناه ، وليس هذا فقط بل سيحجب كذلك مساهمة الحصري في التاريخ الثقافي الحديث للمشرق العربي .

الفصل الثاني عشر

الافكار السياسية ليونس السبعاوي

خلدون ساطع الحصري

- ١ -

وُلد يونس السبعاوي في الموصل يوم الرابع والعشرين من آذار / مارس سنة ١٩١٠ وشُنق في بغداد يوم الخامس من ايار / مايو سنة ١٩٤٢[1] . وكان والده المدعو عبدالله الحبيب ، وهو من عشيرة طي العربية ، بقالاً فقيراً، امياً ، في الموصل وقد رزق ثلاثة عشر طفلاً ماتوا جميعاً في طفولتهم . كان السبعاوي هو الرابع عشر ؛ ثم وُلدت للأب ابنة اخرى ؛ وقد عاشت هذه وهي متزوجة من القومي العراقي المعروف صدّيق شنشل .

وساعد السبعاوي أباه في دكان البقالة الصغير الواقع قرب باب الجسر القديم في الموصل . ولإسعاف دخل الاسرة النزر ببعض الاضافة عمل السبعاوي كذلك « صانعاً » اجيراً لدى نجار وحداد وخياط . وكان تعليمه الاولي تقليدياً ؛ فقد ارسل الى « المُلّا » كما يسمى في اللهجة العراقية الدارجة (وتُلفظ الكلمة « مَلّة » في اللهجة الموصلية) ، فعلمه القرآن ومبادىء القراءة والكتابة والحساب . وبعد سنتين من التعليم التقليدي دخل احدى المدارس العلمانية للدولة في الموصل . كان السبعاوي تلميذاً لامعاً ، ويكاد يكون دائماً الاول في صفه ؛ وفي امتحانات البكالوريا الابتدائية العامة لسنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ كان معدله اعلى المعدلات في العراق كله .

كان التعليم مجانياً في العراق ، لكن عبدالله الحبيب كان على درجة من الفقر بحيث لم يستطع معها الاستغناء عن عمل ولده طيلة اليوم ؛ فأخرج السبعاوي من المدرسة . غير

---

(١) وقائع حياة السبعاوي مستمدة في الدرجة الاولى من السيرة الممتازة التي كتبها : خيري العمري ، يونس السبعاوي : سيرة سياسي عصامي (بغداد : ١٩٧٨) .

ان مدير مدرسة السبعاوي اقنع بعض اهالي الموصل الاغنياء بتخصيص منحة متواضعة ، منتظمة ، لتعليمه ؛ فعاد السبعاوي الى المدرسة . ولما مات والده سنة **١٩٢٨** انتقل السبعاوي الى مدرسة ثانوية في بغداد . وقد بهرته الحياة في بغداد وسرته اضواؤها ؛ واذ لم يقدر على تدبير امور المعيشة فقد تولى لفترة من الوقت تدريس اللغة الانكليزية في مدرسة ابتدائية حكومية في عانة ، وهي بلدة صغيرة على الفرات في شمال غرب العراق . واستمر في تحصيل دراسته ، فلما تخرج من المدرسة الثانوية حاز على بعثة (شأنه في ذلك شأن جميع التلاميذ ذوي الدرجات العالية) للدراسة في الخارج على نفقة الحكومة ؛ لكن السبعاوي اعتذر عن قبول البعثة فقد كان عليه ان يعيل امه وشقيقته .

وقد أعال السبعاوي نفسه وأسرته الصغيرة حتى اصبح محامياً سنة **١٩٣٣** وذلك عن طريق قلمه ، بالكتابة والترجمة للجرائد البغدادية . (كان قد حفظ عن ظهر قلب وهو لا يزال في الموصل قاموس الجيب الانكليزي ـ العربي لالياس **انطون** الياس) . فكتب عن نزع السلاح ، وفكرة الاتحاد الاوروبي ، والقضية الهندية ، والمفاوضات الانكليزية ـ المصرية . وعرّب عدداً من رسائل غرترود بيل ، وخطب غاندي ، وفصلاً من كتاب كفاحي [لهتلر] ومن التاريخ الرسمي لحملة الدردنيل .

زار السبعاوي سنة **١٩٣٧** معرض باريس الدولي (وستكون هذه الرحلة هي رحلته الوحيدة الى اوروبا) ، وهناك أذهل العراقين ، المقيمين في باريس لفترة طويلة ، بمعرفته الوثيقة للمدينة ومعالمها ، وهي معرفة حصل عليها كلياً بالقراءة[٢] . كان السبعاوي قارئاً نهماً وإن كان ينتقي ما يقرأ انتقاء . وكان يهوى الميسر ؛ بل لعله كان مقامراً بشكل لا يقاوم ؛ كما انه أخذ يتذوق الموسيقى الغربية الكلاسيكية . لكن عاطفته العارمة التي ملكت عليه لبّه كانت هي القومية قبل كل شيء آخر .

شارك السبعاوي في مظاهرات الطلاب سنة **١٩٢٣** ضد مطالبة تركيا بلواء الموصل . وبسبب اشتراكه في الاضراب العام في بغداد سنة **١٩٣٠** حكم عليه بالسجن لمدة ستة اشهر . ثم انضم الى **عصبة العمل القومي [العربية]** التي تأسست سنة **١٩٣٣** ؛ وصار عضواً في الجمعية السرية الوطنية العربيةالمعروفة باسم **جماعة الكتاب الاحمر** التي تأسست سنة **١٩٣٥** . وبصفته موضع ثقة ضباط الجيش العراقي القوميين وكذلك باعتباره ناصحهم الامين فقد نهض السبعاوي بدور في غاية الاهمية في السياسة العراقية في النصف الثاني من الثلاثينات .

---

(٢) رفائيل بطي ، « دفاتر رفائيل بطي ، » (غير منشورة) .

واخيراً اصبح وزيراً للاقتصاد في وزارة رشيد عالي الكيلاني القومية التي خاضت حرب الثلاثين يوماً (العراقية ـ الانكليزية) سنة **١٩٤١** . ويبدو ان السبعاوي فكر بإلغاء امتيازات النفط العراقية[٣] . وقد أدار العراقيون ، إبّان الحرب ، بنجاح آبار النفط ومصفى خانقين وذلك تحت اشراف السبعاوي وتشجيعه ، دون اي عون من الخبراء الانكليز الذين لجأوا الى السفارتين البريطانية والامريكية في بغداد[٤] . (من الجدير بالذكر انه قيل في ذلك الحين ان العراقيين غير قادرين على انتاج النفط دون مساعدة اجنبية) . وقد قال السبعاوي فيما بعد للمحكمة التي حاكمته أنه كان قد صان نفط العراق .

وحينما اتجهت الحرب [العراقية ـ البريطانية] اتجاهاً سيئاً بالنسبة للجانب العراقي ، نظّم السبعاوي مجموعة من الفدائيين العراقين والفلسطينيين وقادها بنفسه في النتوء الغربي من الجبهة . وكان موجوداً هناك حينما فرّ القادة الاربعة الى ايران بدلاً من الذهاب الى الشمال لمواصلة المقاومة كما كان مخططاً ، مما اضطر رشيد عالي الكيلاني ومفتي فلسطين واتباعهما من المدنيين الى اللحاق بهم . وعندما سارع السبعاوي بالعودة الى بغداد ونصّب نفسه حاكماً عسكرياً لبغداد وذلك لغرض الدفاع عن المدينة ؛ لكنه القي القبض عليه خلال بضع ساعات من قبل عناصر ارادت ايقاف القتال ، فأرسل مخفوراً الى ايران .

وهناك اتصل نيابة عن رشيد عالي وجماعته بالسفارة السوفياتية في طهران[٥] . وقد طلب ان يمد السوفيات الوطنيين بالاسلحة لتمكينهم من مواصلة المقاومة داخل العراق ، وكذلك الاعتراف بحكومة رشيد عالي الكيلاني باعتبارها الحكومة العراقية الشرعية في المنفى ، ويبدو انه قد أقنعهم بحججه فرتبوا له ان يسافر الى موسكو لاتمام المباحثات[٦] .

---

(٣) العمري ، **يونس السبعاوي : سيرة سياسي عصامي** ، ص ٩٠ ، وطه الهاشمي ، **مذكرات طه الهاشمي** ، مع تحقيق ومقدمة في تاريخ العراق الحديث بقلم خلدون ساطع الحصري (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٧) ، ج ١ : ١٩١٩ ـ ١٩٤٣ ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ . وقد اطلع طه الهاشمي الكاتب ان السبعاوي طلب منه تولي رئاسة شركة نفط عراقية صرفة . ويذكر رفائيل بطي في « دفاتره » ان السبعاوي عرض على الهاشمي ادارة شركة النفط .

(٤) محادثات مع السادة نديم الباجه جي ، حسن افنان وشيت نعمان . التفاصيل تفضل بها افنان ونعمان في رسالتين بتاريخ ١٣ / ٦ / ١٩٧٩ و ٥/٨ / ١٩٧٩ على التوالي .

(٥) التفاصيل حول نشاطات السبعاوي في ايران من محادثات مع السادة رشيد عالي الكيلاني ، الحاج امين الحسيني مفتي القدس ، قاسم حسن وصديق شنشل بالاضافة الى : عبد الرزاق الحسني ، **الاسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحررية** ، ط ٤ (بيروت : دار الكتب ، ١٩٧٦) ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ، والعمري ، **يونس السبعاوي : سيرة سياسي عصامي** ، ص ١٠٤ ـ ١٠٧ .

(٦) ومع هذا ، لم يمض وقت طويل حتى اخذ الشيوعيون العراقيون يشيرون في جريدتهم السرية الى « الفاشستيين الرجعيين . . يونس السبعاوي وعصابته العسكرية » ، انظر : **الشرارة** ، العدد ٤ (تشرين الاول ١٩٤١) . وكان الشيوعيون قد ساندوا القوميين في الحرب العراقية ـ الانكليزية عام ١٩٤١ ، لكنهم انقلبوا عليهم =

إلا انه وقع آنئذٍ الهجوم الالماني على الاتحاد السوفياتي ، وعقبه الغزو البريطاني لايران . اسر الانكليز السبعاوي ، وسلموه للسلطات العراقية . وقد قدم عن نفسه دفاعاً مؤثراً وعاطفياً امام المجلس العرفي العسكري الذي حاكمه ؛ لكنه حكم عليه بالاعدام . ويتفق جميع شهود العيان أنه اعتلى حبل المشنقة بشجاعة عظيمة وعزة نفس .

هذه هي باختصار شديد اهم احداث حياة السبعاوي القصيرة والحافلة .

- ٢ -

ينبغي لنا الآن ان نلتفت الى افكار السبعاوي السياسية . وهذه لا يحتويها اي كتاب او كراس ؛ بل يجب استخلاصها من الاوراق الصفراء لجرائد الحقبة(٧) .

وفي سلسلة مقالات ثلاث ، هي في جزء منها ذاتية السيرة ، نشرها السبعاوي تحت عنوان عام هو **نظرات شاب** ، كتب عن طبقة جديدة من الناس أخذت تنتبه للحياة الجديدة(٨) . فقال ان هذه الطبقة لم تكن موجودة قبل نصف قرن ؛ ففي ذلك الوقت لم يكن هنالك سوى بضعة افراد درسوا في تركيا وعادوا الى العراق قبل تأسيس المدارس العصرية في البلاد . اما الآن ففي العراق طبقة من الشبان يُعرفون بسيماهم ، بل حتى بمظهرهم الخارجي . ويمكن مشاهدة هؤلاء الشبان كل صباح ، بلباسهم العصري المؤلف من الجاكيت والبنطلون ، وهم في طريقهم الى المدارس او الدوائر الحكومية او الاعمال الخاصة ؛ لكن اولئك الذين يذهبون الى الاعمال الخاصة ليسوا إلا قلة . وفي الامسيات يمكن مشاهدة اولئك الشبان انفسهم في الشوارع والمقاهي وبعض النوادي القليلة ، وهم يقلبون صفحات الكتب والمجلات والجرائد ؛ ويقرأون عناوينها جهرة ، ويضحكون عالياً على فكاهاتها ؛ وهم منشغلون في الاغلب ببحث السياسة ، صراحة حيناً ، وبتحفظ احياناً اخرى . وفي كل هذا يجري انتقاد الساسة وشتمهم .

إن هؤلاء الشبان لا يخفون تذمرهم من الاوضاع السائدة ، والمستقبل المجهول ،

= بعد الغزو الالماني لروسيا . واليوم يعتبرون هذه الحرب حرب تحرر وطني ، عاكسين بذلك بامانة ، على ما نفترض ، الانقلاب التام في وجهة النظر السوفياتية اليها ، انظر :
Aleksei Fedorovich Fedchenko, *Iraq v Bor' be za Nezavisimost , 1917-1969* [Iraq's Struggle for Independence](Moscow: Hayka, 1970), and
فاضل البراك ، **دور الجيش العراقي في حكومة الدفاع الوطني والحرب مع بريطانيا سنة ١٩٤١** (بغداد : الدار العربية ، ١٩٧٩) ، ص ٢٣٦ - ٢٤٠ .

(٧) نشر العمري مؤخراً مختارات من مقالات السبعاوي الصحفية ، في : العمري ، **يونس السبعاوي : سيرة سياسي عصامي** .

(٨) **السياسة** ، ٦ ، ١٥ / ٢ / ١٩٣١ و ١٠ / ٣ / ١٩٣١ .

والشعب الصامت ، والامة الضعيفة ، والمستعمر القوي : وهذه تعابير تطرق السمع في اجتماعاتهم . وهم كذلك يبحثون الأدب : كتابات العقاد والمازني وطه حسين ، وشعر الرصافي والزهاوي وشوقي . والأدب الغربي يبحث كذلك من قبلهم ؛ فأسماء اناتول فرانس وجان جاك روسو وفولتير وشكسبير ونيتشة وتلستوي ودستويفسكي وغيرهم من الكتّاب والفلاسفة الغربيين ليست اسماء غريبة عنهم . كما تبحث العلوم ايضاً : النظرية النسبية لاينشتاين ومذهب داروين ، والهندسة ، والفلك ، والمنتجات الصناعية . ثم ان السينما والمسرح كذلك من مسائل البحث .

ويذكر السبعاوي في الختام ان البلبلة العقائدية للشباب إنما تعكس بلبلة اولئك الكتّاب الذين ينقلون لهم ويعرِّبون ثمرات العقول الغربية . ويقول ان بعض اولئك الكتاب يختار كارل ماركس ، والبعض الآخر يختار تطرف لينين ؛ في حين يدعو آخرون الى عقلانية غوستاف لوبون ، او يتبنون افكار نيتشة . وفي الادب يختار البعض الخيال الفرنسي ، في حين يختار البعض الآخر الطبيعية [الواقعية] الروسية .

ويكتب السبعاوي قائلاً ان الحرب العالمية الاولى ترسم حداً واضحاً في تكوين الجيل الجديد في العراق ، كما كان الامر بالنسبة للسوفيات في روسيا والفاشيست في ايطاليا والنازيين في المانيا وأتباع غاندي في الهند . لكن هذا الجيل او الطبقة لا ينبغي ان تحدد على أساس العمر لا غيره ، فالجيل او الطبقة تضم كذلك المتعلمين الذين بلغوا النضج قبل الحرب . وتنتمي لهذه المجموعة الخاصة اغلبية موظفي الحكومة وضباط الجيش ورجال القضاء ؛ رجال ولدوا في الدولة العثمانية ، وكان تعليمهم في البداية عثمانياً . هؤلاء الرجال شاركوا في الحرب وأخذوا يدركون مدى ضعفهم بالمقارنة مع الغرب . إن الالم والشقاء الذي سببه هذا الادراك قد أيقظهم من سباتهم ليفيقوا على [فكرة] الوطن العربي ، كما ان رغبتهم باللحاق بركب هذا الغرب القوي ادى بهم ان يثوروا **ويقطعوا صلة بلادهم** [يفصلوا بلادهم] بالامبراطورية العثمانية المريضة بشكل لا يرجى شفاؤه .

لكن تجربة الحرب القاسية لم تكن سوى مقدمة لتجربة اقسى . ذلك انه بعد الحرب اكتشف اولئك الرجال أنهم ومصائرهم كانوا ألعوبة بيد الغرب كما أسيء لهم من قِبله . وقد جرت بضع محاولات متفرقة للتخلص من الغرب آلت جميعها الى العدم . واليوم يمكن رصد اولئك الرجال : فالاقوياء بينهم يكابدون بصمت ، في حين امسى ضعفاؤ هم آلات بيد الغرب الجشع . ويكتب السبعاوي فيقول انه ما من جيل من اجيال الامة العربية قد خبر صدمة اكبر من الصدمة التي قاساها جيله . إن الصدمة التي أصابت الجيل الذي شهد ظهور الاسلام كانت كبيرة بالتأكيد ؛ لكنها كانت محصورة بمعتقدات الجيل وبعض اعرافه ؛ اما العناصر الاخرى في سجيته فلم تدمّر ، بل صُقلت وأُصلحت .

وكان ذلك الجيل محظوظاً كذلك لأن دينه الجديد قد وضع امامه درباً واضحاً ومستقيماً ليتبعه ؛ فكانت النتيجة هي الفتوحات العربية الكبرى . وما من صدمة شعرت بها الاجيال العربية الاخرى ، كجيل العباسيين المهزوم امام جحافل المغول ، والجيل المطرود من الاندلس والجيل الذي واجه الحملات الصليبية ، لتقارن في ضخامتها بالصدمات التي شعر بها جيل السبعاوي . ويقول ان البلاد ، وقد انعزلت عن الحياة الغربية الحديثة لامد طويل ، إنما ولجت تلك الحياة على حين غرة . بل تجدر الاشارة ايضاً الى ان بعض نواحي الحضارة الغربية لما بعد الحرب كانت صدمة للغرب ذاته .

إن الصدمة التي أصابت المعتقدات الدينية لجيل السبعاوي كانت صدمة كبيرة حقاً . فالسبعاوي يذكر ان هذا الجيل آمن على الدوام بأن الامة الاسلامية مصونة من العدوان والفتح ؛ وبأنه حتى اذا خذلها سلاحها فإن قواها الروحية ستهبها النصر ؛ وبأنها في الحقيقة لا تقهر شأنها في ذلك شأن نسور السماء . لكن سرعان ما اتضح انه حتى نسور السماء تطالها الطائرات البريطانية . ويستذكر السبعاوي ما قيل له في الموصل ان البلدة التي صمدت لنادر شاه[9] فلم تخرق حرمتها لا يمكن ان تسقط بيد البريطانيين اللعناء .

وكتب يقول انه لم يخطر بباله قط ، حينما كان يتعلم مبادىء دينه خلال الحرب ، انه سيشهد الالحادية في فترة ما بعد الحرب ، او انه سيقرأ ان الكائنات الانسانية والقرود هي من الاصل ذاته . كان ذلك كله اقوى الصدمات لأشد معتقداته اعتزازاً .

من ثم كانت الصدمات في الحياة الاجتماعية : الزيادة في الثراء والمعيشة المترفة منذ ايام الحرب ، تناول الكحول علناً ونبذ تقاليد المجتمع القديم والمظاهر الخارجية للرجال والنساء .

واخيراً كانت صدمات المخترعات المادية الغربية . ويتذكر السبعاوي من ايام طفولته ما جاء في الف ليلة وليلة من اسطورة خارقة عن الطيران في الفضاء ، ثم رؤيته رأي العين وهو في السابعة من عمره اناساً يطيرون . بعد ذلك كان له ان يسمع الموسيقى من الراديو ، وان يعلم عن التلفزيون الذي بوسعه ان يوصل له الصور والاصوات عبر البحار والجبال . وكتب يقول ان تلك المخترعات ستترك اثراً عميقاً جداً على عقول جيلٍ كان قد خرج من العصور الوسطى مباشرة الى القرن العشرين .

يمكننا ان نرى ان هذه الكتابات للسبعاوي هي كتابات باهرة في اكثر من طريقة واحدة . ففيها يبحث الشاب ابن الاحدى والعشرين سنة من الموصل بادراك عظيم

---

(9) الاشارة هنا الى حصار نادر شاه لمدينة الموصل عام ١٧٤٣ .

الظواهر التي سينعتها علماء الاجتماع في الغرب فيما بعد بالحداثة Modernization ، والتأثر بالغرب Westernization ، والصدمة الثقافية Culture Shock ، والتي يدعوها علماء الاجناس الامريكيون بالتثاقف acculturation [او التبادل الثقافي بين شعوب مختلفة وخاصة التعديلات التي تطرأ على ثقافة بدائية نتيجة لاحتكاكها بمجتمع اكثر تقدماً ـ قاموس المورد] ، ويدعوها علماء الاجناس الانكليز بالاتصال الثقافي Culture Contact .

وقد لا تقل روعة سلسلة اخرى من المقالات للسبعاوي كتبها وهو بعد في الثانية والعشرين من العمر[10] . وفيها يعالج التجزئة الاقتصادية للبلاد العربية في آسيا . ويبدأ ، وبتفصيل واسع ، بتعقب الطرق التجارية وتدفق التجارة في المنطقة في مستهل القرن . ثم يبين كيف ان التغييرات الجارية بعد الحرب في مجرى التجارة بين المنطقة والعالم الخارجي ، وفي داخل المنطقة ذاتها ، قد أدت الى انحطاط خطير في ازدهار المدن العربية .

ثم يمضي فيقول ان القوى الاجنبية خلقت دولاً متعددة على شواطىء البحر الابيض المتوسط ، وعلى انقاض الدولة العثمانية ، ووضعت لها رسومها الجمركية وتعريفاتها الخاصة بها . فما كان يشكل وحدة اقتصادية كبيرة قُسِّم اجزاء . وكان هناك إضافة لذلك سياسات اقتصادية مختلفة للقوى الاجنبية المختلفة حاكمة المنطقة . إن تضارب المصالح الاقتصادية بين تركيا الحديثة وبريطانيا وفرنسا أثَّر على التجارة العربية وسبب إملاق المدن العربية التي كانت مزدهرة حيناً من الدهر . ويشير الى ان فقر الموصل وحلب لم يكن قط اشد مما هو عليه حتى في اسوأ ايام الحكم العثماني[11] .

والحواجز الاقتصادية التي اقامتها القوى الاجنبية في الوطن العربي قد سلبته ثروته وجلبت لمدنه عدم الاستقرار والتشتت الاقتصادي . وهذا حرم العرب من السكينة التي لا يقلقها شيء والتي يقال إنها ساعدت اليابان على التكيف نحو المدنية الغربية وعلى تحقيقها لتقدمها السريع بصورة مذهلة . فضلاً عن ذلك فإن إملاق المدن مسؤول لحد كبير عن إيهان الطبقات الوسطى ؛ وهكذا جُرِّد الانبعاث العربي الحديث من هذا العنصر الحيوي .

---

(10) العالم العربي ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ / ١٠ / ١٩٣٢ و ١ / ١١ / ١٩٣٢ .

(11) قارن آراء السبعاوي هذه بـ :

Alfred G. Musrey, *An Arab Common Market: A Study in Inter-Arab Trade Relations,1920-1967* (New York: Praeger, 1969), chap. 1: «Arab Political and Economic Disintegration: The Interwar Period, 1920-39,» pp. 10-29, and

جلال احمد امين ، **المشرق العربي والغرب : بحث في دور المؤثرات الخارجية وتطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٧٩) .

ويقول السبعاوي إن من الممكن الزعم بأن هذه الاوضاع قد تكون نافعة . ذلك ان الفقر والتذمر في اوساط الاغلبية من سكان المدن سيؤدي الى تبني وسائل العمل الثورية دون السلمية التدرجية ؛ وبذا تكون ازالة النفوذ الاجنبي اقرب منالاً . لكن السبعاوي لا يتفق مع هذا الرأي ، اذ المعتاد هو ان تجمعات من الطبقات الوسطى هي التي تستخدم الجماهير لتحقيق الخير العام . إن ضعف الطبقات الوسطى العربية سيؤخر استغلالاً كهذا لأمد ما قادم ، إلا اذا سادت بعض الظروف الاستثنائية ، في رأيه .

إن السبعاوي في بعض كتاباته ثوري صريح . فهو يعلن ان جيله يرفض رفضاً كاملاً جيل ما قبل الحرب الذي اختُبر فوُجد دون المستوى[١٢] . إن جيله اذا أراد ان يحيا الحياة السامية الكريمة التي ينشدها فإن عليه ان يحطم اولاً جميع الاوضاع السياسية التي خلقها الاجنبي . وهذا التحطيم ، ولو كان بلا إعادة بناء ، هو المهمة العظيمة امام جيله[١٣] .

والاستقلال الممنوح بالمعاهدة العراقية - الانكليزية لسنة ١٩٣٠ هو استقلال غير مقبول للسبعاوي . إنه يقرر بجرأة « أننا لسنا مستقلين » ؛ واستقلال العراق بالنسبة له عبارة عن استقلال « موهوم » ، مجرد « تمثيل » ، و« فصل مسرحي » ؛ فضلاً عن ذلك فإن هذا الاستقلال لم يجلب للبلاد تحسيناً في احواله الاقتصادية والاجتماعية[١٤] . ويبدو ان اهتمام السبعاوي بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية قد حدا به حوالى سنة ١٩٣٨ الى تسطير كتاب بعنوان « الاشتراكية العربية » ؛ لكن المسودات لأكثر من مئة صفحة مكتوبة باليد لم تصل الينا[١٥] .

على ان السبعاوي كان قومياً وليس ماركسياً . ففي محاضرة عن « الوعي القومي » ألقاها سنة ١٩٣٥ في نادي المثنى ببغداد[١٦] ، وضع تمييزاً صارخاً بين العقيدتين في مفهوم الاطار العراقي . فقد قال ان هدف القومية هو خدمة الجماعة . وليست القومية ، كما يزعم أتباع الافكار الماركسية في العراق ، نزوة حمقاء من نزوات القوميين ، وموقفاً متغطرساً خالياً من الانسانية ، وعقيدة غير ذات أساس علمي .

ولا علاقة للقومية بالفاشية السائدة في اوروبا . إن رسالة القومية في المشرق هي التحرير ؛ إنها تعبير عن عاطفة نبيلة ترفض الذل وترفض استغلال البشر . وهي في الغرب

(١٢) الاستقلال ، ٢٣ / ١ / ١٩٣٣ .
(١٣) الاستقلال ، ٢٦ / ١ / ١٩٣٣ .
(١٤) العالم العربي ، ١٥ / ٧ / ١٩٣٣ ، والاستقلال ، ٢٢ ، ٢٣ / ١ / ١٩٣٣ .
(١٥) العمري ، يونس السبعاوي : سيرة سياسي عصامي ، ص ٦١ .
(١٦) نص المحاضرة في : البلاد ، ٦ / ١٠ / ١٩٣٥ .

مشوبة بميل نحو الاستعمار ونحو التحكم بالآخرين . إنها في المشرق دفاعية ؛ وهي في الغرب أمست عدوانية[١٧] .

إن القوميين العرب ليسوا معادين للقوميات الاخرى التي يضمها الكيان السياسي العراقي ، كما يتهمهم خصومهم دون إنصاف . ففي الماضي شاركهم في الوطن نفسه اخوتهم الاكراد والاتراك بمودة وانسجام ؛ وهم اليوم يشاركونهم كذلك في لعنات التأخر والنفوذ الاجنبي .

والماركسيون يفسرون خطأ جميع الاحداث التاريخية ، بما في ذلك المظاهر القومية ، بمسببات اقتصادية محضة . إنهم يتجاهلون العوامل الوطنية . لكن اوضاعاً اقتصادية مشابهة في امم مختلفة قد أنتجت في التاريخ نتائج مختلفة .

أما القوميون ، من الجهة الاخرى ، فيصنفون الجماعات الانسانية وفق القومية . فالعقيدة المثلى من الناحية النظرية هي تلك التي تهدف الى خدمة اكبر عدد ممكن من البشر . لكن القوميين لا يستطيعون ان يروموا خدمة الجنس البشري بأسره بأي طريقة عملية ومعقولة ؛ فهم لذلك يريدون ان يخدموا وحدة اضيق : الجماعة القومية . ولكن كيف السبيل لتحقيق ذلك؟ إن الجماعة القومية تواجه مجتمعات اقوى واكثر تقدماً ، ومن الممكن خدمتها على خير وجه بإحداث نهضة عامة تنظمها كذلك وتزيد رخاءها المادي ، بحيث تصبح بقوة المجتمعات الاخرى وبتقدمها .

ويوضح السبعاوي ،وذلك باتباع نظرية دائرية للتاريخ مبسطة بعض الشيء ؛ ان الامم ، شأنها شأن الكائنات الانسانية ، لها صعودها وهبوطها ، وثمة في مجرى تاريخها فترات من المد والجزر . ويؤمن السبعاوي بأن العرب يمرون بنهضة قومية . بل ان اولئك الذين يبشرون بالماركسية إنما دُفعوا بعين هذه النهضة ذاتها الى التفتيش عن عقيدة جديدة ؛ ومن المفارقات ان أغلبهم قد بدأوا حياتهم كقوميين .

وفي الختام يعبر السبعاوي عن اعتقاده بأن العنصر البدوي في الامة العربية يمكن أن يؤدي اهم الادوار في نهضة العرب . ذلك ان البدو قوم اشداء ، مفعمون بالنشاط ، ولم يفسدوا ، وهم قادرون على ان يزجوا أنفسهم بقوة في اي اتجاه . لكن على العنصر الحضري المتعلم ان يستغل حيويتهم بحيث يضمن التقدم السريع وتحقيق النهضة القومية

(١٧) كان السبعاوي قبلاً قد امتدح الحركة الوطنية الفاشية الايطالية مثالاً على الغيرة القومية التي تقنع الافراد بالتعاون لتحقيق هدف مشترك ، ولكنه انتقدها في الوقت نفسه لانانيتها وعدوانها الاستعماري على ليبيا ، وفضّل عليها بالمقارنة الحركة الوطنية التركية (اتاتورك) ، انظر : العالم العربي ، ٣١ / ١٠ / ١٩٣١ . ويبدو من كتاباته ان الاخيرة هي التي حازت على اعجابه غير المحدود بين الحركات الوطنية في زمنه .

الرائعة . (هل يمكن للمرء الافتراض ان افكار السبعاوي عن البدو والطبيعية الدائرية لحياة الامم تستند الى قراءة عابرة لابن خلدون؟) .

وبالنظر لانتقاد السبعاوي للماركسية فإنه يجدر تلخيص مقالة له نشرها سنة ١٩٣٠ بعنوان « العرب والسوفيات »[١٨] . فهو يبدأ المقالة بالقول ان العرب ، الذين عانوا الامرّين على أيادي القوى الاستعمارية ، والسوفيات ، الذين ناهضوا تلك القوى ، يشتركون في امر واحد : الا وهو كره الاستعمار والمستعمرين . ثم يشير الى رسالة من مراسل الاهرام في باريس تنبىء بمخططات سوفياتية في الوطن العربي ، كما يُستشف من المعارضة السوفياتية للصهيونية ومن مفاوضاتهم مع إمام اليمن لعقد اتفاقية تجارية .

ويقول انه ليس من الغريب ان يحاول السوفيات نشر دعايتهم في الوطن العربي كما فعلوا في الصين والهند الصينية .

لكن ربما يكون المحيّر هو فشلهم في هذا العالم ، على نقيض نجاحهم في الصين والهند الصينية . على ان هذا الفشل لا ينبغي إرجاعه كلياً الى المقاومة البريطانية والفرنسية لنشر النفوذ السوفياتي في الوطن العربي . فثمة عوامل اخرى هي اكثر اهمية : الوسائل الخاطئة المستعملة من قبل السوفيات ، وجهلهم بلغة المنطقة . كذلك فإن حجج السوفيات لا تلائم الثقافة والاوضاع العربية . مع هذا فإن جماعة من الشباب قد اجتذبتهم العقيدة الروسية ، بسبب معارضتها للاستعمار الرأسمالي ؛ إلا ان هذه الجماعة لا تستطيع ، وحدها ، ان تحقق لروسيا ما تريد : ثورة كثورة الصين او الهند الصينية .

ولو اريد للدعاية الشيوعية ان تنجح في الوطن العربي فإن عليها أن تتبع خطوات الدعاية البريطانية نفسها في الامبراطورية العثمانية . فقد وزع البريطانيون الذهب اولاً على الجماهير الجاهلة لفصم روابطها الدينية بالدولة العثمانية . وكان هناك كذلك الشباب العربي ، الطموح لتحرير قومه من الحكم العثماني ؛ فكان طبيعياً أن يتعاونوا مع الانكليز . وبالنتيجة انضمت المطامح القومية الى مخططات الانكليز الاستعمارية لتحطيم الامبراطورية العثمانية .

وكان ان استغل الانكليز بعدئذٍ تحالفهم مع العرب لكي يستعبدوهم ، ويجب الا يحدث هذا مرة اخرى . وينتهي السبعاوي الى القول بأن من غير المحتمل ان تكون نيات الروس مشابهة لنيات الانكليز . وحتى لو كانت كذلك فإن هذا لا ينبغي ان يسبب لنا فزعاً كبيراً ، ذلك ان العرب لن يلدغوا من جحر مرتين .

---

(١٨) **البلاد** ، ٦ / ٦ / ١٩٣٠ .

لقد هاجم السبعاوي الصهيونية في مقالاته هجوماً مراً . وسمّاها « الطامة الكبرى التي نزلت بالوطن العربي مع الاستعمار الاوروبي » ؛ وكتب يقول : « إن وطناً قومياً صهيونياً (في فلسطين) هو تهديد قومي للعرب »[١٩] .

اخيراً يجب علينا النظر في دفاع السبعاوي امام المجلس العرفي العسكري الذي حاكمه محاكمة سرية وحكم عليه بالاعدام[٢٠] . فلتفنيد الاتهام بتشجيعه الجيش على التدخل في السياسة حلّل السبعاوي السياسة العراقية في سنوات ما بين الحربين .

وأوضح يقول ان هناك ثلاث قوى محلية في العراق : الجيش ، والعشائر ، والاحزاب السياسية . إن احدى هذه القوى الثلاث ستدير وتوجه شؤ ون العراق اللهم إذا قُبل التدخل الاجنبي . اما العشائر فهي عنصر غير منظم ، وخاضع لمشاحنات الرؤ ساء القبليين ، ويصعب تنظيمه سياسياً . واما الاحزاب السياسية ، من الجهة الاخرى ، فهي غير ذات وجود في العراق ، كما انها لم تتمتع ، لا هي ولا المجالس النيابية ، بأي سلطة حقيقية .

وهكذا يتبقى الجيش . والجيش هو القوة المنظمة الوحيدة في البلاد ؛ وهي ، بحكم طبيعتها بالذات ، قوة خالية من الفوضى التي تسود القوى الاجتماعية الاخرى ؛ واهداف الجيش اهداف وطنية وبعيدة عن المصالح الشخصية والطائفية [الفئوية؟] . فضلاً عن ذلك فإن الجيش هو مؤسسة تضم اكبر عدد من المتعلمين ، وهم يلتحقون به من جميع مراتب المجتمع العراقي ، ويمثلون بارومتراً يسجل كل ما يجري في ذلك المجتمع .

إن تدخل الجيش في السياسة هو القاعدة في العراق ، وقد استحسن ذلك ساسة آخرون واعتمدوا على الجيش في ادارة البلاد وفي احداث التغييرات السياسية : إنهم سينكرون ذلك إن سئلوا ؛ اما هو ، السبعاوي ، فيرفض الكذب . وبالنظر لاوضاع العراق فإنه يعتقد ان تدخل الجيش في السياسة امر طبيعي وضروري معاً ، حتى تتآلف الهيئات والمؤ سسات السياسية التي تستجيب لحاجات البلاد وتصبو لتحقيق اهداف العراق الوطنية . وستأخذ تلك المؤ سسات على عاتقها المهمات الموكلة الى الجيش الآن .

اما بشأن الاتهام بأن اعماله الانانية قد أسهمت في اندلاع الاعمال العدائية ضد بريطانيا وأن تلك الاعمال العدائية قد ألحقت بالعراق ضرراً مادياً ومعنوياً باهظاً فقد أجاب

---

(١٩) **العالم العربي** ، ٤ ، ٨ / ١٠ / ١٩٣٣ .

(٢٠) لا يزال النص الكامل لدفاع السبعاوي بانتظار النشر . الرواية المذكورة هنا تستند الى قرار التجريم الصادر عن الحكومة العراقية عام ١٩٤٢ ؛ العمري ، يونس السبعاوي : **سيرة سياسي عصامي** ، ص ١٢٢ - ١٣١ وبطي ، « دفاتر رفائيل بطي ، » .

السبعاوي بأن اعماله كانت في مصلحة البلاد ، وأنه غير مذنب بأي إثم حين انضم الى حركة كانت تنوي تحرير البلاد من الاستعباد الاجنبي .

وقال ان الدولة العراقية ليست هبة من الاجنبي ، بل ثمرة كفاح الامة وتضحياتها . وهو يناهض التدخل الخارجي بأجمعه في شؤونها . وان فشل العراق في ردع العدوان الاجنبي لا ينبغي ان يخزي البلاد ؛ وعلى العراقيين ان يفخروا بأنهم قاوموا مذلة الاستكانة للاجنبي .

ان حياة السبعاوي ومماته ، والزخم العام لسياسته ، تجعله بوضوح شخصية باهرة في يومه . لكنها تجعله كذلك ، وبأكثر من طريقة واحدة ، نذيراً مبشراً بظهور القومي العربي المعاصر .

الفصل الثالث عشر

جريدة الايمان والامام يحيى : العقيدة والدولة في اليمن (١٩٠٠ - ١٩٤٨)

جيرالد أوبرماير

إن زوال الامبراطورية العثمانية خلال النصف الاول من القرن العشرين وما رافقه من مواجهة عربية للاستعمار الغربي قد ادّيا الى تحوّل في العقيدة السياسية في الشرق الاوسط والتي تحدّت شرعية السياسة الاسلامية التقليدية . ولم يكن الامام يحيى ، الذي حكم اليمن من ١٩٠٤ الى ١٩٤٨ ، معزولاً عن هذه الازمة في التاريخ العربي بالدرجة التي يريدنا منتقدوه ان نصدقها . إن مشاكل اليمن ومأزق الامام إبّان هذه الفترة تشترك فيهما أنماط حكم تقليدية اخرى : الحاجة لاستيعاب جماعة المؤمنين ، وفي الوقت ذاته استنباط استراتيجيات للالتفاف حول مطلبهم المتنامي للاشتراك في الحكم . وفي حالة اليمن على وجه الخصوص ادى هذا المأزق السياسي بالنتيجة الى عدم توافق بين المثل العليا للامامية الزيدية وبين عقيدة القومية العربية . إن الاحداث المؤدية الى هذا الصدام العقائدي ، والاضواء والظلال التي تلقيها الدراما السياسية [على المسرح] تكشف الكثير من مجريات بناء الدولة وتوفر كذلك تبيان الخطوط الاولى الممكن استبانتها لجمهورية اليمن العربية الحديثة .

إن العقيدة في التطبيق إنما تعمل لحل التناقضات الموجودة في نظام اجتماعي وذلك بتحديد سياسات جديدة وذاتية . وما تستعمله العقيدة لفعل ذلك من اخيلة صارخة ورموز متحكمة قد تكون من المفاهيم الحديثة التكوين عن مكان الانسان في العالم او قد تكون نماذج تقليدية رُقِّمت للمناسبة . وعلى اي حال فإنها تستخدم كمقاصد واستراتيجيات لغرض إنشاء الحقائق السياسية ، كالدول والرعايا ، وإيتاء هذه البنى تحسساً ذاتياً بوجودها وإدراكاً لحقوقها وواجباتها . وفي هذه الدراسة يُنظر الى التجربة اليمنية مع الامبراطورية العثمانية ، والاستعمار الغربي ، والقومية العربية باعتبارها سلسلة من الازمات السياسية والمحاولات العقائدية لحلها [اي حل تلك التناقضات] . والتحليل الوارد في الدراسة لهذه

التجربة هو تحليل محدود وينطلق بالدرجة الاولى من وجهة نظر الامام يحيى المفترضة ووجهة نظر نظامه ، كما انه تحليل يستند اساساً على المعلومات المستحصلة من الجريدة الرسمية « الايمان » .

ويمكن اعتبار المواجهة اليمنية مع العالم الحديث قد ابتدأت بالاحتلال البريطاني لعدن سنة ١٨٣٩ ، وامتداده الاستعماري داخل الجزيرة العربية وتكوين ما سمي بمحمية عدن . وقد شكّل هذا التحرك تهديداً وإهانة معاً لشرعية الأئمة في شمال اليمن واخذ ينظر اليه الامام يحيى بعدئذٍ على انه الغصب غير الشرعي « لعين اليمن » كما كان يشار الى عدن تقليدياً لأسباب تجارية وجيهة جداً . وبعد بضعة عقود ، وعقب افتتاح قنال السويس في ١٨٦٩ ، عاد الاتراك العثمانيون مرة اخرى الى اليمن باحتلالهم صنعاء في ١٨٧٢ بمساعدة وجهاء المدينة الذين عانوا من الفقر والمتاعب من جرّاء الحروب القبلية والتنافس بين الائمة الزيديين . مع ذلك فإن قوة النار الضاربة المتفوقة لكل من البريطانيين والاتراك لم تستطع ، اعتباراً من نهاية القرن التاسع عشر فصاعداً ، احتواء السياسات القبلية للائمة الزيديين . إن اليمن لم « تستعمر » فعلاً قط إلا بقدر سيطرة الجنود الاتراك على مدنها الرئيسية وطرقها التي تربط بينها . والى خارج هذه المراكز كانت التخوم بيد الائمة المتعددين الذين كانوا يظهرون ويختفون مؤسسين عواصمهم هنا وهناك في المدن الجبلية المختلفة في شمال البلاد الوعر . وكانت سياستهم نوعاً من الوهم الذي لم يستطع الاتراك التعامل معه ولا حتى فهمه . إن أشتات السياسة للائمة وقبائلهم قد طبعت بطابعها الامامة الزيدية في اليمن منذ زمن إمامها الاول ، الهادي يحيى ، في سنة ٨٩٨ للميلاد . ولم يستطع الا عدد قليل من الائمة من تحقيق حتى النجاح المحدود في إنشاء سلالات **ثانوية** ومن الاحتفاظ بأتباع عشائريين لفترة متواصلة من الزمن . إن سياسات متقلبة من هذا النمط لا يمكن تفسيرها الا في اطار المفهوم الحيوي للزعامة التي تحبذها الطائفة الزيدية ، والتي تسمح بأكثر من إمام واحد في الوقت عينه ، وفي اطار تكيفها للبيئة السياسية المشتتة لشمال اليمن الجبلي . وحين وصل الاتراك صنعاء سنة ١٨٧٢ كانت هناك إمامتان متنافستان إحداهما تحت حكم الامام المنصور محمد في وادٍ خارج صنعاء والاخرى تحت حكم الامام المتوكل المحسن في الجبال الى شمال البلاد ، وهما الامامان الزيديان الستون والواحد والستون على التوالي .

إن هذا النمط الحيوي من المعارضة من جانب القبائل لسيطرة الائمة المتنافسين هو البنية الاولية للسياسات المحلية في اليمن . ففي نظر اليمنيين لا تعقل ابداً أنماط اخرى من السيطرة ، من قبل ملك غير مسلم في لندن او سلطان غير عربي في اسطنبول مثلاً . والواقع ان الاحتلال الاجنبي قد احدث حساً ومقاومة جديدين لدى الائمة والقبائل معاً وكان له نتائج عقائدية معينة ذات اهمية سياسية كبيرة . إن جميع النماذج التقليدية للسياسات اليمنية ، وكانت شذر مذر في ذلك الحين ، غدت تارة اخرى ذات هدف ، حتى يجدر

الدفاع عنها في وجه هؤلاء « الخارجيين » وسياساتهم : فالقبائل تبتغي إماماً ، والطاغوت العشائري (قانون العرف) يتخلى عن مكانه لشريعة الاسلام الزيدية ، كما ان الدولة ، بنظر الفرد العشائري والرجل الوجيه سواءً بسواء ، تنبثق من الفوضى . إن هذه التحولات أثمرت مستوى جديداً من تشكيلة سياسية تتجلى في ظهور الامام المنصور بن يحيى حميد الدين (١٨٩٠ ـ ١٩٠٤) والذي يشار اليه باعتباره احد « الزعماء الموثوقين لحركة التحرير الوطنية »[١] . وفي سنة ١٨٩١ بدأ المنصور وابنه يحيى الثورة ضد الاتراك والتي ستنتهي بانشاء إمامة مستقلة بحلول سنة ١٩١٨ .

ومن المثير للاهتمام ان الامام المنصور كان على صلة ببعض المفكرين القوميين في زمنه[٢] ، كما ان المعروف ان الامام كان قد زاره الوحدوي العربي « الكواكبي » سنتي ١٩٠١ و١٩٠٢[٣] . وعلى اي حال فإن الزيديين شأنهم شأن القوميين العرب في كل مكان عارضوا بشدة الحكم العثماني . ويمكن الحصول على فكرة ما عن نشوء الآراء السياسية في اليمن من مضمون رسالة بعثها المنصور الى الوالي التركي احمد فيضي باشا سنة ١٨٩٧ . وهي رسالة احتجاج ضد الاحتلال التركي « غير الشرعي » لليمن . إنها بالاضافة لمغزاها التاريخي كمثل على الاتصال بين الباب العالي والاقاليم فهي تعطينا سرداً واضحاً للمسائل المهمة بنظر الامام في ذلك الزمن . ومصطلحات الرسالة هي مصطلحات دينية بالتحديد ، لكن المعنى سياسي بشكل له مغزاه . فالامام يخبر الباشا ان جنوده لا يعطون الله حقوقه : الجنود لا يجتنبون ما حرّم الله ، ولا يقاتلون ضد الإثم [والعدوان] ، ولا يقومون بواجباتهم وفق كتاب الله وسنة رسوله . والاتراك يتهمون على وجه اخص بأنهم يتعاطون الخمر ويزاولون الزنى ويضطهدون الضعفاء ويذلون الشرفاء . ويفيد المنصور ان حقيقتين شائنتين جداً قد ظهرتا للعيان كنتيجة لكل ذلك : اولاهما ان مسلمي اليمن متذمرون بالتأكيد ، والثانية « ان اليهود والنصارى والكفار والمجوس قد اضحوا اكثر قوة . . . فالاتراك لا يشفقون بالمسلمين » . وختام هذه الرسالة ، التي تقسم العالم الى جماعات منفصلة شأنها شأن العقائد جميعاً ، هو إعلان للحرب : « وبما انه لا بديل لأوامر الله ، وبما اننا نتوكل على الله ، فسوف لن نألو جهداً في الجهاد »[٤] .

---

(١) انظر :
Robert W. Stookey, *Yemen: The Politics of the Yemen Arab Republic* (Boulder, Colo.: Westview Press, 1978), p. 160.

(٢) عبدالله بن عبد الوهاب الشماحي ، **اليمن : الانسان والحضارة** (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٢)، ص ١٦٤ .

(٣) Khaldun S. al-Husri, *Three Reformers: A Study in Modern Arab Political Thought* (Beirut: Khayat's, 1966), p. 112.

(٤) عبد الواسع بن يحيى الواسعي ، **تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن من حوادث وتاريخ اليمن مع** =

بعد وفاة المنصور في **١٩٠٤** عقبه ابنه يحيى باعتباره الامام الخامس والستين . وقد اكتسب المنصب عن طريق الاجراء التقليدي للتولية الزيدية ، اي انه تلقى البيعة من الوجهاء الدينيين والعشائريين ، وهذا بعد ان أثبت جدارته في ساحة الوغى كمجاهد وبعد ان اظهر قدرته على المحاكمة العقلية امام مجلس العلماء كمجتهد . وفي خلال العقد التالي قاد الامام يحيى قواته العشائرية ضد البريطانيين والاتراك في محاولة متواصلة لتأسيس امامته في صنعاء ، وهو الهدف التقليدي للائمة الاربعة والستين الذين سبقوه . على ان الهدف اخذ يؤ ول اكثر فأكثر باستخدام مصطلحات « عصرية » ومفاهيم مستمدة من عقيدة في الكفاح تحرض المسلمين والعرب ضد الخارجيين ، سيّان كانوا عثمانيين ام غربيين .

وكانت معاهدة **دعان** Da'an سنة **١٩١١** انتصاراً يمنياً على الاتراك العثمانيين . لقد كانت من حيث الجوهر اول اعتراف رسمي بالامام يحيى من دولة خارجية . وقد قدم الباب العالي تنازلين للامام توسعا بعدئذٍ ليكوّنا الاساس التنظيمي لدولة موحدة في اليمن . فوضعت الشريعة حسب المبادىء الزيدية موضع التنفيذ لاول مرة في كل انحاء اليمن الشمالي . كما اقر الاتراك كذلك بحق الامام في جباية الزكاة في المناطق الشمالية من البلاد . اما في الاراضي الزراعية الشافعية المذهب في الجنوب وحذو البحر الاحمر فإن الاتراك ظلوا يحكمون وفق **القانون** العثماني . وهكذا ، وقبل اغلب البلاد العربية بكثير ، حازت اليمن وحاكمها درجة كبيرة من الاستقلال من السيطرة الاجنبية . وجاءت معاهدة مدروس Mudros سنة **١٩١٨** بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الاولى لتحرر رسمياً جميع الاقاليم العربية من الحكم التركي وتختتم عملية التحرير في اليمن . وفي **١٩١٩** جرى الاعتراف بسيادة المملكة اليمنية ، وان تنبغي الاشارة الى ان الامام يحيى لم يمنح في الحقيقة ابداً شرعية كلية للسلطان اصلاً ، ولم يعترف به قط كخليفة .

ان احد المظاهر الاولية لتشكيل دولة في المراحل الاولى هو تركيز السلطة وانتشارها الناجم عن ذلك من المركز السياسي الى التخوم . وحاول الامام يحيى خلال العشرينات ان يثبّت هوية دولته الناشئة وذلك بفحص تخومها إزاء خصومها المباشرين في الشمال ، المتمثلين بالدولة الوهابية الجديدة ، وخصومها في الجنوب المتمثلين بالعدو البريطاني المزمن . في هذه الاثناء كان ثمة مناهضون اقل اهمية على شكل عشائر متمردة في الجبال الشمالية وفي السهل الساحلي من تهامة . ومثلت مشكلة اخطر بظهور الدولة الادريسية في اقليم عسير . وبحلول **١٩٢٦** دخل الامام يحيى ، بعد ان اختبر مدى حدوده وسطوته العسكرية ، دخل برغبته في محادثات عن الحدود وفي ترتيبات تعاهدية مع كل من

= **زيادات مفيدة وذكر جزيرة العرب وتاريخ حمير ومن عارض ائمة اليمن من الملوك ، رسوم لصنعاء وغيرها** (القاهرة : مطبعة حجازي ، ١٩٧٤) ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

البريطانيين وابن سعود ، فسلّم من الاراضي اكثر مما كسب . وما ان تحددت التخوم بوضوح بالنسبة له حتى وجّه الامام يحيى كل اهتمامه الى توطين الجماعة الزيدية نفسها وتكوين المركز في صنعاء .

إن جزءاً مهماً من تقوية الامام للسياسة الداخلية هو وضع عقيدة متماسكة . فالرسالة السياسية التي صُبغت في البداية بصبغة الرمزية الاسلامية وحدها استجابت بالنتيجة لاتجاهات احدث . وبدأت عقيدة الامام ودولته بالتبلور سنة **١٩٢٦** ، وهي السنة الاولى لصدور الجريدة الرسمية التي حملت عنوان « الايمان » بشكل يناسب الحال ويبشر بالامل . اما المطبعة التي استخدمت في طبع الجريدة اليمنية الاولى فقد كانت هي التي جلبها الاتراك للبلاد سنة **١٨٧٧** لنشر الصحيفة الاسبوعية المعنونة « صنعاء » بالعربية والتركية معاً(٥) . إن جريدة الايمان كمصدر للمعلومات يجري إغفالها على العموم مع انها غنية بالحقائق والافكار الخاصة بمجريات بناء دولة الامام يحيى . كانت الجريدة تطبع في الابتداء حوالى **٨٠٠** نسخة شهرياً فقط وتوزع في المدن الرئيسية دون سواها . وازداد التوزيع بعدئذٍ الى حوالى **١٥٠٠** نسخة سنة **١٩٣٠** وصدرت الجريدة يومياً(٦) . وفي مجتمع كاليمن ذي تقليد زاخر في فنون الاتصالات ورواية الحكايات والغناء والرقص والشعر فمن المؤكد ان « الايمان » وصلت الى اكثر بكثير من **١٥٠٠** شخص(٧) .

ظهرت « الايمان » في الثاني عشر من ايار / مايو **١٩٢٦** . وهذا العدد الاول قيّمٌ لذاته من اجل فهم بعض الجوانب من الامامة الزيدية وأصل اليمن الحديثة . وهي تقدّم كنوع من الميثاق التاريخي اسطورة تأسيس الدولة واسطورة اللبوس الشرعي للحكم ، وكلاهما صُبّا في بوتقة الانساب . فالامام يحيى ينسب الى ابطال الماضي من الزيديين خلال نسب هاشمي ، بإزاء النسب القحطاني او العربي ، حتى يصل نسبه الى الهادي ، اول امام زيدي ، وبالنهاية الى علي بن ابي طالب نفسه . فيحيى هو بحق امير المؤمنين وجلالة الامام لأنه وحده أنقذ اليمن من الفوضى والشحناء والشقاء . وصورة الامامة قد اقيم هيكل بنيتها ، بفضل المقام الشريف ، في صنعاء . ويواصل العدد الاول من « الايمان » ، بعد ان جرى تقديم شرعية الشخص والمكان على ذلك النحو ، تقديم إرشادات صريحة نوعاً ما لجماعة المؤمنين ، [وهي] الاوامر والنواهي الخاصة بجماع الأمة . إن « الايمان » بين **١٩٢٦** و **١٩٤٨** وخلال بياناتها للرعية هي عبارة عن سجل للتأسيس النظامي institutionalization للدولة في اليمن .

(٥) خليل صابات ، **تاريخ الطباعة في الشرق العربي** (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٦) ، ص ٣٢٧ .

(٦) Abdallah al Zine, *Le Yemen et ses moyens d'information, 1872-1947* (Paris).

(٧) لا يوجد من **الايمان** سوى بعض النسخ الكاملة في صنعاء ، ولا توجد اي نسخة خارج اليمن . لذا لم اجد ضرورة في تزويد القارىء بالمعلومات الكاملة لدى الاشارة اليها ، ويمكن لمن شاء العودة اليها في اوراقي .

إن حقوق الامام وواجبات الرعية تدور حول الاعمدة الرئيسية التي أشاد عليها يحيى دولته : القانون وفئة الموظفين والجيش . والقانون الزيدي الذي تشير اليه جريدة الامام عادة باسم « المذهب الهادي » كان هو القالب الذي صبّ به الامام [شكل] دولته . اما الموظفون والجيش فهما من الادوات التي وفرت اللمسات الاخيرة . والقانون كـإفصاح عقائدي وتطبيق سياسي عبّر عن غوامض معينة بشأن الحكم والسلطة وعن مصدرهما وتوزيعهما . وعلى هذه الشاكلة عمل القانون لربط الجماعات الاجتماعية المتنافرة في الظاهر بعضها ببعض لتكون وحدة سياسية ولإزالة التناقض بين المركز والتخوم . وقد استخدم الامام يحيى القانون لتحديد الفواصل بين صفوف المجتمع ولدمج هذه الصفوف في الوقت ذاته . وفي مقالات « الايمان » سُنّت العلاقات بين الامام وأشرافه وقضاته وافراد العشائر وسكان الحضر وطبقات الناس الدنيا ، على مستويات للمجتمع سياسية واقتصادية وشعائرية تحددها الشريعة . و« الايمان » تمجّد هذا الترتيب الهرمي التسلسلي جداً وذلك لغرض ضمانها باعتبارها الاساس المتصوَّر للنظام في الإمامة .

ومن المثير للاهتمام بما فيه الكفاية الكلمة المستعملة للعقوبة القانونية كما تنشرها الجريدة عادة في صفحتها الاولى ، والكلمة هي « الحدود » والتي قد تشير بالطبع الى « الحدود الجغرافية » . والحدود هي النطق العلني لحدود الاخلاق والسلوك ، وكذلك لحدود السلطة . إن انتهاكها ، السرقة ، القتل ، او الزنا . . . الخ ، يجابه بسلسلة من العقوبات . « فالايمان » تحذر مثلاً انه وإن كان يباح لليهود انتاج الخمور لكنهم سيجلدون بقسوة لبيعهم الخمور للمسلمين . وجلد الزانية يُشهر في الجريدة كبرهان على شرعية الإمام : « إن جميع الذين حضروا الحدود غادروا المكان وهم يدعون الله أن ينصر مولانا ودولته الكاملة في جهوده لتطبيق الشريعة » .

والقانون يعمل للحفاظ على الاساس الاخلاقي للدولة ، لكنه كذلك يضمن اساسها المادي بتقديس نوع ما من نظام الضريبة . إن كل مسلم يعيش داخل حدود الدولة ملزم بالمساهمة في دعمها وذلك بايتاء الزكاة . والعملية المعقدة لنظام دفع الضرائب هذا ، والجباية ، والتوزيع ، لم يساعد الدولة وموظفيها فقط ، بل مكّن من توسعهم . و« الايمان » تحث اليمنيين بانتظام على تأديتهم لواجباتهم الدينية بشأن الضرائب وتبين لهم عدالة نظام الزكاة . ويقرأ المرء عادة عن جولات الكاشفين (مفتشي الضرائب) إذ يرحلون من المركز في صنعاء الى التخوم لكي يضمنوا ليس فقط ان الضرائب يجري دفعها ، بل كذلك ان الضرائب المجباة يجري تسجيلها حسب الاصول من قبل موظفي الاقاليم ، كمأموري الولايات في كل لواء . و« الايمان » بصفتها الناطقة بلسان الامام تشير الى هذه الفعّاليات ، بطريقة متعالية نوعاً ما ، على انها « جهد لاسعاف المظلومين من الظالمين » ،

والجريدة تنعى في مكان آخر على بيت المال حقيقة كونه « يتضاءل لأن بعض الموظفين يتساهلون في جباية العشر » . ونحن نعلم من دراسات كثيرة ان عبء الضريبة على المزارع اليمني الاعتيادي كان باهضاً وسبباً مباشراً لهجرة واسعة النطاق الى خارج البلاد . وعلى ضوء هذا يمكننا أن نفهم ان جريدة الايمان إنما تحاول تلاعباً عقائدياً بالتصورات ؛ مثلاً دافع ضريبة « مسلم » ضد جاب « غير نزيه » وهذه العملية تراقب من قبل كاشف « عادل » يعود الى مؤسسة « محتاجة » اي بيت المال . وعند جمع كل هذه التصورات تظهر صورة إمام هو الحامي وصورة فرد من الرعية هو المحمي . وفي اغلب الحالات ، ووفقاً للالقاب التبجيلية المذكورة في روايات « الايمان » عن الغش في الضرائب ، فإن « الظالمين » هم السادة والقضاة والشيوخ الذين يشغلون الوظائف في إدارة الامام الحكومية .

وأدرك الامام أنه لا يستطيع الحفاظ على عرشه الا بواسطة القوة بالدرجة الاولى ، وذلك فيما يتجاوز نطاق حكم القانون . ولكي يتحرر من الاعتماد على قوة العشائر وولاء الطبقة المحيطة بالعرش فقد انصرف الى مهمة تكوين جيش دائم خلال الثلاثينات . وقد تألفت نواة الجيش النظامي من الضباط والجنود الاتراك القلائل الذين اختاروا البقاء في اليمن بعد الانسحاب العثماني . وفيما بعد اتخذ الامام قراراً بجلب « مستشارين عسكريين » من سوريا والعراق معاً لتنظيم حرسه الخاص . وجريدة الايمان حافلة بالروح العسكرية الجديدة في اليمن . وجرى تخصيص قسم خاص من الصحيفة للتعيينات الشريفة (اي التعيينات والترفيعات العسكرية) . وقامت الجريدة بتحديد الدور المجيد للجيش في تطوير وحماية اليمن بصورة تجعل من « الجندي » الدور المثالي [الذي يبتغيه] الرجال . واستخدمت في احدى المقالات الروح العسكرية في المجتمع التقليدي وذلك لابراز دور الجيش العصري : « إن جميع اليمنيين يتعلمون الرماية في صغرهم لأنهم فخورون بآبائهم وعشائرهم . لكنّ هذا ليس كافياً الآن من اجل [بناء] شخصية الجندي العصري واسلحة الجيش الحديث . ولهذا السبب يقوم الامام بتشييد الثكنات ، وحتى باعداد اكثر ، لغرض التدريب العصري » . وسرعان ما غدا الجيش الدائم مسؤولاً عن تدريب الجيش الدفاعي (الاحتياطي) ، فجُنّد جميع اليمنيين من ابناء العشائر إلزامياً للتدريب الاساسي ، وفق منهاج الجيش ، في صنعاء .

إن احدى الطرق الاكيدة لقياس المكانة الجديدة للقائد العسكري في البنية الاجتماعية لليمن هي تدقيق انماط الزيارات الجارية لقصر الامام خلال الاعياد التي تؤلف الدورة الشعائرية في التقويم الاسلامي . فأحد الاخبار المنشورة في « الايمان » بمناسبة الحفل الذي أقامه الامام بمناسبة عيد الفطر يعطي إيضاحاً وافياً نوعاً ما عن الترتيبات الهرمية التسلسل للصنوف في اليمن خلال الثلاثينات . فقد استقبل الامام في قصره

بصنعاء « جميع الامراء والاركان [العسكريين] والسادة والعلماء [الدينيين] والاعيان ، وكذلك عمال وقضاة الاقاليم . في اليوم الثاني من العيد خرج الامام للقاء الامة » .

إن الاحتفالات الدينية والروابط الشعائرية هي على ما هو واضح المادة المستعملة لشد المركز بشبكات التخوم بعضها ببعض . في اثناء هذه الاوقات فإننا لا نقرأ فقط عن الوجهاء الاقليميين العائدين الى العاصمة لتقديم احترامهم للامام . بل نقرأ كذلك عن الحفاوة التقليدية برجوع ابناء الامام ، وكل واحد منهم يسمى سيف الاسلام . إن مدن التخوم الرئيسية يحكمها الابناء الامر الذي يضمن العون المالي والقبلي للامام . واكبر الابناء ، سيف الاسلام احمد ، يبرز كل البروز في الاخبار . ويُصوَّر هذا ، الذي سيلي ولاية العهد في المستقبل ، والذي يتولى تدريجياً أغلب المسؤوليات العسكرية عن والده ، على انه المحارب النموذجي ويُستقبل استقبالاً خاصاً في صنعاء . بيد ان صنعاء كان يزورها كذلك في ايام الاعياد افراد العشائر الاعتياديون لمجرد رؤ ية المدينة ، وتحية الامام ، وفي اغلب الاحيان لتقديم العرائض اليه عن هذه المسألة القانونية او تلك .

إن الحكم الابوي patrimonial للامام يحيى كما سجلته « الايمان » إنما تحف به هالة من الشرعية بكل ما يقوم به تقريباً . فجلسات البلاط اليومية للامام « وقد جلس في فناء القصر تحت الشجرة » توحي بأن باب الاتصال بالسلطة المركزية مفتوح حتى لابسط الافراد العشائريين . والامام ينظر في امور الفساد شخصياً ولا يعتمد في ذلك على مرؤ وسيه . وبصفته راعياً للتعليم فإنه يشرف على شباب اليمن الى درجة ان الامتحانات العامة في المدرسة الرئيسية في صنعاء ، وهي المسماة المدرسة العلمية ، لا تبدأ الا بأمر مباشر منه : « اصدر الامام الامر الشريف ببدء الامتحانات » .

ولو جمعنا كل المعلومات والاخيلة والمفردات الواردة في « الايمان » بعضها الى بعض لخرجنا بانطباع ظاهر عن الكيفية التي بها جمع الامام يحيى سلطته الابوية الى القوة العسكرية للسيطرة على اليمن . ولعل اهم رمز لهذه العملية الدرامية هو تأسيس المركز السياسي في صنعاء الذي يسميه الامام على الدوام مركز الخلافة . إن الامام ، ومن هذا المركز ، لا يحكم رعاياه فحسب ، بل و« يعلمهم » كذلك . والحملات العقابية المرسلة من قبله والتي قادها ابناؤ ه يشار اليها باعتبارها ممارسة في التأديب . وتنتشر من صنعاء الى خارجها شبكة من العلاقات ، اقتصادية ـ اجتماعية ودينية ـ سياسية ، يرسم آثارها الكرّة تلو الاخرى دخول وخروج الناس من كل الاصناف ، وتقويها جاذبية الامام الشخصية ، حتى تُنسج في النهاية بعضها الى بعض في قماشة الدولة . وطالما تحدثت افتتاحيات الجريدة عن قدسية « الحدود » . ففي خارج نطاق المعنى المقصود من « العقوبات القانونية » المقررة للافراد يبين مفهوم الحدود « حد » الدولة والامامة ، و« حد الامان » و« دار الاسلام » . فحيثما تنتهي الحدود تبتدىء الفوضى .

وفي عقد السنين ما بين ١٩٢٦ و١٩٣٦ ، وإذ اتضحت الحدود الاجتماعية بين المجموعات داخل اليمن وثُبتت الحدود السياسية مع الجيران ، نشرت « الايمان » [الكثير عن] فورة فعلية لنشاط دولي في حاضرة البلاد . ورغم ان منتقدي الامام يحيى يتهمونه بعزل اليمن عن العالم « التقدمي » حواليه ، فإنه ما كان سيستطيع البقاء قط خلال هذه الفترة لو كانت تهمتهم صحيحة . صحيح ان الامام يحيى « لم تقع عينه ابداً على البحر الاحمر » ونادراً ما سافر الى خارج صنعاء إلا لزيارة تلك العشائر المختارة التي يمنحها بركاته . مع ذلك ، ومن خلال تطوير شبكة من المؤسسات النظامية المؤلفة من « المبعوثين » والفقهاء والموظفين والجنود ، تمكن يحيى من السيطرة على دولته ومن وضعها ، على شاكلته الخاصة ، على [خارطة] السياسات الدولية .

إننا نقرأ في «الايمان» بحلول سنة ١٩٢٨ ان اليمن قد وقعت بالفعل معاهدات مع ايطاليا وروسيا ، وان البواخر الحربية الفرنسية تقوم بزيارات مجاملة لميناء الحديدة على البحر الاحمر ، الامر الذي اضاف الى فزع البريطانيين المتفاقم في عدن . ودخلت اليمن سنة ١٩٣١ في معاهدة صداقة مع العراق ، وفي سنة ١٩٣٤ وقعت اتفاقية حدود جديدة مع كل من بريطانيا والسعودية وذلك لازالة الخلافات القائمة نهائياً . وبالنسبة للاتفاقية مع السعودية كان الثمن باهظاً نسبياً ذلك ان الامام يحيى سلم إقليم عسير وواحة نجران الى المملكة الوهابية . وقد ذكرت جريدة الايمان في بحثها لهذا القرار قبل التوقيع النهائي ان نجران جزء من الامامة بصورة مشروعة لأن قبيلة يم التي تعيش هناك هي قبيلة يمنية معروفة ؛ لكن المعاهدة إنما وقعت « لأجل صالح الامة الاسلامية » . وفي ١٩٣٦ اقنع التهديد المتزايد للاستعمار الاوروبي في المنطقة الامام يحيى بالدخول في ميثاق حماية متبادل مع السعودية والعراق ، « البلدين المستقلين اللذين تربطهما باليمن روابط اللغة والدين » .

إن انفتاح اليمن الدبلوماسي على العالم افرز بعض التصورات والمفاهيم في عقيدة الامام ونظرته للعالم الامر الذي استخدمه بازدياد من اجل اعترافه الشرعي . واصبحت بؤ رة الاهتمام في الكثير من المقالات التي ظهرت في « الايمان » تسلط على التفوق التقني للعرب ولكن [ايضاً] على تخلفه الخلقي . وانكلترا في اغلب الحالات هي المستهدفة بالذات ، وقد اتهمت بتسليح عشائر اليمن الشرقية ضد الامام . (وهذه تهمة وجهت من منتقدين آخرين للاستعمار في ذلك الحين ومنهم رشيد رضا) . وتحذر « الايمان » انه بينما تعتبر التقنية المتفوقة في الغرب ضرورية للتطور في المستقبل ، لكنها في الوقت عينه يجري التلاعب بها « ضد المسلمين والعرب والمشرق » . إن هدف الغرب هو تفرقة العالم غير الغربي . وتذكر الجريدة الانكليز لبذرهم الشقاق بين الفئتين المتعاديتين الرئيسيتين في داخل اليمن وهما الشافعية والزيدية ، ولتآمرهم على تقسيم البلاد الى شمال قبلي زيدي

وجنوب زراعي شافعي ، ليتحالف الاخير مع محمية عدن ويندمج بالنتيجة بها . و« الايمان » ساخطة في تعليقها على ذلك ولعلها صريحة اكثر مما ينبغي : « إنهم هم النصارى الذين يقولون بوجود خلاف بين الزيديين والشافعيين . لكنهم جهلة في هذه الامور لأنهم يذهبون الى حد القول ان الشافعيين لا يريدون ان يحكموا من قبل الزيديين . فمن يصدق هذا ؟» .

ومع ان هناك ثمة الكثير من الحق في ملاحظات « الايمان » بأن الاستعمار يمضي قدماً ، فإن الامام يحيى نفسه كان يبني عقيدة من شأنها جعل « اهل البلد ضد الاجانب » وذلك لكي يحمي سلالته . كانت أغلب الانظمة التقليدية خاضعة لتفحّص نقدي ووثيق باكتساب [حركة] الاصلاح الاسلامي وسياسات القومية العربية لقوة الدفع . والهجمة العقائدية للامام يحيى قارعت الاستعمار فعلاً لكنها في الوقت ذاته ابتغت احتكار الاهداف التي تنادي بها الفكرة الاسلامية الجامعة والفكرة العربية الجامعة وذلك لغرض حجب التناقض المتزايد بين هذا الفكر وبين فكره السياسي هو .

تكتب « الايمان » قائلة : « إن دعوة الاسلام هي تطوير الامة من اجل الغرض الموحّد لاحياء امجاد الماضي ولتوفير الارشاد من اجل التصرف الجيد والسلوك الحسن » . لكن مثل هذه النصيحة الابوية تخلي مكانها بالتدريج لتجريدات القومية الاكثر نضجاً ، فنحن نقرأ في « الايمان » بعدئذٍ : « ان المسلمين ، أيّاً كان مذهبهم ، ليسوا فقط متشابهين باللغة والعرف والاقليم بل هم كذلك عرب » . وإزاء عالم الاسلام هذا يقف عالم الهمجية ، اي الغرب . وقد يستعير المرء أشياء من الغرب الهمجي إنما ليس الافكار . وكون الملبس التقليدي في جامعة الازهر بالقاهرة قد تراجع امام الموضة « العصرية » إنما تنظر اليه « الايمان » كاحدى حالات زحف الاستعمار .

اما الحدثان الرئيسيان في ذلك الزمن اللذان شبكا الغرب بالعالم العربي ، واللذان كانا من ثمرات الاستعمار الاوروبي ، فهما الحرب العالمية الثانية ومشكلة فلسطين . و« الايمان » تهتم بصورة متزايدة بهاتين الامارتين من امارات التوسع الغربي . ففلسطين تظهر بكل انتظام على الصفحة الاولى من « الايمان » باعتبارها الرمز العام لكل العرب والمسلمين في الثلاثينات والاربعينات . والجريدة تشير الى العلاقة المنطقية بين دور الانكليز في فلسطين واحتلالهم لعدن . من جهة اخرى ، تقول « الايمان » ان ثمة شيئاً يدعو للاعجاب في الالمان « وارتقائهم السريع للقوة » . على ان الجريدة باعتبارها ناطقة باسم الملكيين تجد ثمة خطأ في الاسلوب الذي صفّت فيه سياسة هتلر « حوالى ٢٥٠ من النبلاء والامراء ، الامر الذي سيحرم المانيا من العسكرية الحقة والعظمة الادبية » .

ومن المؤكد ان رغبة الامام يحيى بالتطور الاقتصادي ومغازلاته مع اغلب الامم الغربية في وقت او آخر كانت تهدف بدرجة اقل الى تحسين الحال السيىء لرعاياه وبدرجة اكبر الى ضمان عرشه . ومع هذا ففي سنة ١٩٤٠ ناصرت « الايمان » ما يبدو انه توجه

عقلاني نوعاً ما نحو المشاكل التي تواجه اليمن . لقد بدت الجريدة في ذلك الحين وهي تصطرع باخلاص مع معنى التغيير الاجتماعي والبحث عن صيغة للتوفيق بين التطور والامامة . ونحن نقرأ بعض الملاحظات النقدية والمثيرة للاهتمام بشأن الحداثة ، وبعضها هو بالاحرى تنبئي في تقويمه الحذر لعملية الحداثة باعتبارها مليئة بالمعضلات المحيّرة . « فالايمان » تدرك مزايا التغيير التقني لكنها تدرك كذلك الكمائن السياسية الكامنة فيه : « إن مخترعات الغرب الرائعة ليست ذات قيمة الا اذا خدمت تطور الاقتصاد المحلي ودفعت الاستقلال الاقتصادي للامام » . و« الايمان » تلجأ مراراً الى تجربة اليمن التاريخية نفسها لتستمد منها ما يثبت رأيها : « إن القديم لا يمكنه منافسة الجديد الذي هو ارخص ثمناً واكثر نفعاً » . بيد ان الاتراك لم يحاولوا تطوير القدرات الطبيعية لليمنيين . وهذا هو سبب خسارة الاستقلال الاقتصادي لصالح «الاروام» (والاروام تعني هنا الترك) .

إن الموقع المركزي للتطور الاقتصادي يشخص قائماً في سياسة الامام يحيى ويتضح من الرموز الرئيسية التي تظهر مراراً وتكراراً في « الايمان » في ذلك الحين . فأولاً ، تقدم الجريدة الفكرة العامة نوعاً ما عن « الاقتصاد » وتوضحه لا بالمعنى الضيق والثابت [لمصطلح] الاقتصاد ، بل بمنهاج اوسع « للاصلاح الذي يجب فيه على الاسرة والامة والشعب اليمني نفسه ان يتطور ليواجه التطور الجديد » . والتحدي يشير الى « الطبيعة الاستغلالية » للغرب . ان وراء هذه العقيدة في « الاقتصاد » يجثم التهديد الخطر دائماً الذي تشهره التقنية الغربية والتحدي المتعاظم المتمثل بالافكار الحرة للقومية العربية . إن الامام والقوميين يسعهم بسهولة الاتفاق على الجوانب العريضة للتخلف الاقتصادي العربي والذي وصفته « الايمان » ببساطة ودقة متناهيتين قائلة : « إن الغرب يستغل الشرق بمعنى ان الشرق يجب ان يستهلك سلع الغرب ، وبالاخص المسلمون ، يجب ان يتحد وينتج سلعه ويدير تجارته . وأنت اذا فقدت استقلالك الاقتصادي فقدت استقلالك السياسي » . على انهم لم يسعهم الاتفاق على محتوى الاستقلال السياسي ومعناه .

إن [كلمة] « اقتصاد » كتعبير تشير الى فكرة « إعادة النظر في الوضع التقليدي retraditionalization » وذلك كسياسة معارضة نحو « الاستعماريين » وكذلك وبصورة متزايدة نحو « القوميين» . إنها عقيدة للتطوير الذاتي تحدّد الى حد كبير بموجب مفهومين رئيسيين كلاهما ينطوي في معناه على **الذاتية** والاعتماد على النفس والتطور من الداخل . إن واقع العمران لا يمكن تحقيقه الا بواسطة التعاون . وقد حثت « الايمان » اليمنيين على تأسيس مشاريعهم الخاصة سواء منها الاعمال الصغيرة او الشركات الكبيرة ، وعلى التركيز خاصة على صناعات القطن والتبوغ . وفي الوقت ذاته هناك اخبار عن التطبيقات العملية الكثيرة « للاقتصاد » من قبل الامام يحيى نفسه . إن سيارة تسافر الآن بين صنعاء وعب (Ibb) في ست ساعات فقط بينما كانت تقطع المسافة في ثلاثة ايام والإمام يملك السيارة

الوحيدة في البلاد . وللاحتفال « بفتح » الجنوب وقف عشرات الناس يهتفون على الطريق لمشاهدة الحدث . و« الايمان » تشير الى ان المواصلات والطرق والبرق لا تدفع بالتطور الى الامام فحسب ، بل كذلك تزيد من الامان للجميع . وهناك الكثير من الذكر لإنشاء المدارس الجديدة او المساجد الجديدة في الارياف . ويخبر اليمنيون بأن خدمات البريد قد جرى توسيعها وان البطاقات البريدية متوفرة لهم لاول مرة .

وتطبيق العمران والتعاون هو ليس فقط التطور صعوداً من التخلف الاقتصادي ، إنه كذلك التوسع خارجاً لمصلحة سيطرة الدولة . وتقول « الايمان » : « إن انتشار الامامة هو انتشار الاسلام » وثمة برهان على ذلك في النشاط المتزايد لابناء الامام وممارستهم العديدة المعلنة في التأديب ضد عشائر التخوم . إن السياسة كلها كما ترى « الايمان » يجب ان تكون في خدمة « اعداد المسلمين الصالحين » والكل يجب ان يذعنوا ، حتى عشائر المناطق النائية . و« الايمان » تصف احدى زيارات يحيى الى القبائل القريبة وتنشر نص رسالة من شيوخ على الحدود الجنوبية قرب عدن يشكرون الامام ، صراحة نوعاً ما ، عن أساسيات التطور : عن الحماية من العدوان الخارجي ، عن نشر المعرفة بواسطة التعليم ، عن تطبيق الشريعة ، عن بناء جامع ، وعن تعيين معلمين للمنطقة .

إن الاهتمام بالتطوير في مختلف حقول الامامة ادى في النهاية الى تأسيس وزارات « عصرية » للدفاع والمالية والصحة . . . الخ . وكان التحول الى حكومة « عصرية » سطحياً تماماً في معظم الحالات ويعني ببساطة ان كل « سيف للاسلام » ابن للإمام ، اضحى وزيراً . وفي حين ظلت الطبيعة المحاطة بالطقوس للحكومة على ما هي عليه في مستويات صنع القرارات ، فإن اللمسة الشخصية التي أضفت ، في مراحل سابقة من الامامة ، شيئاً من اللون الشعائري على الوجود الرتيب من كل الجوانب الاخرى ، إن اللمسة الشخصية تلك اخذت تختفي . واوضحت « الايمان » أنه لم يعد لدى الامام يحيى الوقت ليعالج شخصياً المسائل القانونية . ويوعز للفرد العشائري ان يذهب بشكواه الى الحاكم المحلي او العامل [الاداري] . وبتوسع المركز الى التخوم وتعاظم السياسات البيروقراطية في المركز وجد التذمر السياسي فضلاً عن العقائديات المتناحرة مجالاً اكبر للظهور .

وواضح من « الايمان » انه بحلول اواسط الثلاثينات جرى تشخيص اعداء الامام الرئيسيين على انهم في داخل البلاد . فبدأ الامام يحيى ببذل جهوده لبناء جيش حديث وموالٍ له ، وذلك تحت قيادة الامير احمد . وتذكر « الايمان » سنة ١٩٣٤ ان الامام وسّع جيشه ليبلغ عدداً جديداً مؤلفاً من خمسة آلاف جندي وانه اتخذ القرار المذهل نوعاً ما بإرسال مجموعة من التلاميذ العسكريين للتدريب كضباط في بغداد . ويغدو مأزق العاهل

التقليدي واضحاً جداً عند هذه النقطة . فإذ تراخت قبضة الامام يحيى العقائدية على اليمن بوجه الاستراتيجيات البديلة ، وخاصة منها [استراتيجية] القومية العربية ، فإنه اضطر لانشاء تنظيم عسكري وهو الذي سيكون قوة لا نظير لها داخل اليمن ؛ كما يمكن أن يكون من وجهة اخرى صلة وصل مع قوى عاملة خارج البلاد . وما يميز السياسة في اليمن اعتباراً من اواسط الثلاثينات فصاعداً هو في الواقع اعتماد الامام يحيى على جيشه وتنافسه مع مجموعات اخرى للحصول على مساندته . وقد اعطى ذلك للجيش حرية بنيوية للعمل . فانفتحت النخبة العسكرية ، التي اريد لها ان تكون حرساً خاصاً للامام نفسه ، على عقيدة جريدة « الايمان » وكذلك على العقائد الاكثر حداثة ، وكلها تدعي النطق باسم اسلام متجدد وقومية عربية . وهكذا حيّت « الايمان » سنة ١٩٣٦ المجموعة الاولى من الضباط العائدين من العراق ، ومن بينهم عبدالله السلال زعيم ثورة ١٩٦٢ في المستقبل ، حيّتهم باعتبارهم « عون العروبة اليمني الجديد » .

شعر الامام يحيى في ١٩٣٨ بالتهديد الذي يمثله جيشه ذاته لاسرة حميد الدين فارتكب الخطأ المحسوب النتائج باجبار الجماعة الزيدية على مبايعة ابنه احمد. و« الايمان » تحتفي بالحدث ، لكنه كان في الواقع انتهاكاً فاضحاً لقواعد التولية في المذهب الزيدي والتي تتطلب تقليدياً براهين على اللياقة ، وانتخاباً لمنصب الامام ، وتحرّم صراحة وراثة الزعامة . ومع ان الاسلام ظل هو الدعامة العقائدية الرئيسية للنظام في بداية الاربعينات فإن محتوى جريدة الايمان يعكس محاولات صريحة للوقوف بوجه العقيدة المناهضة الخاصة بالقومية العربية وذلك على شاكلة الجريدة الخاصة . فقد كُرّس المزيد من المجال لمقالات الافتتاحية عن مشكلة فلسطين وعن دسائس الغرب . [ولكنّ] حملة « الايمان » ، لتصوير اليمن والامام على انهما النصيران المنطقيان للاسلام والعروبة وفلسطين ، تعتورها هنا وهناك اشارات غامضة لمؤامرات سرية وافكار موحى بها من الاجنبي يعتنقها رتل بأسره من الاعداء المحتملين ، والمثقفين والضباط ، فضلاً عن مطالبين معنيين بالعرش من طبقة السادة .

وكانت « الايمان » مصيبة في تحليلها كما كشفت الاحداث . ففي اواسط الاربعينات بلغ مأزق العاهل [اليمني] مرحلة التأزم ، وكان المظهر الرئيسي من مظاهر ذلك ظهور [حركة] « الاحرار اليمنيين » ، وهي تلاحم سياسي بين القوى التقليدية وبين القوى المؤيدة للحداثة ، وتألفت الحركة من شباب وشيوخ ، من شوافع وزيدية ، من ضباط ثوريين وزعماء دينيين ذوي بصيرة ، ومن جمهوريين وملكيين. وفي ١٩٤٤ عبر بعض مؤيدي هذه الجماعة ، من الزعماء الدينيين والتجار البارزين ، الحدود الى عدن [واستقروا] في المنفى . وبلغت ازمة الامامة ذروتها في ١٩٤٦ بتأسيس جريدة « صوت

اليمن » باعتبارها المصدر الرئيسي لمعارضة الامام ولمعارضة جريدة الايمان ذاتها . واتخذت جريدة الاحرار اليمنيين من مقرها في المنفى بعدن ، حيث يحميها الانكليز ، تجمع حولها القوى الوطنية ، لا ضد الامامة كفكرة بقدر ما هو الامر ضد يحيى كإمام . ومن هنا وجب على « الايمان » ، وقد وضعت في موضع الدفاع ، ان تكرس جل اهتمامها لاتهامات « صوت اليمن » . وكما هو متوقع ، وإذا أخذ بعين الاعتبار اطار التفكير السائد في الوطن العربي الماضي في حركة التحديث ، بدت حجة « الايمان » بأن اليمن « هي بلاد الحرية والتقدم » حجة ضعيفة إن لم تكن ساذجة ، على الاخص في ضوء رفض الامام ان يسلم بالمطالب الشعبية والمتحررة التي ينادي بها الاحرار اليمنيون كالملكية الدستورية مثلاً .

وتكشف احداث ١٩٤٦ المسجلة في « الايمان » عما يمكن أن نعتبره قطع الامام لصلته بسياسته الخارجية « الخالية الوفاض والطاهرة الذيل » . ففي ربيع تلك السنة ، وبعد شهور من المفاوضات المضنية ، اعترفت الولايات المتحدة الامريكية رسمياً باستقلال اليمن وشرعية الامام يحيى . وفي السنة التالية (١٩٤٧) ارسل الامام يحيى ابنه سيف الاسلام عبدالله الى نيويورك لإدخال اليمن رسمياً في عضوية هيئة الامم المتحدة ، وكذلك لإجراء محادثات تجارية مع امريكا . وانتقدت صحافة الاحرار اليمنيين الوفد بشدة كما انتقدت الولايات المتحدة لمساعدتها الامام ونظامه العتيق . وقد أثار ذلك سلسلة من الهجمات المقابلة من « الايمان » تصور الصراع النهائي لملك مقضي عليه بالزوال .

وتُظهر « الايمان » استغرابها من اي انتقاد لاتصالات اليمن مع الغرب . وهي تمضي فتقول ان المرء ينبغي في الحق ألا يعترض على الصلات اليمنية ـ الامريكية لأن بعثة عبدالله التي ارسلها الامام هي جزء من « حركة مباركة لرفع مستويات المعيشة في الامامة » . وتنشر « الايمان » كذلك ان عبدالله بحث مع المسؤولين الامريكيين ما يأمله الامام من تبادل تجاري لمنتوجات يمنية مثل القهوة والجلود مقابل المعدات الثقيلة المصنوعة في امريكا . وتضيف الجريدة قائلة ان المستقبل سيأتي بعلاقات تجارية واسعة مع الولايات المتحدة « حين تتمكن اليمن من الحصول على ثروتها النفطية الواسعة وغير المستخرجة حتى الآن » . واخيراً نقرأ ان سيف الاسلام عبدالله توقف في القاهرة وهو في طريق عودته من نيويورك الى صنعاء وذلك للتفاوض على شراء بعض المعدات العسكرية الامريكية المتروكة في مصر بعد انتهاء الحرب العالمية .

وعلى اثر قرار الامام يحيى باللجوء الى وسائل مستميتة لتبديد عاصفة القومية العربية المتجمعة في الافق فقد ركز آماله على مصر وعلى ملكها . وتعلن« الايمان » عن افتتاح اول قنصلية يمنية في القاهرة بعد توقيع المعاهدة مع مصر . وفي الوقت ذاته تقريباً نقرأ عن وصول معلمين ومستشارين فنيين مصريين الى اليمن وعن مغادرة المجموعة الاولى من الطلاب

اليمنيين للدراسة في القاهرة برعاية الامام . ان تحرك الامام يحيى لتكوين صلات مع امريكا ومصر في محاولة لحماية جبهته الداخلية ، وتحركه لاستخدام التقنية الحديثة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ماكنته السياسية التقليدية ، قد انطوى بذاته على التناقض النهائي ، الساخر في مفارقته ، الخاص بقيام هاتين الدولتين [، امريكا ومصر ،] باسهام يفوق حتى ما قامت به القوى الوطنية المحلية ، في الزوال النهائي لسلالة حميد الدين والامامة الزيدية ذاتها .

إننا نعلم من « الايمان » الكثير عن معتقد الامام يحيى وسياسته الخاصة بمحاولة البقاء في وجه هزيمة تكاد تكون محتمة وعنيفة . ان ما نقرأ هو من نواح عدة تسجيل لمحنة الامام : تطور التناقضات داخل الحياة الاجتماعية لليمن ، ثم المعتقد والسياسة وهما يمسيان تدريجياً على غير وفاق مع الواقع الاقتصادي للامامة الى درجة يكون لا بد معها ان تفصح استراتيجيات بديلة عن نفسها بطريقة او باخرى . ان الامام يحيى ، في نطاق الافكار والوحدة الاسلامية والقومية العربية ، وكذلك في نطاق التقدم التقني وضباط الجيش بأسلحة متقدمة والتجار ورأس المال المتعاظم ، ان الامام في كل ذلك قد خطط « بصورة عقلانية » لدماره شخصياً .

ان الامام يحيى ، وفي نطاق بنى عقائدية مختلفة ، كان مجاهداً شجاعاً ومجتهداً قديراً ، ولم يصبح ، الا مؤخراً ، « مستبداً » وعقبة امام « التقدم » . وفي عام ١٩٤٨ اغتيل الامام يحيى شأنه في ذلك شأن الكثير من زعماء « تقليديين » من قبله والكثير من زعماء « عصريين » من بعده . اما المغتالون ، تحت مختلف اسماء « المصلحين » او « الثوريين » او « المتحررين » ، هم في حقيقة الامر ثمرة [ما أفرزته] العملية التاريخية اليمنية من سادة وقضاة ، من ضباط ومدرسين . كما لم يكن هؤلاء واثقين بالضبط مما يريدونه ، أإماماً اكثر عقلانية ، ام إمامة اكثر حداثة ، ام لعله الخيار الذي هو اشد الخيارات تقليدية ألا وهو دولة قوية تقوم على جيش قوي .

ملحق :

برنامج الحلقة الدراسية

الثلاثاء في ٢٩ ايار / مايو ١٩٧٩

الجلسة الافتتاحية : خطاب الافتتاح القاه كمال صليبي، الجامعة الاميركية في بيروت

الساعة ـ ١٠/ ق . ظ

حلقة البحث الاولى : ـ روجر اوين ، كلية سان انطونيو ، اكسفورد
الوطنية الاقتصادية والبرجوازية الوطنية

ـ دومينيك شفالييه، جامعة باريس ، السربون
الشرق الادنى قبل ١٩١٤ : التاريخ والافكار السياسية

ـ يوسف إبش ، الجامعة الاميركية في بيروت
نظرة شكيب ارسلان للتقدم

ادار الحلقة : احسان عباس ، الجامعة الاميركية في بيروت

الساعة ٣٠/ ٢ ب .ظ

حلقة البحث الثانية : ـ هشام نشابة ، الجامعة الاميركية في بيروت
عبد القادر القباني و« ثمرات الفنون »

ـ طريف الخالدي ، الجامعة الاميركية في بيروت
الشيخ احمد عارف الزين و« العرفان »

- سمير صيقلي ، الجامعة الاميركية في بيروت
محمد كرد علي و« المقتبس »

- عباس كليدار ، مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية
الشيخ علي يوسف : صحفي سياسي وقومي اسلامي

ادار الحلقة : دومينيك شفالييه

الاربعاء في ٣٠ ايار / مايو ١٩٧٩

الساعة ـ/ ١٠ ق. ظ

حلقة البحث الثالثة :
- ستيفان و يلد ، جامعة فردريك ـ ولهلم ، بون
نجيب عازوري ، و« يقظة الامة العربية »
- رشيد الخالدي ، الجامعة الاميركية في بيروت
عبد الغني العريسي و« المفيد » :
الصحافة والقومية العربية قبل ١٩١٤
- مروان بحيري ، الجامعة الاميركية في بيروت
بولص نجيم و« لبنان الكبير» ١٩٠٨ ـ ١٩١٩
- وليد قزيها ، الجامعة الاميركية في القاهرة
ساطع الحصري

ادار الحلقة : روجر اوين

الساعة ٣٠/ ٢ ب. ظ

حلقة البحث الرابعة :
- وداد القاضي ، الجامعة الاميركية في بيروت
الشرق والغرب في كتاب « علم الدين» لعلي مبارك
- أرنولد هوتنغر
امين الريحاني : نظرة ذاتية لعربي عصري
- خلدون الحصري
يونس السبعاوي (١٩١٠ ـ ١٩٤٢) :
افكاره الاجتماعية والسياسية

ادار الحلقة : اولريخ هارمان، مدير المعهد الالماني الشرقي في بيروت

الخميس في ٣١ ايار / مايو ١٩٧٩

الساعة ـ/ ١٠ ق. ظ

حلقة البحث الخامسة :
- جيرالد اوبرماير ، الجامعة الاميركية في بيروت
« الايمان » والامام : مؤشرات تكوين العقيدة والدولة في اليمن
- محمود زايد ، الجامعة الاميركية في بيروت
رأي محمد حسنين هيكل في الاشتراكية

ادار الحلقة : كمال صليبي

فهرس عام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

Books

(A)

(B)

(C)

(D)

(E)

(F)

(G)

(H)

(I)

(J)

(K)

(L)

هذا الكتاب

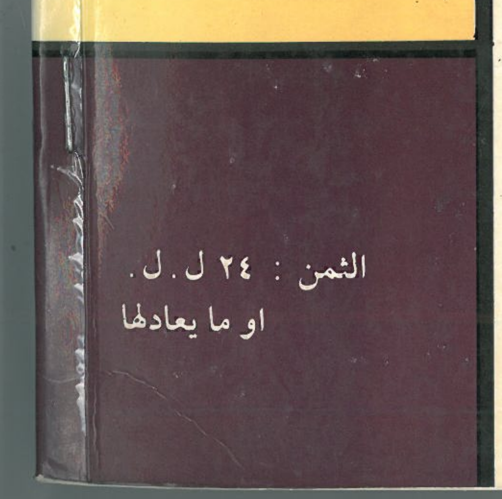
نظّم قسم التاريخ وعلم الآثار ومركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الاوسط ، في ايار / مايو ١٩٧٩ ، حلقة دراسية دولية للنظر في بعض جوانب التاريخ الثقافي والاجتماعي للمشرق العربي بين ١٨٩٠ و١٩٣٩ . وقد أوليت اسبقية الى عدد من الابعاد التي بدت بحاجة الى مزيد من الاستكشاف . ومن بين ابرزها الصحافة السياسية كمرآة تعكس القضايا الجوهرية للمرحلة ؛ والقوميَة ؛ والعلاقات مع الغرب ؛ والاصلاح السياسي والاجتماعي ؛ ودور الدين في المجتمع .

ومن بين الفصول الثلاثة عشر في هذا الكتاب ، تبحث سبعة منها بشكل ما في الصحافة : فالجرائد والدوريات التي بُحثت تتضمن « المؤيد» ، « ثمرات الفنون » ، « المفيد» ، «المقتبس» ، « العرفان » ، « الايمان » ، و« المجلة الفينيقية » . وقد ظهر اتفاق عام في الرأي ، وذلك سواء من بحوث الحلقة او من المباحثات الدائرة ، بأن النهضة العربية قد اتخذت لوناً سياسياً ، الى جانب تأكيدها التقليدي على الادب والفلسفة والتاريخ والثقافة . لذا تقدِّم عدة من البحوث برهاناً على تنبّه متنامٍ في المنطقة لتطفلات من مثل الامبريالية والصهيونية ، ولبعض الهنات [لحركة] الاقتداء بالحياة الغربية .

ان هذا الكتاب هو ابعد ما يكون مسحاً للتاريخ الفكري العربي الحديث ، فهو في الواقع محاولة في اقامة البناء على اساس اعمال جورج انطونيوس وألبرت حوراني وهشام شرابي ، كما انه في الوقت عينه محاولة في استثارة المزيد من الاهتمام العلمي في حقل يتطلب التقويم المتواصل ، وخاصة في ضوء المصادر ، مثل الجرائد اليومية والدوريات ، والتي لم يجر استخدامها كلياً حتى الآن .

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية « سادات تاور » شارع ليون
ص. ب : ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان
تلفون : ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧ - ٨٠٢٢٣٤
برقياً : « مرعربي »
تلكس : ٢٣١١٤ مارابي



الثمن : ٢٤ ل . ل .
او ما يعادلها